الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التـعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2 – أبو القاسم سعد الله

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

# أدب الرحلة عند إيـزابيل إبـرهاردت

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث ل م د

تخصص: أدب المقارن

إعداد الطالب :

محمد نذير الأشهب

إشراف الدكتور:

حميد بوحبيب

السنة الجامعية:2020-2021 /1441-1442

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر2 – أبو القاسم سعد الله

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

# أدب الرحلة عند إيزابيل إبرهاردت

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث ل م د

تخصص: أدب المقارن

إعداد الطالب :

محمد نذير الأشهب

إشراف الدكتور:

حميد بوحبيب

لجنة المناقشة:

| الإسم واللقب | الرتبة | الجامعة | الصفة |
|---|---|---|---|
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |
| | | | |

تاريخ المناقشة :... .../...../ 2021

السنة الجامعية:2020-2021 /1441-1442

# الإهداء

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد:

فكما أن النجاح يحتاج إلى مقومات فإنه أيضا يعتمد على عوامل ساعدت على نجاحي وإني لابتدأ بالشكر:

إلى التي كانت لي حصنا منيعا بيني وبين نائبات الزمن أمي الفاضلة الرحيمة العزيزة التي حملتني تسعا وكابدت من أجلي ففرحت لفرحي وحزنت لحزني أطال الله في عمرها .

إلى روح والدي أحمد رحمه الله واسكنه فسيح الجنان الذي طالما أراد أن يراني في حفل التخرج لنيل أعلى الشهادات فهاأنذا أكرمك وأدعو لك بالمغفرة والرحمة.

إلى من كانت لي السند والعون والنصح ،نصفي الثاني بل وكل روحي ،زوجتي الغالية الأمينة المتألقة دائما والمتطلعة إلى المستقبل المشرق ،محبة العلم،ربة المنزل ،المربية الفاضلة ،أم بناتي.

إلى أساتذتي الأفاضل بجامعة الجزائر2 وكل من علمني حرفا أو أسدى لي بنصح وساعدني في انجاز هذا الرسالة .

إلى الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور حميد بوحبيب .

إلى لجنة المناقشة الموقرة/ د عبد الحميد بورايو د حياة ام السعد د نجيب حماش د مصطفى ولد يوسف د فاطمة الزهراء عقال .

إلى كل زملائي بجامعة الجزائر2 . دون استثناء.

إلى كل من يعرفني أو لايعرفني فيدعو لي في ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة .

إلى إخوتي كل واحد باسمه بناتا وذكورا وإلى أبنائهم وعائلاتهم.

**إلى كل هؤلاء اهدي ثمرة هذا العمل .**

إلى الأستاذ الدكتور حميد بوحبيب.

أستاذنا الفاضل نقدم لكم كل التقدير والثناء بعدد قطرات المطر، وشذى العطر على كل ما قدمته من اجلنا وعلى جهودكم الثمينة من أجل الرقي بمسيرتنا العلمية .

أستاذنا الفاضل، لقد انرت دربنا بالعطاء والمعرفة، وبفضلكم حققنا هدفنا في الوصول للأسمى ، واغتنام المعرفة، شكراً لأفضالكم ومجهوداتكم القيمة التي لن ننساها .

لن ننسى ماحيينا نصائحكم الهامة وصرامتكم في العمل وشدتكم وحزمكم في قول الحق.

جعل الله عملكم وعلمكم في ميزان حسناتكم وأثابكم عنا جميل الثواب.

# مقـــدّمـــــة

كانت الرحلة إلى البلاد الأجنبية على الدوام موضوع درس وبحث لما قدمته للقارئ من معلومات وخبرات جديدة، وما تنطوي عليه فكرة الرحلة نفسها من مغامرات ومفاجآت قام بها أناس آخرون ينتمون إلى حقب تاريخية مضت.

والأدب العربي ثري بالرحلات، وبالمعارف التي جاء بها الرحالة من البلدان التي زاروها ومن المشاهدات التي رأوها رأي العين فكانت بمثابة الصور الفوتوغرافية لتلك الأزمان.

حيث كانت الرحلات ميدانا خصبا، فأتاحت المجال واسعا لدراسة أدب الرحلات عن طريق المستشرقين الذين انبهروا بسحر الشرق وغرابة العادات والتقاليد التي وجدوها عند الاقوام الأخرى فضلا عن الجانب التأريخي لحقبات مجهولة في تاريخ الشعوب إذ شكل أدب الرحلة مادة للرحالة الذين انبروا للتأريخ والتوثيق لعدة حوادث مفصلية في التاريخ العام.

ومن خصائص أدب الرحلة، أنه يحتوي على مجموعةٍ من القصص والأحداث التي تسهمُ في نقلِ صور متعددة الأبعاد: طبيعيا، جغرافيا، ثقافيا...إلخ.

فأدب الرحلة يكتسي طابعا تسجيليا، بما يوفّره من معلومات جغرافيّة حول المناطق الجديدة. وما ينقله من عادات سكان المناطق التي وصلها الرحالة وطبائعهم، وممارساتهم.

فعلى مرّ التاريخ، صوّر لنا الرحالة البلدان التي حلّوا بها وقدّموا لنا رؤيتهم الذاتية، فكانت عواطفهم في الكثير من الكتابات مسيطرة على طبيعة الصورة المقدّمة للقارئ. فمن هذه الزاوية يمكن القول إن أدب الرحلة يوفّر زاوية رؤية مزدوجة: موضوعية وذاتية معا. إذ نجد أن الرحلة تختلف من رحّالة إلى آخر فمنهم الأديب الذي يُضفي عليها مسحة جمالية أدبية يتكلف فيها باختيار الألفاظ وانتقاء المعاني والدلالات ومنهم الذي يجعلها يوميات تسيطر عليها عواطف الرحالة متقلب المزاج مضطرب الأحوال ومنهم عالم الأحياء والجغرافي، ومنهم رجل الدين، ومنهم المغامر والتاجر...ومن الطبيعي أن تختلف رؤاهم وانطباعاتهم.

ومنطلقات الرحلة وغايتها أيضا تختلف من شخص لآخر فقد تنطلق من الرغبة في اكتشاف المجهول والسيطرة على الاقوام الأخرى ودراستها أنثروبولوجيا لمعرفة مواطن الضعف وكيفية انقيادها نحو مصائرها، وقد تكتسي بعدا تبشيريا دعويا، بالسعي إلى نشر الدين أو نشر عقيدة الرحّالة، على حساب أديان أخرى، وقد تكون مجرد مسعى للاسترزاق وتحقيق أرباح مادية عن طريق التجارة.

آثرنا في بحثنا هذا أن نضيف إلى البحوث العلمية رحلة غربية المنشأ، جزائرية المكان، صحراوية الهوى والروح، لأن صاحبتها عشقت هذه البلاد وتمنت أن تموت فيها–وكان لها ما أرادت–وتبنّت الطريقة القادرية وتلقت تعاليمها بالوادي وباتت تذكرها في كتاباتها. إنها إيزابيل إبرهاردت الرحالة الأديبة السويسرية ذات الأصول الروسية القادمة من جنيف لتستقر في الجزائر في مطلع القرن العشرين، وتبدأ رحلتها مع الكتابة بمختلف أنواعها، لتعمل مراسلة صحفية وكاتبة للرسائل والخواطر واليوميات والقصص القصيرة.

فكيف كانت بدايات هاته الرحلة؟ وما المسارات التي سلكتها؟ وماهي الأسباب التي جعلت من فتاة سويسرية في مقتبل العمر تخاطر بحياتها، بل وتبيع كل ما تملك لتُكمل رحلتها إلى الجزائر؟ ولماذا عادت إلى الجزائر بعد طردها من قبل السلطات الفرنسية؟ وكيف صورت الجزائري في كتاباتها؟ وهل كانت الرحالة كغيرها من المستشرقين الذين زاروا المنطقة قبلها؟

كل هاته الأسئلة المتداخلة هي التي ترسم إشكالية بحثنا، لأنها تقع في عمق السؤال الجوهري: ما الذي يميّز أدب الرحلة عند إيزابيل إبرهادت؟

وسنحاول أن نجيب عنها، مع أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي كتبت فيها هاته الرحلة بالرجوع إلى المصادر الأصلية التي طبعت بعد وفاتها لتوخي الحذر في المسائل التاريخية التي ذكرت فيها. فالموضوع على قدر كبير من الأهمية لعدة أسباب منها أن كتابة "كتاب الرحلة" كان مشروع إيزابيل إبرهاردت نفسها عندما ذَكرت مخطط كتاباتها–عند عودتها إلى الجزائر وهي بمرسيليا–الذي لم يكتمل. والسبب الآخر هو الإضافة التي نطمح إلى تقديمها من خلال تناول هاته الرحلة منذ

وطأت أقدام إيزابيل إبرهادرت أرض الجزائر إلى وفاتها بعين الصفراء، وأخيرا لتسليط الضوء على الزوايا المعتمة في حياتها ورحلتها.

وموضوع بحثنا، ليس بكرا تماما، فثمة دراسات سابقة منها دراسة عيسى بخيتي في أطروحة دكتوراه علوم موسومة بـ" أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق" وكذا رسالة دكتوراه بعنوان "النثر في الرحلة الجزائرية خلال القرن العشرين" للباحث عمر بن قينة (جامعة الجزائر) وأيضا دراسة أحسن دواس في رسالة ماجيستير موسومة بـ "صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين مقاربة سوسيو- ثقافية" (جامعة قسنطينة)، ودراسة الباحثة ياسمينة شرابي بجامعة البويرة بعنوان "الموروث الثقافي في أدب الرحلة الجزائري" ، ورسالة دكتوراه للطالبة صبرين بن زيان من جامعة باتنة 2 قسم اللغة الفرنسية 2016-2017 الموسومة بـ: الواقع والإبداع الأدبي في أعمال إيزابيل إبرهاردت ، ودراسة Danièle Masse دانييال ماس سنة1991 الموسومة بـ: مساران تحت شعار الشرق حالة إيزابيل إبرهاردت وإلامابرلت جامعة مرسيليا 1 ،ومحمد رشد إيزابيل إبرهاردت والجنوب الوهراني رسالة دكتوراه سنة 2003 في الأدب المقارن جامعة مونبولييه3 ، وليلى اويز حدوش دريس في رسالة دكتوراه من جامعة باريس 8 سنة 2010 الموسومة بـ :البناء الذاتي في الكتابة الأدبية – حالة إيزابيل إبرهاردت – كما سبقتنا الطالبة Alba DELLAVEDOVA ألفا ديلافيدوفا من جامعة باريس السربون –مدرسة الدكتوراه 3- قسم اللغة الفرنسية والأدب المقارن برسالة دكتوراه موسومة بـ:تجربة التجديد بين بناء الذات ووصف العالم :النص لقاء المطالب الأدبية والعلمية –حالة إيزابيل إبرهاردت- سنة2017.وهي تتراوح بين أدب الرحلة وغيره من جوانب عدة إما تتعلق بأدبيتها أوبخطابها أو ببنيتها، وهي فضلا عن ذلك دراسات شاملة، لم تخصص لمدونة واحدة، مما جعلها ذات طابع تعميمي. أمّا رحلة إيزابيل إبرهارت التي هي موضوع بحثنا، فلم ترد فيها إلا لِماما، ولم تُطرق من قبل في دراسة منفردة على حد علمنا.

وسبب اختيارنا هذا الموضوع، هو شغفنا بكتابات إيزابيل إبرهاردت ورسائلها المترجمة بينها وبين أخيها (أوغيستين) وزوجها سليمان هني من خلال كتاب "عودة العاشق المنفي"، أثناء إقامتها بوادي سوف التي كتبت خلالها مجموعة من القصص القصيرة والتقارير الصحفية لترسلها إلى (جريدة الأخبار) بباريس. وقد كانت في معظمها عن أحوال الناس بالمنطقة مع تركيزها على ظلم الاستعمار الفرنسي للسكان وإظهارها محافظة أهالي المنطقة على الدين الإسلامي واللغة العربية من خلال الزوايا.

فهدفنا من البحث، هو إماطة اللثام على هذه الأديبة المتميزة المبدعة رغم ما شاب سلوكياتها من شوائب لتربيتها الأوربية المتحررة ولباسها الرجالي وركوبها للحصان وتدخينها للحشيش... وهو ما يفرض علينا توخي الموضوعية في طرحنا، لنبيّن خصائص كتاباتها بما يُنصف أعمالها الأدبية، ويُظهر رؤيتها الثقافية والسياسية للجزائر ولأهلها.

سنحاول الإحاطة بهذا الموضوع الجذّاب، الصعب في آن واحد من خلال تداخل التاريخ والأدب في هذا الفن فقد جذبت الرحلة بعوالمها المختلفة وقصصها وشخوصها المتنوعة القارئ والباحث فبهرت كل من اقترب منها وأسرت إلى مواطنها وأزمنتها المختلفة كل شغوف.

وأهم المصادر التي اعتمدنا عليها في الوصول إلى مدونتنا هي "يوميات إيزابيل إبرهاردت" التي جمعها فيكتور باروكاند بعد وفاتها وأيضا كتاب في "ظلال الإسلام الدافئة" وكتاب الأعمال الكاملة لإيزابيل إبرهاردت قصص ياسمين وآخرين وهي كلها كتب بالفرنسية مع ترجماتها فلم نجد مشكلا في المراجع لأن كل أعمالها متوفرة ومتاحة.

بنينا خطة البحث على النحو التالي:

مقدمة عرّفنا فيها بأدب الرحلة وأهميته، ثم قدّمنا المدوّنة، أي الرحلة التي نحن بصدد دراستها.

بعد ذلك، شرعنا في المدخـل الذي عنوانه:"أدب الرحلة وإشكاليات التجنيس". وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : أدب الرحلة التعريف و الخصائص وقسمناه إلى مطلبين المطلب الاول ـ تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا المطلب الثاني ـ خصائص الكتابة الرحلية وفي المبحث الثاني : أهمية أدب الرحلة و دوافعها المطلب الأول– أهمية أدب الرحلة المطلب الثاني: دوافع الرحلة أماالمبحث الثالث : أدب الرحلة التجنيس وحدوده مع السيرة الذاتية المطلب الأول ـ أدب الرحلة كجنس أدبي هجين حاولنا فيه مناقشة وجهات النظر في موضوع التجنيس وفي المطلب الثاني ـ الرحلة و السيرة الذاتية وعالجنا فيها حدود الرحلة مع السيرة الذاتية.

ثم انتقلنا إلى الفصل الأول الموسوم بـ"أشكال السرد عند إيزابيل إبرهاردت" وعرفنا فيه بالرحالة ثم قسمناه إلى مبحثين: المبحث الأول اليوميات والرسائل وفيه مطلبان المطلب الأول: اليوميات ونقصد بها الكتابات اليومية التي كانت تكتبها الرحالة طيلة أطوار الرحلة والمطلب الثاني: الرسائل وفيه ذكرنا مواضيع المراسلات التي كانت تكتبها الرحالة سواء إلى أخيها أوغيستين أو إلى صديقها عبد الوهاب التونسي أو إلى سليمان هني.

وفي المبحث الثاني القصص والخواطر وفيه مطلبان المطلب الأول القصص أي ما كتبته من قصص قصيرة طوال مسارها الأدبي وفي المطلب الثاني ـ الخواطر التي كانت تكتبها بمختلف الامكنة أما المبحث الثالث فقسمناه لمطلبين المطلب الأول فخصصناه للتقارير التي كتبتها سواء للسلطات الفرنسية أو للجريدة التي كانت تراسلها والمطلب الثاني الملاحظات التي كانت تنهي بها كتاباتها سواء الرسائل أو اليوميات أو التقارير.

ثم المبحث الرابع تحت عنوان – النظرة الاستشراقية لدى إيزابيل إبرهاردت – والذي تتبعنا من خلاله تمثلات المستشرقين في أعمالها وهل فعلا كانت مثل سابقيها.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ"رحلات ابرهاردت المسارات وخصائصها" فقد جعلناه في ثلاث مباحث، كل مبحث ينفرد برحلة:

المبحث الأول: الرحلة الأولى : (1899) المسار والخصائص

(جنيف – تولون – مرسيليا –تونس– باتنة –تيمقاد –بسكرة –توقورت– الوادي– باتنة –بسكرة – بونة عنابة – تونس– مرسيليا – باريس – جنيف)

المبحث الثاني: الرحلة الثانية : (1900–1901) المسار والخصائص

(كاغلياري إيطاليا – مرسيليا– جنيف – باريس –جنيف –باريس –جنيف –مرسيليا –الجزائر– الوادي – باتنة – مرسيليا – قسنطينة – مرسيليا– باريس – جنيف )

المبحث الثالث : الرحلة الثالثة:(1902–1904) المسار والخصائص

( بونة – الجزائر –بوسعادة – تنس الجزائر –تنس– الجزائر –بوسعادة تنس الجزائر –الجنوب الوهراني– عين الصفراء –فقيق– بني ونيف – عين الصفراء– بني ونيف–عين الصفراء– الجزائر –تلمسان –وجدة– الجزائر –عين الصفراء– بشار– قنادسة –عين الصفراء )

وفي هذا الفصل حاولنا تتبع مسار رحلتها منذ قدومها أول مرة إلى الجزائر إلى وفاتها سنة 1904 حيث قسمناه إلى ثلاثة رحلات اختلفت من رحلة لأخرى من حيث المزاج العام للرحالة وأيضا من حيث الإنتاج الأدبي فيها. أمّا الفصل الثالث المعنون بـ: "رحلات ابرهاردت بين الأدبية والتقرير" فقد عالجنا في المبحث الأول منه قضية ـ أدبية الرحلة عند إبرهاردت ـ وفي المبحث الثاني ـ الملاحظة الإثنوغرافية في كتاباتها وفي المبحث الثالث ـ صورة الجزائري في كتابات إبرهاردت. وفي المبحث الرابع: رحلة إبرهاردت والإستشراق والمبحث الخامس: خصائص رحلة إيزابيل إبرهاردت المبحث السادس:النص الرحلي عند إيزابيل إبرهاردت / البنية السردية والدلالة

وأخيرا الخاتمة التي عرضنا فيها ما توصلنا إليه من نتائج عامة تتعلق بما تميز به أدب الرحلة عند هذه الكاتبة، وما جعل منها محلّ فضول وانبهار لدى النقاد والقراء على حد سواء.

أما المنهج الذي اتبعناه في بحثنا هذا فقد أملته علينا طبيعة كل فصل، فحين يتعلق الأمر بجوانب تاريخية تخص الكاتبة وعصرها ورحلاتها، كان لابد من التوسّل بالمنهج التاريخي حيث استدعينا من خلاله الماضي الذي يمثل الإطار الزماني والمكاني لهذه الرحلة ثم طرحنا مجموعة من الأسئلة لنصل من خلال هذا المنهج إلى نتائج أنارت لنا زوايا مظلمة في هذه الرحلة. أمّا حين تعلّق الأمر بالجوانب الأدبية، أي بأدبية الكتابة الرحلية، فكان علينا الاعتماد على ما يسمح

بتجنيسها، أي بالسرديات والبلاغة. أما حين تعلق الأمر برؤية الكاتبة ثقافيا وسياسيا، فقد كان علينا الاستعانة بطرائق تحليل المضمون، بالوصف والتحليل.

وبالنسبة للعقبات والصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث فهي لا تتعدى عامل الزمن والالتزام بالعمل، إذ كان تغيير المشرف في السنة الثالثة عاملا مربكا لنا في البداية، ولكنه في نهاية المطاف زادنا تحديا وعزما على إكمال الأطروحة في العامين المتبقيين. في الأخير لا يفوتني أن أنوّه بجهود الأستاذ حميد بوحبيب لقبوله الإشراف على بحثي أولا، وحسن تعامله، والتزامه معي طيلة مدة البحث، أرجو أن أكون عند حسن ظنه وثقته بي.

فعسى أن يكون في بحثي هذا، إضافة نوعية للبحث العلمي الأكاديمي، وعسى أن تجد فيه لجنة المناقشة–المشكورة مسبقا على تكبدها مشقة القراءة والنقد–ما يشرّفني ويشرّف جامعتي.

محمد نذير الأشهب

الوادي في : 2021/04/12

# المدخـــل

# أدب الرحلة وإشكاليات التجنيس

## المبحث الأول : أدب الرحلة التعريف والخصائص

المطلب الاول ــ تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا

المطلب الثاني ــ خصائص الكتابة الرحلية

المبحث الثاني : أهمية أدب الرحلة و دوافعها

المطلب الأول- أهمية أدب الرحلة

المطلب الثاني : دوافع الرحلة

## المبحث الثالث : أدب الرحلة التجنيس وحدوده مع السيرة الذاتية

المطلب الأول ــ أدب الرحلة كجنس أدبي هجين

المطلب الثاني ــ الرحلة و السيرة الذاتية

## المبحث الأول :أدب الرحلة التعريف و الخصائص

### المطلب الأول ـ تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا

1- لغة:

الرحلة حركة انتقال شخص أو أشخاص من مكان إلى مكان آخر، وهذا هو المعنى اللغوي للكلمة؛ ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس : "رحل : الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضي في سفر. يقال: رحل يرحل رحلة [...]. والرحلة: الارتحال [...]. ورَحَّله، إذا أَظْعَنَه من مكانه"[1]، وعند ابن منظور: "رحل الرجل؛ إذا سار، ورجل رَحول، وقوم رُحّل؛ أي يرتحلون كثيرا. ورجل رحَّال: عالم بذلك ومجيد له [...] والترحل والارتحال: الانتقال. والرّحلة: اسم للارتحال. وقال بعضهم: الرِّحلة: الارتحال، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"[2].

وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي: "ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كتَرَحَّلُوا. والاسم: الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"[3].

وتكاد المعاجم الأخرى تكرر المعاني نفسها، وبهذا المعنى أشار القرآن الكريم إلى رحلتَي الشتاء والصيف اللتين كانت قريش تقوم بهما من أجل التجارة: "لإيلافِ قريش إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ والصيف"[4].

فمعاجم اللغة إذن، تُجمع على أن الرحلة هي انتقال من مكان إلى آخر. وبهذا المعنى يكون العديد من المشارقة والمغاربة في الادب العربي وغيرهم ممن ارتحلوا، قديما وحديثا، قد أنجزوا رحلات ورحلات لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة والتنقل من

---

[1] ابن فارس معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون مادة: رحل ص 497 ج2 1979 .

[2] ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت لبنان 1997، ج 11 .مادة: رحل ص 279 .

[3] الفيروزبادي القاموس المحيط، الهيئة المصرية للكتاب 1979ج3 مادة: رحل ص 383

[4] سورة قريش، الآية: 1.

مقتضيات الحياة، وطبيعة البشر بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات، لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته.

جاء في لسان العرب لابن منظور "الرحلة: بمعنى اسم للارتحال "والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة ...يقال دنت رحلتنا ورحل فلان وارتحل، وترحل والرحلة بالضم، الوجه الذي تأخذ فيه وتريده". [1] ولا يختلف معه بطرس البستاني في معجمه "محيط المحيط " عندما يقول:"رحل عن البلد يرحل رحلا. ورحيلا وترحالا " شخص وسار".[2] ومن هذه الأفعال يأتي اسم الرحلة فيعرفها بقوله:" الرحلة النوع من الرحيل، يقال رحل فلان رحلة من لا يعود، وعند المولّدين قصة يكتبها المسافر عما جرى له وما أرى في سفره".[3]

إذن فالرحلة هي الانتقال، وأضاف بطرس البستاني، مفهوما آخر يتقاطع مع المفهوم الاصطلاحي للرحلة، عندما أوضح بأنها قصة يكتبها المسافر لينقل ما جرى له، وما شاهده في رحلته تلك وهذا ما نجده عند معظم من عرف الرحلة اصطلاحا.

2-اصطلاحا:

تكاد تجمع قواميس اللغة في تعريف الرحلة لغويا أما اصطلاحا فهي " سلوك إنساني حضاري يأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها، فالرحلة العربية مثلا كانت لها ثمار انعكست بإيجابية على الحضارة العربية الإسلامية" [4]

وخير مثال على ذلك رحلة ابن بطوطة المغربي الذي خرج من المغرب شابا يافعا لا يملك من العلم والخبرة شيء وبعد رجوعه عاد متعلما وقد تقلد من المناصب الرفيعة في مختلف مناطق العالم ،"فالرحلة بعد مجيء الإسلام تعد نقطة تحول في تاريخ الأمة جمعاء وفي جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والاستكشافية، وذلك من خلال احتكاكهم بالشعوب الأخرى، ومعرفة عاداتهم، وتقاليدهم، ومختلف فنونهم، فالرحلة هي

[1] ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت لبنان 1997، ج 11 .مادة: رحل ص 280 .

[2] بطرس البستاني، محيط المحيط. مكتبة لبنان، بيروت،1977 ص.328

[3] المرجع نفسه، ص. نفسها

[4] د. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب جويلية 2010، ص.22

"اليد التي تمتد لتقرب شعوبا تناءت عن شعوب، وأقواما إلى أقوام تفصل بينها البحار القفار [1]"

وفي هذا الشأن يقول عبد الله حمادي: " إن الرحلة سواء كانت برية أو بحرية أو كانت من إنجاز فردي أو جماعي تعتبر محاولة لاختراق حاجز المسافات وإسقاط الفاصل الجغرافي بين المكان والزمان "[2]، واضح من خلال المقولة أن هذا الباحث ينظر إلى الرحلة انطلاقا من أحد أهم أغراضها وهو الاختراق ومحاولة معرفة الآخر لتقريب المسافات مهما بعدت.

هذا، وقد تكون دوافع الرحلة حاجة ذاتية كإشباع رغبة النفس في حب الإطلاع، وكشف أستار المجهول. والرحلة العربية على غرار الرحلة الأجنبية تعددت وتطورت أغراضها وتنوعت تماشيا مع العصور.

ففعل الرحلة هو أن يكتب ويحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده، وعايشه من أحداث، مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم.

وإنجاز الرحلة (أدبيا) يتطلب أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي معين يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة. فالرحلة هي انتقال في المكان وهي كتابة وخطاب.

ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن، ونحن نفرق بين المعنيين، أن لا علاقة بينهما، لأن كتابة الرحلة تستلزم القيام بسفر، ولا يمكن تصور كتابة رحلية دون رحلة إلا في الرحلات الخيالية، مثلما هو في "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد، و"التوهم" للحارث المحاسبي.

إن المعنى الثاني لكلمة "رحلة" هو ما يسميه الأستاذ سعيد يقطين: "خطاب الرحلة"[3]، ويعرفه بأنه: "عملية تلفيظ لفعل الرحلة"[4].

---

[1] المرجع السابق نفس الصفحة .

[2] د. عبد الله حمادي، أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، قسنطينة ص108

[3] "خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية"، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، الجزء 9، المجلد 3، سبتمبر 1993، ص. 165.

[4] نفس المرجع، ص. 171

بينما المعنى الأول هو الرحلة ذاتها، ولهذا نجده يتحدث عن الرحلة وخطابها، ويرى أن خطاب الرحلة "يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية"[1]، فيبدأ الخطاب من لحظة الخروج، وينتهي لحظة الأوبة.

من هذا المنطلق لا تختلف النصوص الرحلية عن غيرها من الإبداعات الأدبية، إذ تتوفر على شكل أدبي هو الصياغة السردية، وعلى مضمون معرفي تمتزج فيه الرؤية الواقعية والقدرة على التخيل.

والرحلة خطت طريقها كشكل من الاشكال الأدبية الاخرى وانتظرت كثيرا حتى تخرج في هذه الحلة التي وجدت من يحتضنها ويتميزون عن غيرهم حين بقيت "النصوص الأدبية محصورة في قوالب إما شعرية أو نثرية...كالشعر والقصة، والرواية، والخاطرة، والمقامة، والمسرحية ولم تشّذ الرحلة باعتبارها أحد الأشكال الأدبية على هذه القاعدة حتى ظفرت بمن يمثلها، وهم الرحالون الذين تميزوا عن غيرهم باتباعهم هذا المسلك الذي لم يستو على سوقه إلا بعد قرون من الممارسة، ثم أضحى ميراثا أدبيا واعيا تتجاذب إليه أجيال، فيتعاقب فيه فعل الممارسة حتى يصير بالغا مبلغ الرشد، صلب العود، راسخ الجذور، قوي الحجة."[2]

ومع ذلك، فإن أدب الرحلة اليوم- في زمن العولمة وانهيار الحواجز بين الأمم- قد يحتاج إلى إعادة نظر، فليس كل ما قيل عن الرحلة في زمن ابن بطوطة، يصلح اليوم عن رحلات افتراضية على وسائل التواصل الاجتماعي، بما توفره من إمكانات هائلة لم تخطر على رواد هذا الفن.

[1] المرجع السابق، ص. 170.

[2]- عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة دكتوراه علوم، تحت إشراف الدكتور محمد مرتاض، جامعة تلمسان 2015-2016 ص67

**المطلب الثاني–خصائص الكتابة الرحلية**

أ. مكونات الخطاب الرحلي:

إن المتأمل للنصوص الرحلية، يجد أنها حكي، وكل حكي يستلزم وجود أطراف ثلاثة: ذات حاكية، وخطاب مَحْكِي، وموضوع مَحْكِي عنه.

1–فالحاكي أو الراوي في الرحلة هو المؤلف نفسه، وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة، وتقوم بتلفيظ تلك الرحلة. وهذه الذات، في انتقالها عبر الأماكن المزورة، لا تنفصل عن ثقافتها ومعتقداتها ورؤيتها للعالم. وشأن الرحّالة شأن المسّاح الذي قال عنه الأستاذ عبد الفتاح كيليطو: "إن المساح ليس مسافرا بدون أحمال، فهو يحمل أدوات لازمة تنظم عمله. والفضاء الذي يخترقه ليس مرئيا إلا عبر عيون شبكة ثقافية تحصره حصرا وثيقا"[1]. ولهذا نجد الذات حاضرة باستمرار يمر من خلالها الحكي (الحكاية)، فيصطبغ بأحاسيسها وميولاتها وعواطفها ومرجعيتها الثقافية، وهكذا فعندما يرحل الرحالة، لا يرحل بجسده فقط، بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضا.

فالراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي، فهو يكون حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد للأحداث التي عايشها ووصفها في رحلته .

- 2–المحكي عنه، وهو السفر الذي أنجزه الرحالة فعليا، وحديث الرحلة عن السفر جعلها "تنتمي إلى "أدب السفر"، ولكنها تختلف عن بعض أنماطه التي وظفت السفر بشكل أو بآخر.

هكذا يصبح السفر بنية مهيمنة من جهة، وهي –من جهة ثانية– بنية متحكمة وجاذبة لباقي البنى إلى الحد الذي تخضع فيه هذه الأخيرة لبنية السفر"[2]، وبهذه الهيمنة التي تتمتع بها بنية السفر داخل الكتابة الرحلية يُصبح السفر هو الناظم لمختلف مكونات الرحلة الأخرى من سرد ووصف وأخبار وحكايات وأشعار ومعارف متنوعة.

بيد أنه ينبغي الانتباه والتفريق بين السفر عندما يكون بنية مهيمنة وناظمة، وبين السفر عندما يكون بنية ومكوّنا كباقي المكونات، في الحالة الأولى نكون أمام جنس

[1] – عبد الفتاح كيليطو، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي – المقامات، السرد والأنساق الثقافية– دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1993، ص 15.

[2] – عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1996، ص. 26.

الرحلة، وفي الحالة الثانية نكون أمام أجناس أخرى، قد تكون تاريخا أو سيرة ذاتية أو رواية أو غيرها. وهكذا أصبحت هيمنة بنية السفر "معيارا نقديا يتم فيه التمييز بين الرحلة وباقي نصوص السفر، بين الرحلة و"الحرْكة"، بين الرحلة والدليل السياحي"[1].

فالسفر مكون للرحلة وضروري لتصنيفها أدبيا فالترحال والتنقل من مكان لآخر يغذي الرحالة بمختلف المشاهدات والمواضيع التي يبني على أساسها نصه الرحلي .

وبعد الوقوف عند طرفي عملية الحكي في حكاية الرحلة، وهما الذات الحاكية، وموضوع الحكي، ننتقل إلى لب هذه العملية وقلبها، وهو الخطاب المحكي، وستتم الإشارة في الحديث عن هذا الخطاب إلى بنائه، ثم مكوناته.

3-المحكي أو الحكاية، وهو خطاب الرحلة. ومن المعلوم أن لكل خطاب طريقته الخاصة في البناء، بها يتميز عن غيره من الخطابات. وبما أن خطاب الرحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرحالة، فإن "خطاب الرحالة يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية. فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرحالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة)، والرجوع إلى نقطة الانطلاق"[2]، وبهذه المواكبة يكون "خطاب الرحلة هو عملية تلفيظ لفعل الرحلة. وبعملية التلفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، ولكنها تستثمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف"[3].

هكذا تكون طريقة بناء الخطاب وسيلة لتمييز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات. إن مقصدية المؤلف في بعض الرحلات ليست تدوين الرحلة وأحداثها، بل إن الرحلة كانت وسيلة للحديث عن أشياء أخرى. وبهذا لا يكون خطاب الكتاب تلفيظا لرحلات متعددة، بدءا من نقطة الانطلاق، ورجوعا إليها، بل توظيفا لهذه الرحلات إلى جانب مكونات أخرى، مما يحيد بالخطاب عن جنس الرحلة إلى جنس آخر قد يكون الخطاب التاريخي، أو الجغرافي، أو هما معا.

---

[1] – عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة، مرجع سابق، ص. 21

[2] –"خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية"، مرجع سابق، ص. 170.

[3] –"نفسه، ص. 171.

- إن طريقة بناء الخطاب الخاصة هي ما يسميه الأستاذ عبد الرحيم مودن "نمطية التأليف" التي بها يتم إدخال كتابة ضمن جنس معين، أو إقصاؤه منها، يقول:"ولعل شرعية انتساب الرحلة إلى الجنس المستقل ببنائه وخصائصه يعود إلى هذه النمطية في التأليف"[1].

بعد هذه الإشارة إلى بناء الخطاب في الكتابة الرحلية، نشير إلى مكونات هذا الخطاب التي يمكن حصرها في:

- 1-المعرفة: تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما هو اجتماعي...وغير ذلك، مما يجعل هذه الرحلة قبلة للعديد من الباحثين من مختلف المشارب؛ من أجل إتاحة المعارف التي تهمهم.

والرحالة، وهو يقدم هذه المعارف، إنما يسعى إلى إفادة القارئ بما يظنه مفيدا له. وهذه المعرفة التي يقدمها الرحالة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي. وهكذا نجد الرحالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية، والمتصوف يعتني كثيرا بالمعرفة الصوفية، وهكذا دواليك.

وتقديم المعارف في الرحلات ليس مستغربا، لأننا نجد كثيرا من الرحالين ينصون في مقدمات رحلاتهم على أن مقصديتهم هي إفادة القارئ بكثير من المعارف والإفادات، وبهذا تحقق الرحلة "هدفها الديداكتيكي؛ إنها تسعى لتعليم بعض الأشخاص بعض الأشياء"[2].

- 2-السرد: لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثا وأفعالا قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها.

---

[1] – عبد الرحيم مودن مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ أحمد الطريسي أعراب، نوقشت بكلية الآداب بالرباط عام 1996، ص. 23.

[2] –Récit de voyage، Relation، Reportage: www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html

والسرد يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، وهذه المسيرة السردية تتكون من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى. والمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكونات أخرى بالاشتغال، وهكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفا أو ليقدم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعرا، وبعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه.

- 3-الوصف: السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وبعبارة أخرى: يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص.

والوصف يتطلب انتباها ودقة ملاحظة من الواصف لكي "يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوِّر الموصوفَ لك، فتراه نصْبَ عينيك"[1]. والموصوف الذي يلفت نظر الرحالة هو الأشياء الغريبة وغير المألوفة لديه، وتبعا لهذا ستختلف الموصوفات في الرحلات حسب الأوساط التي عاش فيها الرحالة وما ألف مشاهدته فيها، لأن المألوف معروف لا يحتاج الرحالة إلى إعادة التعريف به.

4-الشعر: نجد كثيرا من الرحلات تطفح بالكثير من الأشعار مختلفة المضامين، ومتفاوتة في القيمة الفنية، وهذه الأشعار إما من إبداع الرحالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذين ينشدهم وينشدونه. والرحالة وهو يحلّي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية التي يحتلها الشعر في الثقافة العربية. وكأني بالرحالة وهو يورد هذه الأشعار، بين الفينة والأخرى، يسعى إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عددا وافرا من الأشعار التي توظف في سياقات مختلفة.

[1] – أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1406هـ/1986م، ص. 128.

هذه هي مكونات الخطاب الرحلي التي تتناوب على امتداده، وتحتل مساحات غير متساوية فيه. وقد أشرنا إليها هنا بإيجاز وسيتم تفصيل الكلام فيها في ثنايا هذا البحث عن خصائص الخطاب الرحلي عند إيزابيل إبرهاردت.

وبعد الحديث عن مكونات الكتابة الرحلية، نتساءل عن خصائص هذه الكتابة عموما؟ تتميز الكتابة الرحلية بجملة من الخصائص تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، وهذه الخصائص هي:

– هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث وتَنْظمها مما سبقت الإشارة إليه.

– الذاتية: تحضر ذات الرحّالة في رحلته حضورا بارزا، وليس هذا بمستغرب مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات. وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بأسلوبها ومساراتها .

– الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا: وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابـة.

– الواقعية: الرحالة –الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض. وبهذه الخاصيّة تتميز الرحلة عن الرواية والمقامة المبنيتين على الخيال.

– دورة الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحّالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.

– تعدد المضامين وتداخل الخطابات: يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة: دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية وتتداخل فيه خطابات مختلفة: الشعر والرسالة والحكاية والوصف والسرد وهذا ما يجعله جنس الأجناس، أو محصلة الأجناس.

" إن النص الرحلي هو الخطة المنتهجة في بناء الخطاب العام للرحلة وفق نشاط عقلي منسجم يتحقق من خلال التقييد الجغرافي المحدد بالخط وتقسيم الفقرات والفصول والصفحات"[1].

أي أن الخطاب العام للرحلة يبنى على أساس خطة معدة سلفا ليصل بها الرحالة من خلال المسارات والقيود الجغرافية إلى نص رحلي متكامل .

ف" يعد النص قوام العمل الفني (الرحلي) الذي تتكامل فيه عناصره الفنية، من- الكاتب، والقارئ. ومتعاليات نصية، وبنيات سوسيولسانية. فهو بهذا يمثل المستوى الدلالي القائم على العمل البنيوي متجلية في التماسك والانسجام في علاقته بالمتلقي في الزمان والمكان، في إطار البنية النصية الكبرى التي تنتمي إليها، كظاهرة كبرى، مركزية في كل نص، تستقطب وتحاكي تراكمات نصية أخرى دخيلة، تربطها بالنص علاقات مختلفة قريبة وبعيدة[2]"

والواضح أن أدب الرحلة رسم لنفسه طريقا أجناسيا مغايرا للأجناس الأدبية الأخرى من خلال هيمنة السفر عليه دون أن نهمل تقاطعه مع مختلف الاجناس و العلوم التي تحكمها ثقافة الرحالة ومدى اطلاعه عليها و التي يثري بها رحلته فتتميز أدبيا من خلال خصائص الادب المتمثلة في السرد والوصف وتقنيات الحكي ومن خلال البحث عن النص داخل هذه الرحلة فتتحقق باقترابها من الادب الادبية.

[1] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق، أطروحة دكتوراه علوم، تحت إشراف الدكتور محمد مرتاض، جامعة تلمسان 2015-2016 ص69

[2] المرجع نفسه الصفحة نفسها.

**المبحث الثاني : أهمية أدب الرحلة و دوافعها**

المطلب الأول ـ أهمية أدب الرحلة

للرّحلات أهمية كبيرة تجعل منها مصدرا للمعلومات الجديدة المهمة للأدباء والمؤرخين والجغرافيين والسياسيين والعسكريين، "ولعل أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع الأسلوب من السرد القصصي للمغامرات، والعواطف المحركة للبشر إلى الحوار والوصف الطريف وغيره، بما فيه من متعة ذهنية.

وعن قيمة الرحلة في الأدب الحديث يقول جبور عبد النور: " نزلت الرحلة في الأدب الحديث منزلة رفيعة وأصبحت فنا من الفنون الشائعة في معظم بلدان العالم . وقد ساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب، وسهولة المواصلات، وحب الاطلاع، ومعرفة ما في العلم من عادات وأخلاق"[1].

كما يضع شروطا للكتابة في هذا الفن الذي:" يقتضي التأليف فيها ثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعبرة، ومشاركة في عدد كبير من المعارف، لاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافية والفلسفة، والاجتماع، والأدب. وتفرض الأناقة في تخيّر المفردات، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول[2]".

إن هذه الروح الموسوعية، والقدرة على رصد التفاصيل المهمة في المشهد الثقافي والاجتماعي في أقاصي البلدان، هو ما يجعل أدب الرحلة غير متاح لجميع الرحّالة، فقد يقف زائران أمام نفس المشهد، ولا يرى أحدهما فيه شيئا مميزا، بينما يرى الثاني أن الأمر فيه طرافة خفية..." يقول زكي حسن: فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها، لأنها تستخدم الجغرافيا، وتستند إلى التاريخ عند التعرض لوصف المسالك والمدن والمعالم وبدايات الأمور، بل ورصد الظواهر الاجتماعية غير المألوفة لديهم، وكذلك الاقتصادية، ويتبعها السياسية بنسب متفاوتة وعرض ذلك بزي الأدب وطابعه."[3]

---

[1] جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط2 1984، ص 121.

[2]– نفس المرجع ، ص 122

[3] د. عواطف بنت محمد يوسف، كتب الرحلات في المغرب الأقصى، ادارة الملك عبد العزيز–الرياض، 2008م ص 20.

والملاحظ في هذا المجال أن الرحلات المكتوبة كانت غالبا ذات طابع أدبي، وهي تعنى برصد الواقع ونقل" الصور والمشاهد على نحو يحقق التأثير الوجداني، أو ينقل الأحاسيس والعواطف التي يجدها في نفسه من يجتلي تلك المشاهد والآثار والصور، وهذا البعد هو الذي يملأ النفس متعة وتأثيرا، ويجعل للرحلة سمة أدبية بدلا من أن تقف عند حد التسجيل والتدوين والجمود."[1]

فللرحلات فوائد زادت من أهميتها ككتابة أدبية راقية تعبر عن لحظات صادقة، من نفس إنسانية تعيش التجربة على أرض الواقع، مجردة من الأكاذيب والمغالطات على الأرجح:" والرحلات تكشف مالا يكشفه التاريخ فالتاريخ عام يشتمل على تصوير لحياة البلدان الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ونظم الحكم لشعب من الشعوب، وتطرقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية".[2]

فالقيمة الجغرافية مثلا، كانت تكمن في تحديد البلدان وتسميتها ووضع خرائط دقيقة لها ضمن القيمة التاريخية أيضا في التأريخ للأحداث والشخصيات والاحداث الكبرى من صراعات ومنازعات وحروب تدخل في أهمية أدب الرحلة.

"أما القيمة الفنية، فتزود القراء بمعلومات، وصور ممتعة، وأخبار تلذ وتمتع، وتستعرض الأحداث بصورة أدبية، تتسق مع النفس البشرية، فتشكل رافدا ثرا من روافد الفن والمتعة الأدبية"[3]

وهنا تكمن متعة قراءة الرحلات من خلال التصور الواقعي للأحداث في غالب الأحيان وبيان جمالية الصورة الأدبية التي تحدث في نفس المتلقي شعورا بعيش تلكم اللحظة.

[1] سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة.القاهرة ص 7

[2] د.نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، الأردن، ط1، 2008.ص52.

[3] نفس المرجع، ص53.

**المطلب الثاني: دوافع الرحلة**

تختلف دوافع الرحلة من شخص إلى آخر، وهي في الحقيقة سلوك إنساني طبيعي جُبل عليه الإنسان وطُبع على تصرفاته فإذا جاع أو عطش فإن الغريزة تدفعه للتنقل والترحال من مكان لآخر ليسد جوعه وعطشه.

كذلك الأمر بالنسبة إلى طالب العلم الذي يريد الاستزادة من العلم أو التفقه في أمور دينه ودنياه، أو السعي إلى منصب عمل يحصله من وراء ذلك. كما يرتحل الإنسان كلما شعر بأن نفسه ضاقت بها الدنيا بما رحبت فتراه باحثا عن السعادة والراحة النفسية والاستقرار في مكان آخر غير الذي ترعرع فيه...

يمكن أن نحدد بعض الدوافع التي تظطر الإنسان للترحال والسفر فيما يلي:

1-الضرورة:

ونقصد بها الظروف القاهرة التي تؤدي بالإنسان إلى الترحال بعيدا عن موطنه، مرغما عنه، كالترحال من أجل الكلإ والماء أو هروبا من ظلم وقع عليه أو تهديد لحياته وأسرته نتيجة حروب ونزاعات.

2-الدوافع الدينية:

ونعني بها رحلات الحج التي يقوم بها الحجاج سواء كانوا مسلمين فيحجون إلى الأماكن المقدسة (مكة ،لمدينة المنورة، القدس) أو المسيحيين إلى بيت لحم مثلا أو اليهود إلى أماكنهم المقدسة أو الهندوس إلى معابدهم ومدنهم المقدسة، أو أي إعتقاد أو ديانة فكلها رحلات تشترك في دافع واحد وهو الانتقال من مكان إلى آخر بهدف تنفيذ شعيرة من الشعائر ضمن عقيدة ما. ويمكن لنا أن نضيف إلى ذلك الرحلات ذات الطابع الدعوي أو التبشيري، أين ينتقل رجال الدين من فضائهم الأصلي إلى فضاء غريب لنشر تعاليم دينهم بين أقوام لم تصلهم تلك التعاليم...

3-الدوافع العلمية:

وفي هذا تندرج كل ما عرف بالرحلات الاستكشافية، والبعثات العلمية عبر التاريخ، فالرحالة هنا علماء، أو طلبة علم، يحدوهم هاجس أساسي هو المعرفة، سواء المعرفة الخالصة، أو المعرفة التجريبية النفعية...ويستوي قي ذلك أهل العلوم الوضعية والعلوم الشرعية، مادامت دوافعهم هي الرغبة في الاطلاع والفهم والتبحّر في عالم الفكر. ولنا

في تاريخ العلوم رحلات ملحمية قادت أصحابها إلى أقاصي الدنيا لمجرد الاطلاع على كتاب، أو مجالسة عالم، أو التعرف على مجال من مجالات البحث، في الطب والجغرافيا والأدب وعلم الأحياء والنباتات...

4-الدوافع السياسية-الدبلوماسية-:

وهي الرحلات الإدارية المنظمة التي تكون برعاية الحاكم أو الخليفة أو الرئيس وتكون دوافعها استكشاف البلاد الأجنبية المجهوله لديهم مثل رحلة الترجمان وابن فضلان عند العرب، ورحلات ماركو بولو الاستكشافية ورحلات كريستوف كولومبس، ورحلات المستكشفين الأوائل للصحراء الجزائرية أمثال كولونيل دوماس 1845 و ج زاكون 1865 وفيكتور لارجو 1881 ورحلة هنري دي فاريه الى الواحات الجزائرية والتونسية 1860-1861 ودي شوفارييه وماريوس غارن 1847 وغيرهم ممن كانت دوافعهم استكشافيه توسعية استعمارية للسيطرة على أراض جديدة في قارات أخرى.

كما يمكننا إدراج الرحلات الدبلوماسية ضمن هذا الإطار على اعتبار أن السفراء هم ممثلوا دولهم وثقافاتهم ومجتمعاتهم في البلاد الأخرى، فقد يكتب السفير تقارير إدارية تصح أن تكون رحلات، أو أن يكون السفير أديبا فيكتب رحلته بطريقة منظمة ومتسلسلة زمنيا بأسلوب أدبي، كرحلة السفير المغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر محمد بن عبد الوهاب الغساني ورحلة أحمد محمد حسين باشا الذي كان رئيس الديوان الملكي في عهد الملك فاروق بمصر الذي عنون رحلته بـ: "في صحراء ليبيا".

5-الدوافع الإقتصادية:

وهي حاجة الإنسان للمعاش وتطوير تجارته، فيسعى إلى السفر والترحال إلى البلاد الأخرى، ويقصد أسواقها للبيع والشراء والمقايضة، أو مايسمى الآن بالاستيراد والتصدير. والعرب-أكثر من غيرهم من الأمم-كانوا يعتمدون على رحلات التجارة ويعقدون عليها الآمال والأماني، فكانت قوافلهم تجوب الجزيرة العربية وتصل إلى دمشق وبغداد والحبشة، لتتطور فيما بعد إلى بلاد فارس وصولا إلى الصين.

6-الدوافع السياحية:

ونقصد بها تلك الرحلات التي تقام بغرض الاستجمام واكتشاف البلدان، وليس من هدف وراءها سوى الراحة وتغيير اجواء العمل وتمضية العطل وأيام آخر الأسبوع مثلا، فربما يوثقها صاحبها بصور وفيديوهات أوكتابات تتوج بكتاب بعد ذلك.

## المبحث الثالث : أدب الرحلة التجنيس وحدوده مع السيرة الذاتية

### المطلب الأول ـ أدب الرحلة كجنس أدبي هجين

الدارس لأدب الرحلة يجد نفسه أمام نصوص غنية بالشخوص والأحداث وعاملي الزمان والمكان، فهي مسرودات تصف، وتحكي، وتؤرخ وتقدم انطباعات ومواقف، وتصوّر الآخر الغريب في كل أطواره وممارساته...فأدب الرحلة نثر فني، ولكن أي نوع من النثر؟ فهل هي رسائل أم يوميات أم قصص أم دفاتر سفر أم تقارير ؟

إن هذا الإشكال التجنيسي يضع أدب الرحلة في مفترق طرق بين عدة أنماط سردية، ويتوجب علينا ونحن نلج هذا المجال أن نطلع على مختلف الآراء والمواقف، خاصة وأن إشكاليات التجنيس في عالم الأدب عموما لم تجد حلا فاصلا، يقول تودوروف في هذا الصدد: "مشكل الأجناس هو واحد من أقدم مشاكل الشعرية، وقد طرح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا [ ... ]، فتعريف الأجناس، وعددها، والعلاقات المتبادلة بينها، لم يتوقف النقاش حولها قط"[1].

وإذا كان ذلك النقاش حول الأجناس الأدبية دائرا في الغرب منذ القديم، فقد عمد "دومنيك كومب" إلى حصر الأجناس الأدبية في "أربعة أقسام كبيرة من النصوص حسب الوعي "الساذج" الذي كيفته عادات القراءة، بل وكيفه أيضا التعليم والمؤسسات، وهذا ما يجعل هذه الأقسام غير طبيعية بالمعنى الشائع لهذه الكلمة"[2].

فالدكتور فتحي خليفي يرفض تصنيف الرحلة ضمن المقال ويقول: ويعد عندنا أيضا من الاجحاف أن تلحق الرحلة بغيرها من الاجناس الادبية الأخرى لخصوصيتها وتفردها عن غيرها وهذه الأقسام هي:"–المتخيل السردي (Fiction narative) الذي يضم: الرواية والأقصوصة والحكاية والقصة.– الشعر.– المسرح.

---

**1_ Tzvetan Todorov et Oswald Ducrot، Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage،**

**Éd. du Seuil, Paris 1972, p. 193.**

**2 _Dominique Combe, Les genres littéraires, éd. Hachette, Paris, 1992, p.p. 13-14**

نقلا عن: د فتحي خليفي، الشعرية الغربية الحديثة وإشكالية الموضوع، الدار التونسية للكتاب ،2012، ص 92

– المقالة (essai) التي تضم: الخطاب الفلسفي أو النظري، والسيرة الذاتية، والذكريات، والمذكرات الشخصية...والمراسلات، والتقارير، وحكاية الرحلة "[1].

فالرحلة–إذن عند دومنيك كومب –تندرج ضمن قسم المقالة التي هي "كل نص لا ينتمي إلى الخيال ولا إلى الشعر ولا إلى المسرح ، فهي الجنس الذي يجمع بين كل الأجناس التي نبذتها "الأجناس الكبرى"[2]، وهي بهذا،"أقل الأجناس وضوحا... ومع ذلك تتميز بسمة ثابتة هي: تفضيلها للنظر العقلي والأفكار، والفكر الخطابي وليس للخيال"[3].

هكذا، تتجنس الرحلة في النقد الغربي، عند دومنيك كومب. أما أغناطيوس كراتشكوفسكي فيصنّف الرحلة (العربية أساسا) ضمن "الجغرافيا الوصفية التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا قصص الرحلات"[4]، وبهذا تصطبغ الرحلة عنده بصبغة علمية (الجغرافيا) وصبغة أدبية (القصص)، وهذا ما سوّغ له استعمال عبارة "الأدب الجغرافي" الذي "يقدّم متعة ذهنية كبرى، إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية وفنية رائعة، صيغت بالسجع أحيانا. والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة، والإمتاع والحيوية من جهة أخرى. وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص"[5].

وإذا كان هذا النقاش يجري في النقد الغربي، فإن النقد العربي القديم كان شبه غائب عن هذا المضمار، إذ اكتفى بتقسيم الأدب إلى الثنائية المعروفة: الشعر والنثر، وقسم الشعر إلى أغراضه، والنثر إلى الخطبة والرسالة، ثم المقامة في وقت لاحق، أما الرحلة فلا نجد لها ذكرا لدى الناقد العربي القديم، لأنها كانت تنتمي إلى الأجناس السردية. ونحن نعلم أن الأجناس السردية (القصص والحكايات والمقامات...) كان

[1] –المرجع السابق، ص. 14.

[2] – المرجع نفسه ، ص. 16.

[3] – المرجع نفسه ص17

[4] – تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه من الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1987، ص. 20.

[5] – الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2003، ص. 20.

ينظر إليها نظرة تنقيصية بالمقارنة مع الشعر الذي عدّ ديوان العرب والذي أُحل الدرجة العليا.

وعلى الرغم من تلك النظرة التنقيصية التي نظر بها إلى الأجناس السردية، فإن تلك الأجناس عرفت نماء واتساعا، واستطاعت أن تجلب إليها العديد من القراء والباحثين عن المتعة والإفادة.

وقد صنف الأستاذ شعيب حليفي هذه الأجناس السردية إلى "قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر، هما: الشكل الخالص، والهجين.

– تضمنت الأشكال الخالصة: المقامة والسيرة والحكاية الشعبية والرحلات...

– أما الأشكال الهجينة فيندرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة، والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء"[1].

هكذا يصنف الباحث الرحلة ضمن الأشكال الخالصة، وهذا التصنيف لا يوافقه عليه الأستاذ عبد النبي ذاكر الذي يرى أن الرحلة "شكل أدبي هجين يمتاز بتعدد أوجهه وتمظهراته، إلى حد أنه يمكن القول: إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطا خِطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير، إضافة إلى شدة تعقده واحتماله لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة لتجعل منه جنسا مركبا وكليا وشموليا وعاما، وجنس الأجناس"[2].

ويوافقه على هذا الرأي جبور الدويهي الذي يصف الخطاب الرحلي بكونه "نوعا من التعبير الأدبي الهجين والضبابي"[3].

ويوافق الأستاذين (ذاكر والدويهي) في هذا الرأي الأستاذُ عبد الرحيم مودن الذي يذهب أيضا إلى أن الرحلة "كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية Génétique،

[1] – المرجع السابق، ص. 28

[2] – المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ سعيد علوش، نوقشت بكلية الآداب بأكادير عام 1998، ص. 83

[3] –"الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل–مايو 1983، ص. 59.

أو على مستوى محاورتها –في سياق نظرية الأدب–لأجناس أدبية وغير أدبية"[1]، وهذا ما دفع بُولْ هازار إلى عد الخطاب الرحلي"نوعا أدبيا غير واضح الحدود"[2].

ومن خلال واقع الكتابة الرحلية، يتبين لنا أن الخطاب الرحلي على مستوى المضامين يحتوي على معارف متنوعة: تاريخية وجغرافية ودينية وأدبية وإثنوغرافية...، وعلى مستوى الأشكال نجد فيه السرد والوصف والحكايات والأخبار والرسائل والأشعار..."إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين، وللغويين وعلماء الطبيعة"[3].

إن هذه الطبيعة الغنية للكتابة الرحلية جعلت دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارس، فالمؤرخ يجعلها نصا تاريخيا يستقي منه الكثير من المعلومات الدقيقة المتصلة بالبلدان، ويجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر منها، كما يجد فيها الباحث الإثنوغرافي كثيرا مما يود معرفته عن الشعوب التي تحدث عنها الرحالة، كما يجد فيها الباحث في تاريخ الأفكار ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يجليها الرحالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحالة في أحضانها، ويجد فيها غير هؤلاء مبتغاهم من المعلومات والمعارف التي تزخر بها، وهذا ما أكده الأستاذ عبد النبي ذاكر بقوله : "لا أحد ينكر ما أفاده المثقفون –منذ أقدم العصور– من أدب الرحلات، فتنوع موضوعاتها جعلها قبلة لمختلف المعلومات الجغرافية والتاريخية والشعرية والصوفية والإثنولوجية، إلخ"[4]

[1] – عبد الرحيم مودن مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ أحمد الطريسي أعراب، نوقشت بكلية الآداب بالرباط عام 1996، ص. 14.

[2] – عبد النبي ذاكر، الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب، منشورات كلية الآداب، أكادير، 1997، ص. 8.

[3] – تاريخ الأدب الجغرافي العربي، مرجع سابق، ص. 19.

[4] – المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق: 21.

وهذا كله" يجعل نص الرحلة مستعصيا على الانتساب النوعي. وينعكس ذلك على التسمية التي تصبح متعثرة أو متعددة"[1]، وهكذا نجد أسماء مثل: الرحلة، وأدب الرحلة، والأدب الجغرافي، والجغرافيا الوصفية. بيد أن هذا التنوع والغنى اللذين تمتاز بهما الكتابة الرحلية ينبغي أن لا يصرفانا عن البحث عن العناصر المشتركة بين كل تلك الكتابات التي تسمى رحلة. وهذه "العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع/ الأشكال، تظل واحدة في تعددها، تتعدد أسلوبيا وتتخذ أوضاعا شتى في السياقات الموضوعة لها"[2]. ومعرفة هذه العناصر المشتركة "يقلص من دور المصادفة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص، وقواعد تلقيه في آن معا"[3].

أما سعيد جبار فيرى في أدب الرحلة ما لا يتم تصنيفه ضمن خانة أجناسية واحدة لتداخلها مع اليوميات والسيرة الذاتية فيقول : "أدب الرحلة" مصطلح يصعب تصنيفه أو حصره "ضمن خانة أجناسية محددة، فضمير المتكلم المهيمن على الفعل السردي، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية، تمنح الرحلة مميزات تجعلها قريبة من السيرة الذاتية دون أن يجرؤ أحد على وضعها في هذه الخانة. والتواريخ الدقيقة التي تصاحب الأحداث والوقائع في غالبها تحيل على طبيعة المذكرات أو اليوميات...فارتباطها بالسفر ومتابعة وقائع الرحلة ومشاهداتها منحت الرحلة ملامح خاصة على مستوى تجلياتها الخطابية...دون أن نغفل خطاب المعرفة التي يسعى السارد–الرحالة تحصيلها وهو ينتقل بين مجالس العلماء والأدباء في كل فضاء يحل به."[4]

والرأي نفسه ما تبنته الاستاذة حياة ذيبون عندما تعتبر أن البحث عن تصنيف أدب الرحلة كجنس مستقل هو من قبيل المنهجية المتبع عند النقاد فتقول :" إن التعالقات

[1]– عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية،ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1993، ص. 127

[2] – الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص. 31.

[3] – المقامات، السرد والأنساق الثقافية، مرجع سابق، ص. 127.

[4] سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، الرباط، 1ط،1434هـ–2013 ص173

الخطابية في نص الرحلة جعل منها نصا كوكبيا، تتداخل فيه الأجناس والخطابات وهذا يحملنا على القول: إن الهجنة الخطابية سابقة على نظرية الأجناس ففي البدء كانت الهجنة، وما نظرية الأجناس إلا إجراء منهجي وضعه أهل المنهجية للوقوف عند الخصائص الدقيقة لكل جنس على حدة، بغية تحقيق مبدأ الصرامة المنهجية التي تضمن لكل جنس خصائصه المتفردة. ذلك أن الدرس النقدي – في إقامة أحكامه – بحاجة إلى الدقة المنهجية."[1]

إذن فالهجنة التي تتحدث عنها الأستاذة جعلت النص الرحلي مادة تاريخية أحيانا ممزوجا بالجغرافيا والمشاهدات الإثنوغرافية وفي أحيان أخرى دراسة اجتماعية، على أنه مادة خصبة " للاستدلال على أحداث ووقائع حقبة زمنية بعينها، ويمكن أن نجعل مما تتوفر عليه من شواهد على الأحداث موضع مقارنة مع ما جاء في مصادر تاريخية أخرى تسانده أوتعارضه..أما الجغرافي فهو يرى في ماتقدمه الرحلة من أوصاف للفضاءات، ومعارف حول الطبيعة في بلد من البلدان أرضية ملائمة للمقاربة الجغرافية...ويتموقع إلى جانب هؤلاء جميعا الإثنوغرافي السوسيولوجي الذي يرى في الرحلة معارف مهمة تصور عادات الشعوب والأمم والقبائل في زمنها، وبالتالي تكون حافزا للمقارنة بين مجموعة من الأمم والشعوب من خلال ما ورد عنها في رحلة من الرحلات."[2]

ومما سبق كان لابد من بحث التمايز الذي يفرق بين فعل الرحلة وخطاب الرحلة، يقول سعيد يقطين:" الفعل تقوم به ذات تاريخية محملة بأحاسيس وانفعالات ورؤيات معينة.أما الخطاب فينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة

[1] حياة ذيبون: المدرسة العليا للاساتذة العلمة –الملتقى الوطني السادس حول الرحلة في الأدب الجزائري صورة الواقع وجمالية المتخيل نوفمبر 2017 جامعة الوادي: عنوان المداخلة: التعالقات الخطابية في أدب الرحلة قراءة في جماليات النص الرحليhttps://www.univ-eloued.dz/index.php/fll.

[2] سعيد جبار: من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، دار الأمان، الرباط، ط1434،1هـ-2013 ص174.

تتعين في علاقتها بالمرسل إليه. وبين الفعل والخطاب مسافة زمانية. فالأول سابق والثاني لاحق: فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم "[1]

إذن فقد أصبح جليا أن تحديد الجنس الأدبي لأدب الرحلة ليس من السهولة بمكان أن نجد له كيانا مستقلا إلا من حيث فعل الرحلة في حد ذاته أي السفر والانتقال والترحال من مكان إلى آخر كي يكون مميزا له، هذا، على الرغم من أن المكتبات مليئة بالرحلات الخيالية المفتقدة لفعل الرحلة ذاته، "لذا سيظل نص الرحلة يحرج دارسيه وهم يتقفوْن معاييره التي لا تسلم ولا تذعن فهذا بيير راجوت يشير تحت وقع تمظهراته المتعددة إلى استحالة الوصول إلى تعريف محدد له كما يشير جاك شيبو وجينيفييف شامبو إلى قابلية حدوده المتلونة للنفاذ والاختراق...كما أن أدريان باسكالي من جهته يعلي من قيمة تركيب الأجناس والأصوات والنصوص التي يتلقاها نص كنص الرحلة"[2] فخصوصية أدب الرحلة والتي تبلورت عبر السنين حتمت على دارسيه الحذر من تداخل الاجناس الأخرى في متنه مع ضرورة احترام كيانه الذي أصبح يميزه عن غيره ، واذا أردنا الحديث عن :

الأدب: الشعر والقص والدراما، الذي يعبر في غالب الأحوال عن فردية وذاتية المنشئ / المؤلف، فهو في النهاية خاضع لرؤية خاصة بالمؤلف، أما نصوص الرحلات فهي تتناول أحوال الشعوب والأقاليم، حيث تتسع الرؤية البصرية والزمانية والمكانية لتشمل مساحة كبرى، يتناولها الرحالة الأديب في نصوصه. وهذا لا ينفي أن هذا الأدب – في نهاية الأمر–هو صورة لفكر وذات وثقافة المؤلف الرحّالة، حيث نرى الشعوب الأخرى من خلال عينيه وفكره، ولكن تظل هناك جملة من الأمور التي تقدم الجديد والمفيد عن حياة الشعوب، وثقافتها ومعالم حضارتها. فلا يمكن أن تجنّس هذه النصوص ضمن

[1] سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار الأمان، الرباط،1433هـ–2012 ط1، ص175

[2] نقلاعن سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار الأمان، الرباط،1433هـ–2012 ط1، ص175 Elisabeth Delrue, Voyages ou sejours des écrivains espagnols en Europe (1890 1910), Lharmattan, 2012, Paris ; p9

فن سردي معروف، وإنما هي نص مختلف؛ يتشكل بناؤه وصوغه حسب عوامل عدة منها: شخصية الرحالة أو المدون وثقافته، وطبيعة الرحلة، وزمنها، وما شاهده فيها. فالرحلة " نص مفتوح لا يمكنه أن يتسيج في خانة محددة تجنسه بصفة معينة، تضيّق من تحرره واتساعه وانتشاره...، ولهذا فإن القول بنصيتها هو انفتاح على دينامية الرحلة، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر، وجسور التعبيرات المختلفة حولها[1]".

فالرحالة نوعان: رحالة أديب، ورحالة ليس بأديب، فهناك مئات أو عشرات من الرحّالة الذين جابوا الدول، وتعايشوا مع الشعوب، دون أن يسجلوا ما رأوه، فظلت رحلاتهم حبيسة في صدورهم، وفي أحسن الأحوال رووا مشاهداتهم–بوصفها طرائف وغرائب– سماعيا إلى من لقوهم في بلدانهم حين عادوا، وهؤلاء وُئِدت تجربتهم بوفاتهم، وبوفاة من سمعوا منهم. لذا تعد كتب مدونات الرحلات وثيقة مهمة في وصف المجتمعات المختلفة في عصر الرحّالة من جهة، ومعبرة عن ثقافة الزائرين لها وتصوراتهم من جهة أخرى. فنحن لا نقرأ أدب الرحلة من منظور واحد وهو منظور وصف البلدان الموصوفة فقط، وإنما نستشف أيضا طبيعة المجتمع الذي كتبت له كتب الرحلات، ورؤى هذا المجتمع التي جعلت الرحالة يصوغ رحلته بأسلوب وبنية ما، كي تجد قبولا لدى القراء. فالأنا هي ذات الرحالة، المؤلف، السارد، أما الآخر فهو بوجهين: الأول: المجتمعات التي زارها الرحّال وعني بوصفها، والحديث عنها. والثاني: مجتمع الرحّال نفسه، الذي قد لا يبدو ظاهرا في ثنايا السرد، نظرا لانشغال السارد بوصف المجتمعات الأخرى، ولكنه يُستشَف من خلال ما يبثه السارد من رؤى خاصة، ومتوافقة أو متعارضة مع بلده الأصلي، وجمهور المتلقين.

أدب الرحلة إذن، هو " تشكيل لنص ذاتي/شخصي، بخصوص الأنا والآخر، يتبنين متكيفا في شكل معين، للتعبير عن رؤية معينة، انطلاقا من خطاب مفصح عنه في البداية، أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات."[2]

إن هذا التشكيل النصي بطبيعته المزدوجة: ذاتي/موضوعي، يشكّل من حيث مضامينه

[1]– د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002، ص40

[2] المرجع نفسه ، ص41

احتفاء بمبدأ التنوع وقبول الآخر المختلف، فهو تعبير"عن التنوع الثقافي بين البشر الذي يشمل العادات والتقاليد في الطعام والشراب والتفكير والمعتقدات، والنظم الاجتماعية، وهذا واقع ضمن الدراسات الإثنوجرافية، التي تساعد على فهم مسار الحضارة الإنسانية، إذ إن التنوع الثقافي يساهم بلا جدال في التغيير والتطور الإنساني في مجمله."[1]

فضلا عن ذلك، فالأدب الرحلي، عون للباحث الأدبي ( الناقد ) في الوقوف على بنية الأسلوب ، والسرديات في عصر تسجيل مدونة الرحلة ، لذا فإن التعامل مع أدب الرحلات من المنظور النقدي يكشف الكثير من الرؤى والفنيات الأدبية والأسلوبية... وأدب الرحلات من هذه الزاوية لا يختلف عن بقية الأنماط الكتابية، فهو قبل كل شيء" خطاب نصي كليّ، وليس وحدات جزئية مشتتة ومشروعيته تتأتى من " طبيعة تصور المادة التي تعالجها والسياق الذي تندرج فيه، لأن الخطاب البلاغي في ذاته يتجه إلى أن يكتسب طبيعة كلية شاملة...، تجعله هيكلا متناميا، لا يقوم في فراغ مثالي، بل هو خطاب على خطاب، أي أنه كاشف عن الخطاب الإبداعي الموزاي له."[2]

لقد قدم أدب الرحلة " خطابا " أدبيا مختلفا في الصياغة والبناء، وجاء اختلافه في كونه معبرا عن مشاهدات وأحداث حقيقية ، يزعم الرحالة المنشئ أنه عاينها بأم عينه، وعاشها بجوارحه، فهو تجربة حقيقية معيشة؛ تفترض الصدق في المعلومة والحدث، وهذا يخالف الإبداع التخييلي في القص والمقامة والشعر والسيرة الشعبية، وإن كان فيها واقع أو جزء من الواقع، إلا أن منشئها لا يزعم أنه يعبر عن الواقع منذ الأساس. وهذا لا يعني أن أدب الرحلة هو صورة حرفية من الواقع، بل هو تعبير عن رؤى المنشئ وتصوراته، وما عايشه بشكل خاص، وتفاعل معه، وأثّر فيه. ويمكنه في ذلك أن يستبعد الذكريات المؤلمة، والمواقف المخجلة، والعقائد والمذاهب التي تخالف قناعاته، ويذكر أمكنة زارها دون غيرها...فهو تعبير جزئي شخصي أقرب إلى الذاتية منه إلى الموضوعية والشمولية، ولكنه يظل في أول الأمر (التجربة) ونهايته، متوخيا وقائع مشهودة، وأحداثا واقعة.

---

[1] د. حسين فهيم، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص52

[2] المرجع نفسه، ص9

و لا تتأتى دراسة " خطاب " أدب الرحلات إلا من خلال تناول مادة هذه المدونات بأدوات عدة تتيحها المناهج النقدية المعاصرة. وهي أدوات تحلل المادة اللغوية، وتكشف من خلال هذا التحليل الكثير من المعطيات: شخصية الرحالة، خصائص أسلوب منشئها، عناصر الحكايات الواردة فيها وفنياتها، ودلالات كل ذلك اجتماعيا وثقافيا. أي أنه يمكن عبر التحليل العلمي بآليات النقد الحداثي من استنطاق نص الرحلة، ليبوح بالكثير أدبيا وثقافيا واجتماعيا وفكريا، فيكون النص هو المصدر والمرجع، وهذا يكمل عمل الجغرافي والإثنوجرافي وباحث علم الاجتماع. فهؤلاء يلجون النص بآليات مستقاة من المناهج العلمية والمعرفية في دوائر تخصصاتهم، وهو نفس عمل الناقد الأدبي الذي يفعّل أدوات مناهجه أملا في استكمال جهود هؤلاء بالمعطيات اللغوية والأدبية في النص، ورغبة في أن يكون أدب الرحلة جزءا من المصادر الأدبية التي تكشف طبيعة الأسلوب في عصرها، وأنماط السرد فيه.

وهناك مقاربات أخرى تعتمد على المقارنة؛ من حيث طريقة السرد، والأجناس الأدبية التي تتقاطع فيها مثل السيرة والتراجم والتاريخ والجغرافيا والسجل الاجتماعي والحكي والخبر والشعر والرسالة واليوميات، أي يقارن الباحث بين نصوص أدب الرحلات من خلال هذه التقاطعات. وهذا منهج مهم في إيضاح تفرد كل نص عن غيره. إلا أن التناول الرأسي الذي يدرس الكتاب بوصفه وحدة بنيوية ونصية وأسلوبية، يعطي المزيد من الأبعاد الفنية والرؤيوية المتأتية من التعامل مع الكتاب بوصفه وحدة كلية، ليست برؤى جزئية. وهذا ينقلنا من مفهوم: أن النص الرحلي مجرد نص يجمع التسجيلات الوصفية والحكائية والمعلوماتية لينقله إلى " نص " أدبي يحقق إدراكا للعالم."[1]من منظور السارد / المنشئ وهو إدراك لا يدرس من خلال تجزيء النص إلى معلومات وسرديات، بل يصهره في بوتقة واحدة تشمل كل هذا، ليكون معبرا إلى دراسة كيفية تصور السارد وإدراكه لتجربته المعيشة، ومعرفة المزيد عن العصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه. كما يتيح هذا المنظور قراءة النص الرحلي بوصفه شكلا قائما بذاته، كل نص على حدة، لأن الشكل أكثر تجارب الفنان لصوقا بذاته، وهو في الوقت ذاته أداته

[1] ذكر في كتاب الرحلة في الأدب العربي، ص69 جورج غريب، أدب الرحلة: تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1966م

الوحيدة للمعرفة والعمل، كذلك لا يمكن"أن يكون للمعنى وجود خارج الشكل لأنه هو الشكل نفسه بما فيه من شفافية."[1] أي لا يمكن وعي نص الرحلة بفهم مضمونه العام، دون تدبر الشكل واللغة التي احتوت وصاغت هذا المضمون " فالركيزة الأساسية في هذا الاتجاه النقدي هي تدبر الكتابة بالقراءة."[2]

على هذا الأساس، سيكون النظر إلى الكتابات الرحلية من حيث شكلها على نفس الأهمية مع النظر إليها من حيثُ المضامين.

[1] مقولة لسوسير، نقلا عن: د. عفيف دمشقية، الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة. بحث منشور في مجلة الفكر العربي، العدد (8–9) في ملف بعنوان: الألسنية، مارس 1979م، ص204

[2] د. عفيف دمشقية، الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة ص204.

**المطلب الثاني ـ الرحلة والسيرة الذاتية**

لقد نحتْ السيرة الذاتية منحى الرحلة من حيث التعريف وحيرتْ النقاد في مدى اعتبارها جنسا مستقلا، ولم يكن ذلك انتقاصا منها بل تفاديا منهم الدخول في المتاهات الأجناسية، لكن غوته عرفها على أنها "شكل من أشكال الذاكرة الرمزية[1] ".

لأنه أراد ان يستكشف الحقيقة حول حياته، وأن يصفها، ولم يكن لديه من طريقة لإيجاد هذه الحقيقة، إلا أن يمنح الحقائق المتفرقة المشتتة من حياته، شكلاً رمزياً، فهو بهذا ادرك ان السيرة الذاتية شكل من اشكال الذاكرة الرمزية، حيث اضفى معنى رمزياً على قصة حياته، الى جانب المعنى التاريخي ، لان رواية الحقيقة الخالصة عن الانسان أمر بعيد عن التحقيق بل هو امر يكاد ان يكون مستحيلاً لان الصدق المحض في السيرة الذاتية رغم انها اصدق الفنون الادبية تصويراً للحياة الإنسانية فهو مجرد محاولة، وهو صدق نسبي وليس شيئاً متحققاً، لان هناك عوائق تعترض ظهور الحقيقة منها، ان الحياة نسيج صنعت خيوطه من حقيقة وخيال، وما حياتنا وافكارنا الا مزيج منها وبعض اجزاء حياتنا يصنع من وحي الخيال والحقيقة المجردة والخيال البحت، كلاهما يختفي من السيرة الذاتية.

ويذهب فابيرو في المعجم الكوني للأدب إلى تعريفها هي " كل نص يبدو مؤلفه يعبر فيه عن حياته وإحساساته، مهما كانت طبيعة العقد المقترح من طرف المؤلف[2]".

أي أن يكتب الانسان عن احاسيسه وخلجات نفسه في سيرته الذاتية فيظهر ما يشعر به السارد في نصه أما القارئ فهو الذي يقرر بالطبع إذا ما كانت مقصديه المؤلف ضمنية أو ظاهرة فيدرك بذلك أن المؤلف يعبرعن ذاته أم لا.

كما يرى جورج مش أنها"وصف لحياة شخص بواسطة الشخص نفسه[3]" ويرى فيليب لوجون أنها" حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة[1] ".

---

[1] عبد الدايم يحي، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي بيروت 1975ص6

[2] لوجون فيليب السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلمي ط1 المركز الثقافي العربي بيروت 1994 ص 10.

[3] صالح معيض، كتاب الذات–دراسات في السيرة الذاتية، المركز الثقافي العربي، بيروت 2013، ص12.

ويضيف فيليب لوجون "السيرة الذاتية عمل أدبي (رواية/ قصيدة/ مقالة فلسفية/...) قصد المؤلف فيها وبشكل ضمني أو صريح، إلى رواية حياته، وعرض أفكاره أو رسم أحاسيسه، ويضيف (فابيرو) معلقاً: تترك السيرة الذاتية مكاناً واسعاً للاستيهام، ومن يكتبها ليس ملزماً البتة بأن يكون دقيقاً حول الأحداث كما هو الشأن في المذكرات، أو بأن يقول الحقيقة المطلقة كما هو الشأن في الاعترافات..."[2]

وبذلك نكتشف رأيا آخر لا يعتبر الصدق والحقيقة من ضروريات الكتابة السيرية بل يجعلها مجالا فسيحا للتعبير والإبداع فلا يجب عليهأن يكون دقيقا حول الأحداث أو أن يقول الحقيقة.

" ومن أبرز ملامح (الترجمة الذاتية) قدرتها الهائلة على تصوير ما عاناه كاتبها من صراعات فكرية ومادية ومعنوية، تصويراً يساعد القارئ في التغلغل إلى أعماق الكاتب، ليتلمس ثمة آثار الخارج في حياته الداخلية، وآثار الندوب التي تركها ماضيه في حياته التالية"[3].

فتختلف كتابة المذكرات الشخصية والسير الذاتية للمشاهير من رجال السياسة والفكر والأدب والفن عن غيرها من الشخصيات الغير مشهورة، فأمرها مختلف تماما، فهم يحرصون على كتابة تفاصيل حياتهم وأعمالهم بعد خروجهم من السلطة او إحالتهم الى التقاعد أو اعتزالهم وذلك بهدف النشر عاجلا أم آجلاً. وقد يفضل البعض منهم، نشر مذكراته أو سيرته الذاتية بعد وفاته خشية تعرضه للمساءلة في ظل الأنظمة التى تضَيّق الخناق على حرية الرأي والتعبير او لاحتوائها على أفكار جريئة تتخطى المحرمات الاجتماعية (الطابوهات ) أو أسرار وعلاقات حميمة يتهيب من كشفها، حفاظاً على علاقاته ومكانته وعلى القيم السائدة في المجتمع الذى ينتمى اليه. واليوميات لدى المشاهير عموماً سواء السياسيين منهم أو رجال الفكر والثقافة، هي المادة الخام التي يستخدمونها لكتابة مذكراتهم الخاصة وسيرهم الذاتية وثمة رغبة

---

[1] – فيليب لوجون، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ص 22.

[2] المرجع نفسه، ص5.

[3] محمد راتب الحلاق– الترجمة الذاتية محاولة في مقاربة المصطلح مجلة الموقف الأدبي –مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق –العدد 342 تشرين الأول1999 ص 108

مشتركة لديهم تتمثل في تخليد ذكراهم وأدوارهم بعد رحيلهم عن الحياة. وتختلف مثل هذه المذكرات والسير الذاتية الى حد كبير عن يوميات أو مذكرات الناس العاديين الذين لا يفكرون يوما في نشرها. لذا فإن يوميات الشخصيات البارزة–على خلاف الأفراد العاديين–تفتقر الى المصداقية والشفافية أحياناً، حيث يحاول أصحابها تلميع صورهم، وإبراز دورهم في الأحداث التى شاركوا في صنعها أو كانوا شهوداً عليها. لأنهم يتوقعون إطْلاع الرأى العام أو القراء على مذكراتهم الشخصية بعد نشرها. وهذا ما يدفعهم الى تقديم أنفسهم لقرائهم على أحسن صورة، والتركيز على ما يرفع من شأنهم، وقد يتجاهلون عن عمد تسجيل وقائع كان لهم ضلع فيها، أوقد تسيء إليهم خلال حياتهم أو بعد وفاتهم، كما أنه من الخطورة أن يدون صاحب المذكرات كل ما يعرفه من حقائق وأسرار قد تشكل خطراً على حياته.

# الفصل الأول :أشكال السرد عند إيزابيل إبرهاردت

**المبحث الأول- اليوميات والرسائل**

المطلب الأول: اليوميات

المطلب الثاني ـ الرسائل

**المبحث الثاني ـ القصص والخواطر**

المطلب الأول- القصص

المطلب الثاني ـ الخواطر

**المبحث الثالث ـ التقارير والملاحظات**

المطلب الأول- التقارير

المطلب الثاني ـ الملاحظات

**المبحث الرابع ـ النظرة الاستشراقية لدى إيزابيل إبرهاردت**

## التعريف بالرحالة: إيزابيل إبرهاردت

هي كاتبة من أصل روسي ولدت بجنيف في 17 فيفري1877 ،نُسب لقبها إلى أمها ناتالي دي مويردير إبرهاردت ومن أب مجهول ، وكانت تعيش بجنيف بسويسرا مع أليكسندر تروفيموسكي الذي إعتبرها إبنة له ،قدمت أول مرة للجزائر سنة 1897 واستقرت مع والدتها في عنابة ، وفي نفس السنة جرت أول مراسلة مع علي عبد الوهاب عند مروره بباريس، وفي شهر ماي انتقلت إيزابيل مع أمها وأبيها إلى بونة (عنابة )، وفي 15 جويلية زارها علي عبد الوهاب هناك ، وفي 28 نوفمبر توفيت أمها بعد إسلامها وفي 04 ديسمبر عادت إلى جنيف وفي 15 ماي 1899 توفي أبوها بالتبني ،وفي 04 جوان من نفس السنة تسافر إيزابيل إلى تونس وفي 08 جويلية إلى الجنوب القسنطيني وصولا إلى الوادي في أوت 1899، لتبقى حوالي شهر ثم تعود إلى بونة ومن ثمة إلى الساحل التونسي في سبتمبر من نفس السنة ،وفي نوفمبر تصل إلى مرسيليا وفي جانفي 1900 تصل إلى سردينيا بإيطاليا ، وفي 03 أوت 1900 تعود إلى الوادي لتعتنق الإسلام على يدي أحد شيوخ الطريقة القادرية وتقيم بها سبعة أشهر وتتزوج سليمان هني وهو عسكري من الاهالي في 17 أكتوبر 1901 لتتعرض في نفس السنة لمحاولة إغتيال في البهيمة (بلدية حساني عبد الكريم حاليا) ، لينتقل الزوجان إلى بونة وباتنة والجزائر العاصمة لطبيعة عمل سليمان هني كمجند في جيش الإستعمار الفرنسي ، ثم حوّل إلى سطيف 1903، وفي شهر ماي سنة1904 كان السفر الثاني لها للجنوب الوهراني وفي سبتمبر رحلتها الأخيرة إلى زاوية القنادسة ببشار وفي 21 أكتوبر يزورها زوجها بعين الصفراء وكانت قد خرجت للتو من المستشفى لإصابتها بالحمى، وفي ديسمبر 1904 توفيت إيزابيل إبرهاردت في فيضان عين الصفرا ء على إثر إنهيار المسكن الذي كانت تستأجره ، و في ليلة 15 أفريل سنة 1907توفي زوجها سليمان هني ، وكان موت أخيها أوغيستان دي

مويردير في مرسيليا عام 1920 ، أما علي عبد الوهاب الذي كانت تراسله فقد توفي بتونس سنة 1943[1]

تقول إدموند شارل رو[2] حول إيزابيل إربهاردت :" هي إمرأة وكاتبة فرنسية عاشت في النصف الأول من القرن العشرين بين عديد من دول شمال إفريقيا وإعتنقت الإسلام ...ولقد ماتت وهي في السابعة والعشرين ،بعد أن فقدت أسنانها وتساقط شعرها وهدمها الكيف والخمر ،وكانت قد وصلت إلى نهاية مشوارها"[3]

لقد حظي أدب إيزابيل وحياتها باهتمام عالمي كبير، من خلال ترجمة مؤلفاتها إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية، بالإضافة إلى ما وجده الباحثون في شخصيتها المغامرة، وما شابها من ألغاز وأساطير ليحولوها إلى مادة للبحث والإبداع. وُضعت الكثير من الكتب عن كافة تفاصيل حياتها. منها كتاب الاستاذ محمد رشد: "السفر الأخير في الظل الدافئ للإسلام" الصادر عن المؤسسة الوطنية للكتاب في الجزائر 1991م. وكتاب "إيزابيل إبرهاردت، ملاحظات وذكريات" لروبير روندو 1945م. وكتاب "الوادي والزاوية" لدينيس إبراهيمي 1983م عن ديوان المطبوعات الجامعية في الجزائر.

وأيضا:

- DANS L'OMBRE CHAUDE DE L'ISLAM وهو مجموعة من النصوص تتكلم فيها الكاتبة عن رحلتها إلى زاوية قنادسة ،جمعها ونشرها بعد وفاتها

[1] لمزيد من التفاصيل حول حياة إيزابيل، انظر المرجع Isabelle Eberhardt écrits intimes par Marie Odile Delacour et Jean-René Huleu Marie èditions Payt 106,bd Saint-Germain,Paris 10 -7 P 1991

[2]( 17 04 1920/ 20 01 2016 ) روائية فرنسية مولودة في نيلسي سيرسين هي إبنة لفرنسوا شارل رو السفير الذي تولى منصب المشرف على قناة السويس بمصر كتبت عديدا من السير الذاتية لنساء فرنسيات مثل إيزابيل إبرهاردت وكوكو شانيل وهي عضو في مجلس إدارة اكادمية جونكور . محمود قاسم – موسوعة ادباء العالم في القرن 21 الجزء 2 ط1 نوفمبر 2018 كندل للنشر .ص12 .

[3] المرجع السابق نفس الصفحة.

صديقها فيكتور باروكاند صاحب جريدة الأخبار تحت العنوان السابق وترجمته : (في ظلال الإسلام الدافئة)/ باريس- 1906 .

- (مذكرات الطريق) : تقديم فيكتور باروكاند / باريس – فيسكل 1908.
- (صفحات الإسلام) : تقديم فيكتور باروكاند / باريس – فيسكل 1922.
- (يوميات ): تقديم ر .ل.دوايون / باريس .المعرفة 1923.
- (في بلاد الرمل ): تقديم ر .ل.دوايون / باريس.سورلو 1944.

- Sables .le roman de la vie d'isabelle Eberhardt ماري أودي لدي لاكور وجان روني هولو1986.

Yasmina et autres nouvelles algérienne ( ياسمينة) - ماري أودي لدي لاكور وجان روني هولو 1986.

- écrites sur le sable ;œuvres complètes ,notes et journaliers (مخطوطات على الرمل )ماري أودي لدي لاكور وجان روني هولو 1986 .

- Isabelle Eberhardt écrits intime (مجموعة من الرسائل الحميمية) جمعها : ماري أودي لدي لاكور وجان روني هولو 1991. مجموعة قصص قصيرة .

وأيضا:

- Tiffany Tavernier, *Isabelle Eberhardt. Un destin dans l'islam*, Tallandier, 2016
- Patricia Bourcillier, *Isabelle Eberhardt : Une femme en route vers l'islam*, Flying Publisher, 2012 -

- Françoise d'Aubonne, *La Couronne de sable : Vie d'Isabelle Eberhardt*, Paris, éditions Flammarion, 1967
- Marie-Odile Delacour et Jean-René Huleu, *Sables, ou le roman de la vie d'Isabelle Eberhardt*, éd. Liana Levi, 1986
- Robert Randau, *Isabelle Eberhardt : Notes et Souvenirs*, Paris, Charlot, 1945.
- Edmonde Charles-Roux, *Un désir d'Orient : Jeunesse d'Isabelle Eberhardt, 1877-1899*, Paris, éditions Grasset, 1988
- Edmonde Charles-Roux, *Nomade j'étais : Les Années africaines d'Isabelle Eberhardt:, 1899 - 1904*, Paris, éditions Grasset, 1995
- Catherine Sauvat, *Isabelle ou le Rêve du désert*, Paris, éd. Le Chêne, 2004,
- Catherine Stoll-Simon, *Si Mahmoud ou la Renaissance d'Isabelle Eberhardt*, éd. Emina Soleil (en France) et Alpha éditions (en Algérie)
- Marie-Odile Delacour et Jean-René Huleu, *Le Voyage soufi d'Isabelle Eberhardt*, éd. Joelle Losfeld, 2008

كان الفضل للجنرال ليوتي الذي أمر بالبحث عن أوراقها وما كتبته إيزابيل إيبرهارت تحت أنقاض المنزل المنهار بسبب فيضان وادي العين الصّفراء في أكتوبر 1904، فأنقذ مخطوطاتها من الضّياع. والتي أشرف فيكتور باروكاند على تحقيقها وجمعها فيما بعد.

كما خصصت الكاتبة الفرنسية "فرانسواز دوأوبون" كتابين عن إيزابيل "تاج الرمال" 1967م، و"حياة إيزابيل" 1968م.

كما ترجم عبد السلام المودني الاعمال الكاملة لها الصادرة عن دار الجمل ،اضافة إلى ترجمة جمال غلاب للأعمال الكاملة لها أيضا، وترجم أحسن دواس ياسمينة وقصص أخرى ونحيب اللوز وكلاهما مجموعتان قصصيتان، وترجم د. بوداود عمير ياسمينة وقصص أخرى وأعيد طبعها بمساهمة جمعية صافية كتو بعين الصفراء كما كتب بالفرنسية خليفة بن عمارة إيزابيل إبرهاردت والجزائر وترجم أ. عبد القادر ميهي إلى العربية في ظلال الاسلام الدافئة واليوميات بعنوان على الرمل أثر وعودة العاشق المنفي وتاعليث وهي مجموعة قصصة لها .

أما ماتعلق بالروايات حول شخصيتها فكان طيفها حاضرا في(أربعون عاما في انتظار إيزابيل لسعيد خطيبي الصادرة عن منشورات الاختلاف والضفاف ورواية سكوت العارفة إيزابيل تتحدث للدكتور عبد القادر عميش ).

ومن جانب الدراسات التاريخية صدر مؤخرا كتاب الشيخ بوعمامة وإيزابيل إبرهاردت لقاء أم مصير لبلعرج بوداود وطبع بمساهمة جمعية صافية كتو.

## الفصل الأول: أشكال السرد عند إيزابيل إبرهاردت

كتبت إبرهاردت بأشكال مختلفة تتدرج ضمن فن النثر فكانت تنوع في كتاباتها فتنتقل من الرسائل إلى الخواطر إلى القصص القصيرة إلى اليوميات مستلهمة أفكارها وقصصها من الأماكن التي زارتها ومن الناس الذين تصادفهم في رحلتها فتكتب حين تشعر بالوحدة أو التشرذم أو لتستنجد بغيرها فهي ترى أن كل موقف أو مشاهدة جدير بالتدون .

يقول الأستاذ أحسن دواس"لقد عشقت إيزابيل ليل الجزائر وفجرها، فغدت لا تتنفس هواء غير هوائها، ولا تفترش أرضا غير رمال صحرائها، عنابة، باتنة، العلمة، تلمسان، الجزائر، الوادي، قمار، بوسعادة، عين الصفراء، لابقاع أرحب وأروع من هذه البقاع، مائها، رملها، سمائها، شمسها."[1]

نعم أحبت إيزابيل هذه الأرض، بكل جوارحها، كتبت عنها ولها، التحمت بروحها مع كل تفاصيل حياة شعبها وطقوس عيشه، تسربلت بسربال شعبها اعتنقت دينها، تكلمت لغتها الرخيمة الشجية، واحتضنت تربتها الدافئة في نومتها السرمدية.

كتبت مرة ميريام بيرد حول الرحلة الحقيقية وكيف تؤثر في العمق الإنساني فكرا وروحا تقول:'' أكيد أن الرحلة أكبر من المشاهدة البصرية، إنها التغيير الذي يمضي قدما عميقا ومستمرا في أفكار الحياة'' وإيزابيل من الرحالة القلائل إن لم أقل الرحالة الوحيدة التي جسدت هذا المعنى بهذا الشكل التام، وذاك التحول الفكري والروحاني الذي شكل منها إيزابيل أخرى، بامتداد حضاري آخر وروح شرقية جديدة"[2]

أما ماكتبته إيزابيل عن زاوية القنادسة ببشار فيعد من أكمل أعمالها كما تقول الكاتبة إدموند شارل رو لرحلة: ناسك يرتدي الخرق منعزلا في قاع مغارة، نساء عند العين، الصلاة في المسجد، سادة بدو يشبهون الذئاب، انتحار إمرأة مسلمة رفضت استعبادها

[1] إيزابيل ابرهاردت، ياسمينة وقصص أخرى، ترجمة، أحسن دواس – سلسلة إبداعات عالمية العدد 390، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، أغسطس ،2012، ص9.

[2] ميريام بيرد، نقلا عن أحسن دواس، المرجع السابق. ص10.

من قبل زوجها، حزن المقبرة، لقاءاتها مع سيدي إبراهيم، حياة الطلبة المسلمين. اقتطفت كل ذلك يوما بيوم في إقامتها بالقنادسة.هذا يفسر حرصها على أن تكون حرة في غدوها ورواحها.

كان بإمكانها أن تستمر في العيش هكذا حتى يوم الرحيل. كانت تقول (لا شيء يحدث هنا) "ولولا أيام الألم والعذاب التي قضتها هناك حيث صرعتها الحمى عدة مرات: لم تترك لها أزمات حمى الملاريا أي قوة، فبقيت مرمية في غرفة، وحيدة، على حصيرة. يحرك عبد منشة في الصمت المحيط"[1].

وهذا وصف لحالتها الصحية أياما قبل وفاتها، وفي صورة نادرة لها تظهر إبرهاردت في لباس رجالي سميك ومظاهر المرض بادية عليها تجلس في كرسي وكأنها شيخ سبعيني، ولا تخالها فتاة أوربية في السابعة والعشرين من عمرها.

أما إذا ذُكرت الصحراء عند إبرهاردت، فإنك تكاد تسمع لتنهيداتها وضحكاتها وأنينها من خلال كتاباتها وآهاتها، لما وَجدته من هدوء وطيبة في أهلها، وما عايشته من أحداث، جعلت منها باحثة في سوسيولوجية وأنتروبولوجية تلك الأقوام التي عايشتهم دون أن تعلم أن كتاباتها من بعدها سوف تصبح تأريخا وشهادة على العصر، من خلال تصوير حقبة الاستعمار الفرنسي للجزائر وما انجر عليه من قتل وظلم وفقر وتجهيل للشعب.

تقول إبرهاردت في إحدى خواطرها:" من بين كل الذكريات الغريبة وكل الأحاسيس التي استحضرتها الآن والتي تَركتَها في نفسي إقامتي في الوادي –المدينة الرمادية ذات القباب الألف بمظهرها القديم الذي لا أثر لِيَد الزمن عليه – الأكثر عمقا والأكثر تميزا

[1] ينظر: إيزابيل إبرهاردت، في ظلال الإسلام الدافئة، ترجمة عبد القادر ميهي، ط1، مطبعة مزوار الوادي،،2012.ص10-11.

هو ذلك المشهد الفريد الذي أتيح لي تأمله ذات صبيحة صافية من أيام الشتاء. الشتاء هناك، مشمس وصاف كأنه الربيع."[1]

"وفي عام 1988 نشرت إدموند شارل رو تحقيقاً مطولاً عن "إيزابيل ايبرهاردت" التي اعتنقت الإسلام طواعية وعن طيب خاطر واقتناع تام، رغم شبابها . وتقول إدموند عنها: لقد دفعتها معرفتها المتعمقة بالإسلام كي تذهب إلى الجزائر وعيناها مغمضتان، فقد كانت تحسن خمس لغات وولدت في وسط اريستوقراطي من أب روسي وعاشت بسويسرا، ولم يكن هناك ما يرغمها على شيء في حياتها، قررت رحلتها منذ سن التاسعة عشرة، وباعتناقها للدين الجديد قاطعت كل الممارسات السابقة"[2]

وفي مقدمة كتاب يوميات العاشق المنفي كتب المترجم: "لا تخلو نفسية إيزابيل من لوثة فصام فهي تتحدث عن نفسها مرة كأنثى وأخرى كذكر بحيث تجذبها حقيقة جسدها فتتذكر انها فتاة وتؤثر فيها تصرفاتها وسلوكاتها وملابسها أحيانا فتحسب أنها ذكر وتنطق بهذه الصفة وتتصرف إنطلاقا من ذلك الشعور"[3] .

وتقول باتريسيا بورسيلييه واصفة قدوم إبرهاردت للمرة الأولى للوادي ونظرة السكان لسلوكها: إذا كان أصدقاء الصدفة لإيزابيل تخيلوا أن تحت البرنس الأبيض الصوفي الكبير الذي يغلف كل ذلك الجسم القوي البنية يخفي إمرأة شابة من المؤكد أنهم لم يسمحوا له بالظهور، ولم يخفوا السر على الطريقة الأوربية أن سي محمود كانت إمرأة ولكن عادة العرب كتم الأسرار بطريقة لبقة.

---

[1] إيزابيل إبرهاردت، عودة العاشق المنفي، كتاباتها عن سوف، ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي، مرجع سابق، ص122.

[2] مقال لـ: محمد هاني عطوي ملحق استراحة الجمعة يومية الخليج تاريخ النشر: 2013/12/06 تاريخ الرفع 03 07 2020 الساعة 28 23

[3] مقدمة كتاب :إيزابيل إبرهاردت،عودة العاشق المنفي كتابات إيزابيل إبرهاردت عن سوف :ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي ،ط1 ،مطبعة الوليد كوينين الوادي ،2006،ص5-6.

في أغلب الاحتمالات كان عزمها أن تكون مسلما حقيقيا هذا ماشدّ نظرهم في الوهلة الأولى، أكثر من أنوثتها البيولوجية وميولها إلى الشرب وتعاطي المسكرات، بالطموح كانت مثلهم عنيدة ومقدامة سريعة الثوران والعراك من أجل قضية عادلة[1].

[1] Patricia Bourcillier.Isabelle Eberhardt une femme en route vers l'islam by Flying Publisher et Kamps. 2012 p95-

## المبحث الأول ـ اليوميات والرسائل

### المطلب الأول: اليوميات

لا يمكننا الحديث عن اليوميات دون وضعها في سياقها التاريخي من خلال نشأة الكاتبة في بيئة أرستقراطية تتمتع بالعيش الرغيد والوقت الوفير الذي يسمح لها بكتابة يومياتها كمتنفس لها وكتقليد في العائلات الغنية آن ذاك،كما أصبحت كتابة المذكرات تقليدا متَّبعا في أوربا فيكتب الناس في أوقات السكون وأوقات السفر فيسجلون كل ما تقع عليه أعينهم وكل ما يصادفونه في دروب الحياة المختلفة .

فيعرفها جبور عبد النور في المعجم الأدبي: "المذكرات هي سرد كتابي لأحداث جرت خلال حياة المؤلف وكان له فيها دور، وتختلف عن السيرة الذاتية بأنها تخص العصر وشؤونه بعناية كبرى، فتشير إلى جميع الأحداث التاريخية التي اشترك المؤلف فيها أو شهدها أو سمع عنها من معاصريه، وأثرت في مجرى حياته.

ظهر فن المذكرات منذ القدم مسجلا لأحداث التاريخ البارزة، أو معنيا بالشخصيات المعاصرة للكاتب وذاعت في الآداب العالمية خلال القرون الوسطى، وأصبحت في العصر الحديث من الفنون الأدبية الرائجة [1]".

أما من الجانب التاريخي لظهور اليوميات فيقول الكاتب جودت هوشيار:"ما زال الغموض يكتنف نشأة وانتشار ظاهرة كتابة اليوميات والمذكرات الشخصية والسير الذاتية، فالأدبيات الغربية تؤكد بأن القديس سانت أوغسطين (354–430)م، كان أول من كتب سيرته الذاتية وتحدث فيها عن تأثير الدين في حياته الخاصة، قبل ان يتبلور هذا الفن ويتحول الى جنس أدبي مستقل على يد جان جاك روسو (1712 – 1778)م في كتابه « اعترافات» وكان « روسو « يدرك تماما أنه أول من كتب هذا الجنس الأدبي في قالب فني متكامل حين كتب يقول «أنا أفعل شيئا لم يفعله شخص قبلى ولن يقدر

[1] جبور عبد النور المعجم الأدبي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط2 1984 ص 246

شخص بعدي على تقليده «ولكن بعض الباحثين العرب يشير الى أن الفن نشأ في الفكر العربي قبل ان يكتب « روسو» اعترافاته. صحيح أننا نجد في التراث العربي بعض السير الذاتية مثل رسالة حنين بن إسحق (809–819 م) و"المنقذ من الظلال" للإمام الغزالى (1058–1111) م و"التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً" (1332–1406م) ولكن الثقافة العربية لم تعرف كتابة المذكرات الشخصية والسير الذاتية كجنس أدبي شائع وقائم بذاته إلا مع النهضة العربية الحديثة"[1].

ويضيف الكاتب"يلجأ الكثير من الناس الى كتابة يومياتهم بشكل منتظم أو على نحو متقطع بين آونة وأخرى وقلما تجد مثقفاً او متعلماً لم يجرب الكتابة عن نفسه خلال حياته، كما يحرص العديد من الرؤساء والساسة والأدباء والمفكرين على تدوين مذكراتهم الشخصية أو سيرهم الذاتية. ولكن الدوافع والأهداف قد تكون مختلفة، كما أن يوميات الناس العاديين تختلف عن مذكرات وسير المشاهير في أسلوب التدوين ومدى الصدقية والشفافية والأهمية"[2].

فاليوميات إذن هي متنفس لكل الناس لكي يؤرخوا حياتهم أو يستأنسوا بالكتابة، فلربما يكتب الواحد منا يومياته وهو لا يعتقد بأنها ستنشر ذات يوم حتى يلمع بريقه فتجد الصحفيين يبحثون عن السبق للكتابة عن شخصية سياسية كانت أوأدبية تعذّر عليها نشرها بمفردها. وبذلك لا نستطيع الجزم بأن كل الأخبار الموجودة فيها حقيقة تاريخية فقد يختلط فيها ماهو حقيقي بما هو غير ذلك وقسم الكاتب جودت هوشيار اليوميات إلى قسمين اليوميات و المذكرات الخاصة غير المخصصة للنشر و المذكرات الشخصية او السير الذاتية للمشاهير فأما الأولى فهي للشخص غير المشهور قد يلجأ الى تسجيل تفاصيل الأحداث الخاصة في حياته وانطباعاته عن الأشخاص الذين تعامل معهم أوعن لحظات حميمة في حياته تركت آثاراً عميقة في

[1] جودت هوشيار المذكرات الشخصية وكتابة التأريخ: الحوار المتمدن–العدد: 3863 –2018 / 9 / 27 – http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=32592020:56 ،

[2] نفس المرجع السابق

نفسه لا يرغب أن يطويها النسيان ويود تخليدها، وقد تحتوى هذه اليوميات على أحداث غيرت مجرى حياته فيعيد قراءتها والتأمل فيها لاحقاً من أجل مراجعة مدى تطور نظرته الى الحياة بمضي الزمن، خاصة إذا كانت الأيام قد تغيرت وتغير معها نظرته الى الحياة والناس، فهو يحن الى تلك اللحظات وفي الوقت نفسه يستخلص منها العبر. وثمة من يعمد الى تسجيل يومياته تحت وطأة ظروف قاسية كوسيلة هروب من الواقع المرير. وربما تتضمن اسراراً واعترافات عن خصوصيات صاحبها لا يريد البوح بها لأحد أو يطلع عليها الآخرون ما دام حياً. وبطبيعة الحال فأن مثل هذه اليوميات والمذكرات أشبه بانطباعات ذاتية وذكريات خاصة، لا يهم أحداً غير صاحبها أو بعض المقربين إليه، ولا تكتب لغرض النشر، سواء خلال حياة صاحبها أو بعد وفاته.

وبالحديث عن اليوميات التي كتبتها إيزابيل إبرهاردت طوال مسيرتها الأدبية فهي كثيرة جدا ومدونة خلال زياراتها للكثير من البلاد ومتعددة ومختلفة الأزمان لكن الملاحظ على هذه اليوميات أنها لم تكن متصلة الزمن لأن مسيرتها الكتابية تعددت بين اليوميات والقصص والخواطر والرسائل، وماتم جمعه بعد وفاتها يعتبر ثريا بالمقارنة مع حياتها القصيرة فقد كانت الكتابة ديدنها أينما حلت وارتحلت، فقد بدأت بكتابة يومياتها في (01-01-1900)، أي في أول يوم من القرن العشرين تحديدا. مع أنها زارت مرسيليا والجزائر وعنابة وتونس قبل ذلك التاريخ.

كتبت وهي في كاغلياري[1] يومياتها الأولى فوصفت شعورها بالوحدة التي سيطرت على وجدانها طوال مسيرتها. وسيلاحظ القارئ بأنها كانت تستعمل صيغة المذكر حين تتحدث عن نفسها، تماما مثلما كانت تتنكر في زي الرجال في معظم أطوار حياتها في الجزائر. حيث تقول فيها "أنا وحيد، أجلس أمام البحر الرمادي الصاخب. أنا وحيد... وحيد، كما كنت حيثما ذهبت وسأبقى هكذا دائما عبر الكون الكبير الفاتن والمخيب

[1] عاصمة جزيرة سردينيا الإيطالية وأكبر مدنها وعاصمة مقاطعة كاليري. تقع على الساحل الجنوبي لها المطل على البحر الأبيض المتوسط

للآمال... وحيدا، تاركا خلفي عالما بأكمله من الخيبة والأوهام الميتة والذكريات التي أصبحت تبتعد، كل يوم أكثر، حتى كأنها باتت ضربا من الخيال"[1].

وآخر ما كتبته من يوميات كان بمدينة عين الصفراء في ماي 1904، تقول فيها:

"غادرت العين الصفراء في شتاء العام الماضي، كان الجو متقلبا والمدينة ترتجف من البرد تجوب أزقتها الريح الصارخة التي تجعل الاشجار النحيفة العارية تنحني تحت وطأتها، أراها اليوم من جديد في حلة مختلفة تماما...هي بالتأكيد العاصمة الصحراوية الصغيرة للإقليم الوهراني...في الجزائر، كان عليّ أن أحتقر أشياء وأشخاصا. أنا أكره الاحتقار، بل وأفهم وأعذر كل شيئ...ابتعدت الآن وأشعر أن نفسي أصبحت سوية أكثر من ذي قبل وانفتحت بكل بساطة على الفرح وعلى شهوانية العيون ورؤى الأحلام...ولكن من يشعر بكل هذه المتعة المزدوجة، غير الرحالة المتشرد؟"[2].

فضلا عن هذه اليوميات، كان لها كتابات في رحلتها الأخيرة للقنادسة، لكنها كانت عبارة عن خواطر وقصص وملاحظات. وممّا وُجد مؤرخا في رحلتها الأخيرة، رسالتها لزوجها سليمان هني بتاريخ أكتوبر 1904، وهي بمستشفى العين الصفراء أي في نفس الشهر الذي توفيت فيه بتاريخ 25 -10-1904 تحت حطام المنزل الذي اكترته بعد فيضان وادي العين الصفراء.

[1] عبد القادر ميهي-على الرمل أثر – يوميات إيزابيل إبرهاردت-مطبعة الرمال –ط 1-2015.

[2] إيزابيل إبرهاردت الطريق إلى القنادسة (في ظلال الإسلام الدافئة) ترجمة عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار ط1 2012 ص14-15

والملاحظ في يومياتها (1900-1903) أنها تمتاز بتقطع خيط السرد ويظهر ذلك في الانتقال من موضوع إلى آخر كما يطغى عليها الطابع الانطباعي لأنه رصد لحالات نفسية مضطربة في إطار ما يعرف بتيار الوعي، أي تسجيل ما يرد على الخاطر دون تكلف ولا تفكير في توفير بنية محكمة

ويطلق مصطلح تيار الوعي أو تداعي الذاكرة أو سيل الوعي في النقد الأدبي على التقنية الأدبية التي تسعى لإظهار وجهة نظر الشخص من خلال صياغة تسلسل الأفكار بصيغة كتابية، وهذه الأفكار إما أن تكون محادثة داخلية غير مترابطة، أو تكون متعلقة بأفعال وتصرفات الشخص. وهو معروف أيضا باسم المونولوج الداخلي وهو طريقة لتصوير الأفكار والمشاعر المتدفقة التي تمر في العقل، يعد سيل الوعي نوعًا من كتابة الحوار الداخلي للشخص، لذلك غالبًا ما تكون الجمل مفككة والأفكار غير مترابطة و يكون من الصعب معها متابعة النص، أو المشاعر التي تكون متداخلة في النص. وتيار الوعي يقصد به الانسياب المتواصل للأفكار داخل الذهن أو جريان الفكر باطنيا وذهنيا ويدخل في إطار هذا التيار الكثير من التغييرات والتقلبات والتدفق والتفاعل بين الماضي والحاضر. وقد صيغ هذا المصطلح من قبل وليام جيمس في عام 1890 في كتابه مبادئ علم النفس. كما لاحظنا الطابع الرومانسي الواضح من خلال الكآبة المسيطرة على يومياتها ، وقد بدأ المذهب الرومانسيّ أو الرومانتيكيّ بالظهور أوائلَ القرن التاسع عشر ميلادي، وبظهورِهِ اكتسحَ ثقافةَ أوروبّا السائدة في ذلك الوقت، واستطاعَ أن يحلّ محلَّ الكلاسيكيّة، حيث جاء هذا المذهب كردّة فعل على الكلاسيكيّة ذات القيود والنظام الصارم، حيث تمَلمَلَ الأدباء من هذا المذهب وثاروا عليه، كما كان للفوضى السياسيّة الناتجة عن الحروب التي تفجرت آنذاك كحروب نابليون والصراع على المستعمرات والحروب بين الدول المتجاورة في أوروبّا أثرٌ في انتشار هذا المذهب فظهرت الرومانسيّة كمذهب أدبيّ، وبدأ الناس يدركون معناها الحقيقيّ التجديديّ وثورتها ضدّ الكلاسيكية، واتجه صوبَها الكثير من

الأدباء والنقاد والمفكرين الغربيّين كطريق أكثر حرية من قيود الكلاسيكيّة.

كما تتميز يوميات إبرهاردت بالتمركز على الذات أي التبئير الذاتي و هو تقليص حقل الرؤية عند الراوي وحصر معلوماته وسمي هذا الحصر بالتبئير لأن السرد يجري فيه من خلال بؤرة تحدد إطار الرؤية وتحصره ، وما ميز يومياتها هو التّبئير الدّاخلي المتعلق بالترهين السردي الذي تكون فيه الرؤية مقتصرة على الشخصية أي تعبير عن وجهة نظر شخصيّة فرديّة ثابتة أومتحرِّكة،وتكون معرفة الرّاوي هنا على قدر معرفة الشّخصيّة الحكائيّة ، فلا يقدِّم لنا أيّ معلومات أو تفسيرات إلاّ بعد أن تكون الشّخصيّة نفسها قد توصّلت إليها."وبتجسد التبئير الداخلي في الخطاب غير المباشر الحر ويبلغ حدوده القصوى في المنولوج الداخلي حيث تتحول الشخصية إلى مجرد بؤرة، أما حدوده الدنيا فتلك التي رسمها رولان بارت أثناء تعريفه صيغة الخطاب الشخصي وهي أنه يكون بإمكاننا إعادة كتابة مقطع التبئير الداخلي بصيغة المتكلم دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير في النص بتجاوز تبديل الضمائر" ويكون التبئير مثبتا على شخصية واحدة حين تمر معلومات القارئ عبر منظار هذه الشخصية ويكون متبدلا حين ينتقل مصدر المعلومات من منظار شخصية إلى منظار شخصية أخرى مع إمكانية العودة إلى الشخصية الأولى، ويكون متعددا حين يُروى الحدث الواحد على لسان عدة شخصيات كلّ حسب وجهة نظره كما في الروايات التراسلية والروايات البوليسية[1].

ففي كتاباتها تستعمل ضمير المتكلم (أنا) دائما فتحاول إيصال كل مشاهداتها ومحادثاتها عبر هذه الانا لتوصل لنا ما تعتقد أنها الحقيقة من زاوية نظرها الأحادية.

كما ولعت ابرهاردت بالوصف باعتباره فن من فنون الاتصال اللغوي الذي يُستخدم لتصوير المشاهد أو الشخصيات أو التعبير عن المواقف والانفعالات الداخلية والمشاعر، ويمكن اعتباره رسماً دقيقاً لصور الأشياء باستخدام الكلمات؛ لإيصالها

[1] د لطيف زيتوني معجم مصطلحات نقد الرواية مكتبة لبنان ناشرون دار النهار للنشر بيروت لبنان ط1 2002 ص 42

للقارئ بصورة يخال بها أنه يرى الموصوف رأي العين ورحالتنا تتميز بالوصف الانفعالي: ويسمى أيضاً بالوصف الوجداني أو الذاتي، وفيه لا يكتفي الواصف بوصف الشيء فقط بل ينتقل إلى إضافة مشاعره وخيالاته أثناء ذلك.

لم تكن ظاهرة التشاؤم ، والهروب من الواقع المزري ، والفرار إلى العزلة والانطوائية ، والانطلاق إلى عالم الرؤى والخيال والأحلام من الظواهر التي تنفرد بها ايزابيل ابرهاردت بل كانت سمة الرومانسيين عامة اضافة الى شدة التأثر بمظاهر الطبيعة المختلفة.

**المطلب الثاني ـ الرسائل**

كانت المراسلة تقليدا عند الغربيين في القرن التاسع عشر وحتى في بدايات القرن العشرين. فما من فتى أو فتاة إلا وكانت لها عدة مراسلين، وكان الواحد منهم يكتب مذكراته باستمرار ويُدون عليها التاريخ والمكان والحالة النفسية أحيانا. فالرسالة كانت متنفسا للجميع ليبوح بمكنوناته ويتبادل الأفكار مع أكبر عدد ممكن من الناس.

يعرفها جبور عبد النور بقوله : الرسالة" ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة ، وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدى سطورا محدودة ،وينطلق فيها الكاتب عادة على سجيته ، بلا تصنع أو تأنق .وقد يتوخى حينا البلاغة والغوص على المعاني الدقيقة فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع[1]".

فبذلك كانت الرسائل ولازالت الوسيط الأمين لتوصيل المشاعر والأحاسيس وكذا قضاء الحوائج والتواصل بين الناس فاستعملها علّية القوم كما استعملها العامة فتبنى على المرسل والمرسل إليه والخطاب المرسل فاختلفت اشكالها وألوانها، كما تميزت الأدبية منها والديوانية عن الرسائل الاخوية والعاطفية.

يقول تودوروف" لكي نتمكن من الحديث عن دلالة الرسائل عامة، وليس كسيرورة روائية فحسب، علينا في البداية أن نتخذ وجهة نظر الشخصيات، لا وجهة نظرنا كقرار للرواية، والنقاش الذي يدور بين الشخصيات حول موضوع الرسالة سيبرز مختلف مظاهر الرسالة، وكذلك صفات العملية التي يكتسي هذا الموضوع معناه أثناءها"[2]

أما كاتبتنا إيزابيل إبرهاردت فقد مرت بمراحل متعددة في حياتها القصيرة وكانت كل مرحلة منها مسيرة حياة لِما عايشته من أحداث وتعددٍ للشخصيات التي قابلتهم في مسيرتها ،فأثّرت فيهم كما أثروا فيها ، وفي الكِتاب الذي حصلنا عليه باللغة الفرنسية

[1] جبور عبد النور المعجم الأدبي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط2 1984 ص 122

[2] تزيفتيان تودوروف. الأدب والدلالة ترجمة د.محمد نديم خشفة. مركز الإنماء الحضاري حلب سوريا ط1، 1996 ص10

إيزابيل إبرهاردت ... كتابات حميمية جمعها ماري أودي لدي لاكور وجان روني هولو ،أشارا أنهما لم يحصلا على الرسائل التي كانت بين أوجان لوتور وإزابيل إبرهاردت وهو المستعمر الفرنسي الذي كان مجندا بالوادي في الصحراء الجزائرية والذي كانت تراسله في سن مبكرة ،أما مُراسلاتها فكانت غزيرة جدا خاصة إلى أخيها أوغيستين وعلي عبد الوهاب التونسي وسليمان هني الذي أصبح زوجها فيما بعد.

لذلك كانت بدايات إيزابيل إبرهاردت مع الرسائل مع أخيها أوغيستين الذي كان مجندا في الجيش الفرنسي بالجزائر. وكانت هذه الرسائل بمثابة الشعلة التي أيقظت حب الاطلاع والسفر لديها، لما كان يرويه أخيها من روعة العيش في الجزائر وتنوع مناخها وجمال عمرانها، لتتوج هذه الرسائل بزيارتها للجزائر، ونزولها بعنابة والإقامة فيها، رفقة والدتها التي اعتنقت الاسلام بها ودفنت بمدينة عنابة بمقابر المسلمين. واستمرت الكاتبة دون كلل أو ملل في كتابة الرسائل لتراسل أيضا علي عبد الوهاب التونسي وتستمر مراسلتهما مدة من الزمن في رسائل تنوعت بين الحب والاشتياق الى اللوم والعتاب إلى الشكر والثناء حسب ما يقتضي الحال.

كما كانت تراسل سليمان هني الذي أصبح زوجها فيما بعد برسائل تقطر دررا من الاشتياق والمودة والوفاء إضافة إلى مراسلتها للسلطات الإدارية في ذلك الوقت.

كما يقول تودوروف" تسافر الرسائل بين الشخصيات بطول الكتاب وعرضه، لكن قد يتضمن المظروف غالبا أكثر من إرسالية: لأن عدة رسائل أخرى ترافق الرسائل المتبادلة مباشرة بين شخص وآخر.حينا يكون هدفها إعطاء معلومة بسيطة، وحينا آخر التدليل على فعل تم حدوثه.فعلاقة هذه الإرساليات (من الدرجة الثانية) مع الرسائل العادية. مثل علاقة الاستشهاد–وهو كلام من الدرجة الثانية–مع الخطاب الذي يحتويه"[1].

[1] تزيفتيان تودوروف، الادب والدلالة، مرجع سابق، ص19

فالرسائل عند تودوروف هي انتقال بين المرسل والمرسل اليه للرسالة التي يتبادلها المتراسلان كدليل على التواصل بينهما فتكون أحيانا لإعطاء معلومة بسيطة وأحيان اخرى كاستشهاد على حدوث فعل بينهما .

تواصلت إيزابيل إبرهاردت مع أخيها أوغيستان عبر الرسائل المتبادلة فكان يصف لها يومياته في الجزائر فكانت باكورة أعمالها الادبية سنة 1895 حيث نشرت أول قصصها كانفرناليا رؤية غسقية و المجلة الباريسية الجديدة وكذا رؤية المغرب التي تصف فيها الجزائر التي لم تزرها بعد.

"لم تقنع إيزابيل بمعرفة الشرق من خلال المراسلات مع أخيها الشقيق الذي كان يعمل حينذاك في الجيش الفرنسي في الجزائر، فقد دفعها هاجس الارتحال وروح المغامرة الذي يسكن روحها التواقة إلى كل ما هو غرائبي وشاذ وروحاني، وغير مألوف في الثقافة المادية الغربية للنزول إلى الشرق، والإقامة فيه، فقد سافرت إلى الجزائر واستقرت بمدينة عنابة، وبالضبط في الجزء العربي للمدينة، حيث احتكت بالسكان المحليين، وعاشت بين ظهرانيهم واعتنقت الإسلام وتكيفت مع تقاليد المنطقة، ومارست الطقوس والعادات العربية.[1]"

فزارت الجزائر أول مرة في شهر ماي سنة 1897 وكان عمرها عشرون سنة واستقرت رفقة والدتها بالحي العربي في مدينة عنابة حيث اعتنقت الإسلام رفقة أمها واكتشفته لأول مرة ثم أصيبت أمها بمرض مفاجئ مما اضطر الزوج ثروفيموفسكي إلى الالتحاق بهما حيث وجد إيزابيل في وضعية نفسية متدهورة جدا وقد أصيبت بحالة من الجنون والصرع نتيجة لعدم مقدرتها على الوقوف بجوار امها في محنتها الصحية وفي 28 نوفمبر من نفس السنة توفيت والدتها عن عمر يناهز 59 سنة فسافرت بعذلك الى تونس وفي العام الموالي بدأت تفكر في كتابة روايتها الاولى.

[1] أ.عبد الرحمن وغليسي جامعة بومرداس مقال بعنوان فلسفة التيه واللعبة الاستعمارية عند إيزابيل إبرهاردت في " ياسمينة " مجلة اللغة والادب جامعة الجزائر 2 العدد:27 مارس 2016 ص259.

تذكرت إيزابيل مرة أمها عند إقامتها بالوادي في ديسمبر 1901 فقالت:" ينزل المطر ....الجو بارد ومظلم والكثيب اتخذ مظهر الحداد في الأيام الرديئة .....أوائل ديسمبر تشبه كثيرا أيام 1897 المشؤومة ... نفس الطقس، نفس الريح العنيفة التي تلفح الوجه بقوة .... وقتها، كان أفقي هو شساعة البحر الأبيض المتوسط الرمادي الهائج، الذي ترتطم أمواجه بصخور ال"ليون" السوداء في ضجيج كارثي .....وفي داخل نفسي التي ما تزال صغيرة جدّا حينها، ورغم الحداد الحديث والقاسي، بقي حب الحياة موجودا، كامنا في أعماقي ، قويا[1].

كما ركزنا في هذا الفصل على مراسلاتها مع علي عبد الوهاب التونسي الذي كانت تراسله من جنيف بسويسرا ،حتى أن العلاقة بينها وبينه لم تكن دائما طبيعية بل كانت متوترة في معظمها بسبب لبرالية طبع إيزابيل إبرهاردت وتربيتها الأوروبية حتى أن أهل علي عبد الوهاب ضاقوا بها ذرعا وطردوها من تونس ( عائلة عبد الوهاب عريقة يمتد أصلها إلى الأندلس ثم الجزائر وهم كانوا دائما في خدمة الملوك،وأجداده ضباط كبار عند باي تونس حتى أن أحدهم وصل مرتبة"باش حامبة" أي وزير أول).

دامت العلاقة بين إيزابيل وعبد الوهاب من 22 جوان 1887 إلى جوان 1899 قبل أن تنتقل إلى الوادي وتبدأ فترة جديدة من حياتها.

تعتبر هذه الفترة من أصعب المراحل التي عاشتها إيزابيل ابرهاردت على اعتبار أنها رحلة خبأت لها الكثير من المفاجآت المؤلمة التي أوصلتها إلى حافة الجنون وهي تفقد أمها ببلد غريب عنها ،كما شهدت هذه المرحلة شبه انعدام لإبداعات ابرهارت ما عدا مشروع روايتها "راحيل" وما وجدناه من مراسلاتها مع علي عبد الوهاب التونسي وهو أحد أبناء الاسر الثرية بتونس ينتمي إلى البايات ، حيث كان يراسلها ويقدم لها العون.

والملاحظ في هذه المرحلة التي دامت أقل من عامين( 22 شهرا)من ماي 1897 إلى وصولها لجنيف في 14 مارس 1899 ولقد تميزت هذه الفترة باكتشافها للجزائر

[1] حدادها على أمها التي ماتت في 1897 عودة العاشق المنفي ص28

لأول مرة وإقامتها بمدينة عنابة شرقي الجزائر العاصمة على الحدود التونسية الجزائرية كما اعتنقت الرحالة الإسلام برفقة أمها والتي تدهورت صحتها بسرعة أدت إلى وفاتها بعنابة ودفنها بمقابر المسلمين،كما شهدت هذه المرحلة تواصل ابرهاردت مع علي عبد الوهاب التونسي وزيارتها إلى تونس للقائه وتمضية بعض ا لليالي برفقته كما صرحت في إحدى رسائلها والغريب أنها كانت تناديه بأخي مما يوحي بلوثة من الانفصام لديها مع اختلاط العلاقات لديها بين الحميمية والأخوية التي تفصلها حواجز عدة لنميز بينهما .!

فكانت هذه الرسائل تقريبا هي التوثيق الوحيد لهذه المرحلة والتي ستكون بادرة الاكتشاف وبداية العشق الذي لازم الرحالة لأي شيء تلمحه عيناها مستقبلا .

وأهم ما ميز هذه الفترة من( 22 جوان 1887 إلى جوان 1899):

– اكتشاف إيزابيل إبرهاردت للجزائر ثم عنابة والإقامة بها.

– إسلامها رفقة أمها وتدهور صحة هذه الاخيرة وتدفن بقابر المسلمين بمدينة عنابة.

–اتصالها بعلي عبد الوهاب التونسي عن طريق مراسلات سابقة ولاحقة أدت لزيارتها لتونس لتكتشفها لأول مرة وتفتن بمدينتها العتيقة.

– هذه الرحلة لم تكتبها الرحالة أو تؤرخ لها، وما وجدناه في هذه الفترة لا يتعدى مراسلاتها مع على عبد الوهاب التونسي والظاهر أن علاقتهما لم تكلل بالنجاح رغم أنه كان يبدي استعداده في كل رسائله لمساعدتها رغم تمنعها في بعض الأحيان.

– رجوع الرحالة إلى سويسرا لم يوح في البداية بعودتها للجزائر وتونس على اعتبار أن رحلتها هذه كانت مليئة بالمآسي وخيبات الأمل من وفاة أمها وانتحار أخيها وموت زوج أمها ودخولها في مرحلة متقدمة من الكآبة ووصولها لحافة الجنون مما أدى بالسلطات الاستعمارية الفرنسية إلى إعطائها إجازة نقاهة إلى تونس سمحت لها برؤية صديقها علي عبد الوهاب.

– في هذه الفترة عزمت الرحالة على كتابة رواية أطلقت عليها إسم "المتشرد" التي لم تنهها أبدا.

– القدرة العجيبة للرحالة على الاختلاط بالسكان في الجزائر وعنابة وتونس بلبسها الرجالي بل وبمبيتها حتى في المقاهي بمدينة عنابة والتي لم توح للمتسكعين معها بالأنوثة التي كانت تخفيها تحت شخصيتها الذكورية هذه الجرأة التي أكسبتها حبا وغرابة ودهشة لكل من يقترب منها فهي تتغلغل داخل النسيج العمراني والسكاني وتخالط فقراء الناس بطريقة سحرية.

– مشاركة الرحالة للجزائريين في مظاهرات ضد المستعمر الفرنسي على حد قول الاستاذ أحسن دواس، الذي عجل برحيلها نحو جنيف بسويسرا في 14 مارس 1899.

وبعد هذه المرحلة من حياتها بقيت الرحالة تراسل أخاها أوغيستين فبقي هو متنفسها الوحيد للتعبير عما كان يختلج نفسها وما كان يؤرقها من الظروف الصعبة التي سوف تواجهها ،كما أصبحت إبرهاردت تراسل في مرحلة أخرى سليمان هني المجند في الجيش الفرنسي وتتطور العلاقة بينها إلى الزواج بعد ذلك.

وتتميز كتابة الرسائل عند إيزابيل إبرهاردت بطابعها الشخصي البعيد عن التنميق وانتقاء الالفاظ والمعاني وتبدأ عادة بالبسملة أو آية قرآنية أو مقولة أو عبارة ترحيب على اختلاف المرسل إليه من أخيها أوغستين أو زوجها سليمان هني ثم تكتب التاريخ والمكان حتى يعلَم المُستلم في أي وقتٍ تمَّ إرسال هذه الرِّسالة ، وكم من الوقت مضى عليها لأنه أحياناً يكون في الرسالة الشَّخصية خبراً مهمّاً يعتمد على تاريخ كتابة هذه الرِّسالة. كما تخاطب ابرهارت المُرسَل إليه (ويحة زيزو المقصود سليمان هني ):أو كقولها (صديقي العزيز). (أخي العزيز). السَّلام والتَّحية: وهذا من المتعارف عليه حتى في أي لقاء. المُقدِّمة: وتذكر فيها الكاتبة للرسالة عن مضمون الرِّسالة بشكلٍ عام، أو بشكلٍ مختصر. ثم المضمون (الموضوع): هنا يمكن للكاتبة أن تستطرد فيه كيفما شاءت مع وضوح الخط، والتعابير المفهومة للقارئ، حتى لا يُفهم شيء في غير محلِّه. الخاتمة: وتكتب فيها المُرسِلة أجمل التَّمنِّيات، وأن تصل الرسالة، وأن تحصل على ردٍّ في أسرع وقت. الاسم والتَّوقيع والعنوان: وهذا يكون ضرورياً حتى يستطيع المستلم للرسالة أن يردَّ على نفس العنوان الذي كتبته المرسِلة.

إذن كانت إيزابيل إبرهاردت تكتب الرسائل الشخصية إما لأخيها أوغيستين أو زوجها سليمان هني وحتى الرسائل العاطفية التي كانت ترسلها لمحمد عبد الوهاب التونسي في شكلها الكلاسيكي المعروف من مقدمة وكتابة التاريخ والمكان إلى المضمون والخاتمة مع التوقيع والعنوان ، فهي بعيدة عن الرسائل الأدبية التي شهدناها في الادب الغربي مثل رسائل نابوليون إلى جوزيفين أو رسائل بتهوفن إلى محبوبته الخالدة وفي الادب العربي بين مي زيادة وجبران خليل جبران وبين غسان كنفاني وغادة السمان.

فكانت رسائلها وليدة اللحظة الراهنة والظروف الاجتماعية التي كانت تعيشها والتي أفقدتها الكثير من المال وأثر على صحتها من خلال ترحلها الدائم.

تخلل هذه الرسائل بعض الانقطاع والتذبذب بسبب بعد المسافة والوسائل المحدودة في ذلك الوقت فلم نلمس من خلال كل الرسائل التي اطلعنا عليها ما عهدناه في الرسائل الأدبية ،فكانت رسائلها إما عتاب أو لوم أو تعبير عن سخط أو غضب من خلال رسائلها لعبد الوهاب التونسي وفي مرحلة أخرى استجداء وتوسل لأخيها أوغيستين لينقذها من الوضع المزري الذي كانت تعيشه في الصحراء ثم التأكد من عدم مقدرة أخيها لنجدتها من خلال رسالة مصارحة بعثها ليشكو هو الآخر حاله المزري مع زوجته وابنته في مرسيليا، ثم رسائلها لزوجها سليمان هني عند انتقاله الدائم للعمل كمجند في الجيش الفرنسي تظهر له من خلالها مشاعر المحبة والشوق والحنين للقاء

كما كانت تبعث برسائل لمقر الجريدة التي كانت تعمل لصالحها بباريس إما للاستفسار عن موضوع لم ينشر أو توضيح أو طمأنتهم على حالها وهي بعيدة ، وهي تبعث أيضا للإدارة الفرنسية برسائل كلما استدعى الأمر لذلك.

فنسجل في رسائلها صدقية وعفوية نابعة من الواقع المعاش فلا تحتاج في وصفها لحالتها النفسية أو الصحية الجسدية ما تخفيه فهي تخرج عصارة عواطفها وجملة أحاسيسها كما وردت تلك اللحظة فهي مرآتها التي تكشف حالتها وطيب أخلاقها وحسن نيتها مع غيرها فكانت هاته الرسائل خزانة أسرارها والشاهد الابدي عليها لأنها خطَّتها بأناملها ما أملته عليها جوارحها وأفكارها.

وتندرج رسائل إيزابيل إبرهاردت ضمن الرسائل الإخوانية (الشخصية) في معظمها

وهي التي تُستعمل في مناسبات مختلفة عامة وخاصة يتبادلها الإخوان والأصدقاء فيما بينهم فيتبادلونها للتهنئة بالمناسبات المختلفة في الأعياد أو النجاح أو العودة من الحج كما يتبادلونها للتعزية أو الدعوة أو إظهار الشوق والحنين ونحو ذلك من مناسبات اجتماعية أو أحوال نفسية مختلفة.

"وهذه كان يُرسلها الكاتب إلى بعض أصدقائه أوخلصائه أو من يريد أن يخطب مودته وكانت هذه الرسائل مما يتفنن فيها كبار الكتاب والأدباء يبثون فيها عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة.

وقد إعترف النقاد بقيمة هذه الرسائل،لاشتراك الكافة في الحاجة إليها ،والكاتب إذا كان ماهرا تسهَّل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها رسوم لا تتغير .

وقد أوصل صاحب كتاب صبح الأعشى أنواع الرسائل الإخوانية إلى سبعة عشر نوعا ،هي: التهاني والتعازي ،والاستزارة ، وإختطاب المودة ، وخطبة النساء، والاستعطاف، والاعتذار ، والشكوى وإستماحة الحوائج ، والشكر ، والعتاب ، والسؤال عن حال المريض، والأخبار ، والمداعبة .وبعض هذه الأنواع يندرج تحت أضرب كثيرة"[1].

ولم تشذ الرحالة عن المعهود في كتابة الرسائل التي تبدأ بتخصيص نوعية الرسالة .

ثم اعتماد التاريخ: سواء كُتبت الرسالة رَسميّة أو غير رسميّة فعلينا كتابة التّاريخ على الرّسالة.

ثم التحية: و تعتبر من المسائل الهامّة في الرسالة سواء كانت الرّسالة رسميّة أو غير رسميّة، والتحيّة تعتمد غالباً على الجهة المتلقية للرسالة لذلك علينا إختيار عبارات ملائمة لذلك، وهذا ما اعتمدته ابرهاردت فمثلاً في الرّسائل الرسميّة نقوم بكتابة السيّد/ثم نذكر اسم المخاطب أو السادة ... تحية طيّبة وبعد، أما في الرّسائل الغير رسميّة ممكن أن تكون التحيّة أكثر شموليّة وتبدأ بالسّلام عليكم أو مرحبا أو عزيزي أو أي عبارة يستحسنها المتلقي.

[1] عبد العزيز عتيق "في النقد الأدبي" بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر ط2 1972ص 223.

ثم الولوج إلى الموضوع ويجب أن تكون الرّسالة نابعة من الهدف الذي نريد إيصاله عبر هذه الرسالة، فلا داعي لوضع معلومات وعبارات بعيدة عن الموضوع الأساسي أو الهدف من الرسالة.

ثم التّدقيق، ويخص الأخطاء الإملائيّة أو الصياغة الخاطئة وتعد من الأشياء التي تنتزع قيمة الرسالة لذلك من المستحسن أن نقوم بمراجعة الرّسالة وتدقيقها وتجنّب أي أخطاء إملائيّة أثناء كتابة الرسالة.

ثم الخاتمة ويجب أن يتم وضع خاتمة في نهاية أي رسالة، ولكاتب الرّسالة الحريّة في إختيار ما يناسبه من الكلمات في نهاية الرّسالة ولكن يجب أن يراعي أنّه عند كتابة الرّسالة الرسميّة يجب أن تكون الخاتمة قصيرة ومختصرة، أما في الرّسائل شبه الرسميّة فمن الأفضل أن تعكس قوة علاقتك مع متلقّي الرّسالة وأن تضع خاتمة تُشعر مُستلم الرّسالة على مدى ترابط العلاقة بينكما.

والملاحظ أن الرحالة كانت تكتب هذه الرسائل بعفوية تامة وبسلاسة وتواتر للمعلومات والأفكار على حسب الموقف دون أن ننسى أن المراسلة كانت ميزة العصر ووسيلة التواصل الاكثر استعمالا في ذلك الوقت.

وإذا كانت السير الذاتية والرحلات أكثر فروع الادب متعة وطرافة فالرسائل الشخصية تحتل نفس المكانة بكونها مرآة لقلب صادق تعكس ما يدور في خلد كاتبها وما تخفيه في قرارة نفسه فهي تسجل الحياة العقلية لكاتبها وتعكس أخلاقه عليها والأسباب الحقيقية لكتابتها فقد تبدو الملاحظات التافهة في الرسالة في حينها فتكون بعد زمن عظيمة كما تؤرخ لزمانها ولصاحبها فالرسالة تقص قصتها بنفسها وما يمكننا من تحليله حولها هي قيمتها الاجتماعية والثقافية، ومن خلال قراءتنا لرسائل إيزابيل إبرهاردت نكتشف أنها مرت بثلاث مراحل اختلفت باختلاف المرسل إليه ، كما لا ننسى أن إبرهاردت قد بدأت كتابة الرسائل مبكرا من خلال مراسلتها للمجند الفرنسي بالجزائر أوجان لوتور وهي غير متوفرة ،وما توفر لدينا هو ما جمعه الصحفيان ماري اوديل دي لاكور وجان هولو من مراسلاتها مع أخيها أوغيستين وعلي عبد الوهاب التونسي وزوجها سليمان هني .

فمراسلاتها لمحمد عبد الوهاب التونسي كانت المرحلة الأولى وشكلت مزيجا من العتاب والفرح والغضب أحيانا فكانت المراسلات بينهما شبه منتظمة وتوحي بعلاقة حميمية تضمرها الرحالة وتفضل دائما مناداته بأخي ،فهي تستشيره في الكثير من الأمور الشخصية وتكن له مكانة خاصة تظهر من خلال رسائلها إليه ،كما تظهر الحياة الاجتماعية الارستقراطية التي كان يحياها علي عبد الوهاب التونسي وتظهر مراسلاتها المكانة الاجتماعية له كما تظهر بعض رسائلها أن هذا الأخير أصبح يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الرحالة والتي أكدت له أكثر من مرة أن إعترافاتها له في الأيام التي قضتها معه في تونس كانت لحالة نفسية عابرة تصر على أن لا يعاملها بعين الشفقة وأن شخصيتها غير تلك الايام التي عرفها فيها.

أما مراسلاتها لأخيها أوغيستان فقد شكلت المرحلة الثانية والتي شابها الكثيرة من التوتر والغضب والعتاب المستمر له رغم معرفتها بظروفه السيئة خاصة عند إقامتها بالوادي

للمرة الثانية، حتى قطعت الامل تماما من مساعدتها من الأوضاع الصعبة التي كانت تحياها بإقامتها بالجنوب الجزائري .

ومراسلتها لسليمان هني –هي المرحلة الأخيرة– الذي أصبح زوجها فيما بعد اختلفت عن سابقيها فقد كانت مزيجا من العواطف والدعاء بالخير والتمني باللقاء القريب في سبيل تحقيق الامنيات المستقبلية التي رسماها لحياتهما.

فتتجلى القيمة الثقافية في كونها توثيق لمرحلة بداية القرن العشرين الذي أحدث ثورة في جميع مناحي الحياة وكانت الرسائل الورقية عرفا سائدا في المجتمعات الاوربية وحذت البلدان المستعمرة حذوها فأصبحت ديدن الناس ووسيلة للتواصل والتعارف وقضاء المصالح المختلفة ،كما تدل الرسائل على علو كعب صاحبها من خلال أسلوبه المتفرد وانتقاء الالفاظ وسهولة ايصال الافكار في اوجز العبارات ،وغدت تاريخا لحقب مختلفة من الزمن.

أما القيمة الاجتماعية للرسائل فيدل كاتب الرسالة ومرسلها عن مكانته في المجتمع فالتعليم لم يكن متاحا للجميع والقلة من تستطيع الكتابة او المراسلة ،والمتلقي الدائم لهذه الرسائل يعتبر عند المجتمع مثقفا له مكانته وهيبته،دون أن ننسى أنها كانت وسيلة الاتصال المضمونة الوصول إلى متلقيها بكل المعاني والعواطف والعبارات التي كتبت بها.

المبحث الثاني ـالقصص والخواطر

**المطلب الأول ـ القصص**

لقد جُمعت القصص التي كتبتها إبرهاردت في الجزء الثاني من كتاب "كتابات على الرمل" تحت عنوان قصص وروايات وقد خُصص للكتابات القصصية وهو عرض وتعليق ماري أوديل دولاكور وجون ريني ايلو وكتبت مقدمتها إدموند شارل رو وكانت حوالي ستين قصة منها" المرآة، رؤيا المغرب، انفرناليا، الجحيمية، النقيب، المغربي، اليد، تحت النير، النقيب، تسعديت، ياسمينة، نحيب اللوز...وغيرها.

فكانت القصص القصيرة هي ما تتبعه إبرهاردت في كتاباتها هذه حيث تُعرّف القصة في معاجم اللغة بالحديث أو الخبر المسرود أو الجملة من الكلام، وهي أيضًا حكاية نثرية تُستَمدّ من الخيال أو الواقع أو كليهما، أما اصطلاحًا فقد عرفها كثير من النقاد منهم أولتبيرند "بأنها: سرد نثري خيالي، ولكنه في العادة مقبول عقليًا، يجسد تغييرات في علائق بشرية، والمؤلّف يستمد مادته من تجربته في الحياة ومن ملاحظته لها، غير أنه ينتخب هذه المادة ويصوغها على وفق مقاصده التي تتضمن التسلية وكشف التجربة البشرية"[1]، أمّا إبراهيم خليل فيعرف القصة "بأنّها نوع من السرد اللغوي يصور قطاعًا من الحياة، ويقتصر على حادثة أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخوصه ومقوماته، وتصوّر موقفًا تامًا من حيث التحليل والمعالجة والأثر الذي يتركه في المتلقي"[2].و قد صاغ محمد يوسف نجم تعريف القصة القصيرة بأنها: "تتناول قطاعًا أو شريحةً أو موقفًا من الحياة، يبرز فيها الكاتب شخصية رئيسة وكل ما يتصل بها من سمات وملامح"[3]، وقال سامي يوسف أبو زيد بأنَّ القصة فن أدبي غربي انتقل إلينا في عصر النهضة الأدبيّة الحديثة، ضمن فنون أدبية أخرى كالمقالة والرواية والمسرحية، وقد ترسّخت على أيدي كتاب أبرزهم: بلزاك، وموباسان في فرنسا،

[1] فنون النثر العربي الحديث 1 مجموعة من الاساتذة جامعة القدس المفتوحة عمان الاردن 2007 ص 9

[2] خليل، ابراهيم .مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث .دار المسيرة للنشر والتوزيع, 2003 ص49

[3] محمد يوسف نجم ، فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر 1955 ص9

وإدغار ألن بو في أمريكا، وأنطوان تشيخوف في روسيا. والحكاية هي: قالب أدبي له مغزى خلقي وتعليمي، تنحو منحى الرمز في معناه اللغوي العام، ومعناه أن يعرض الكاتب شخصيات وحوادث على حين يريد حوادث وشخصيات أخرى عن طريق المقابلة أو المناظرة.

كما يعرفها فؤاد قنديل "القصة فن أدبي نثري يتناول بالسرد حدثا وقع أو يمكن أن يقع ، والقصة بهذا التعريف أبدعها آلاف الكتاب في كل زمان ومكان منذ التجارب الرائدة على أيدي المصريين القدماء[1]".

وقد نُشرت معظمها في حياتها بالصحافة على شكل حلقات بجريدتي الأخبار والبرقية الجزائرية.

والقارئ لهذه القصص يميز براعة الكاتبة في السرد والوصف والتركيز على ذكر دقائق الأمور وهوامش الأحداث فتخال نفسك تعيش في كنهها وتتجول داخل المباني والغرف المظلمة متحسسا مشاعر السارد متعاطفا مع ضحايا قصصها، وقد كانت هذه القصص شاهدا على زياراتها لمختلف مناطق الجزائر من الوادي إلى باتنة إلى بوسعادة إلى العين الصفراء، والملاحظ أن قصصها كانت مستمدة من بيئة هذه المناطق وشخوصها فكانت قصة اليد شاهدا على ممارسات السحر في منطقة سوف آن ذاك ووجود الصبايحي وذكر فرسها قد توحي بأنها وقائع حقيقية ،أما قصة " النقيب " التي بطلها طبيب شابٌّ رمت به الأقدار من وراء البحار إلى الوادي مُجنّدا في القوات الفرنسية لأداء الخدمة العسكرية، تَحُسّ وكأنه قريبٌ إليك لِما يحمله من براءة وطيبة. لم يندمج مع زملائه العسكريين، يقتله الملل وبقدْر ما كان يتحاشاهم وكان يتعاطف مع الأهالي المرضى، ثم مع الأهالي خارج الثكنة لتربطه علاقة عاطفية مع شابّة أرملة.

[1] فؤاد قنديل– فن كتابة القصة– الهيئةالعامة لقصور الثقافة مصر يونيو 2002 ص 30

كما شكلت قصة ياسمينة التي دارت أحداثها في مدينة باتنة من بين أشهر قصصها لما أثارته من جدل وتصوير ساذج وفاضح للفتاة الجزائرية من مهد الثورة الاوراس الاشم وهي تصورها بثوب الشهوانية التي تفضي بها لتسليم جسدها رخيصة لجندي فرنسي استباحها لمجرد نطقه بالشهادتين زورا وبهتانا.

لقد افتتنت إيزابيل إبرهاردت بالبيئة الجزائرية افتتانا شديدا، وأحبتها حبا جما. ولاسيما البيئة والمدن الصحراوية، فنجد أن ذلك الحب والوجد الذي كانت تكنه لها قد انعكس انعكاسا واضحا في تصويرها لها، إذ نجدها تصور تلك المدن والأماكن التي شكلت تلك البيئة الجزائرية وخصوصا الصحراوية منها، تصويرا شاعريا فتقف على أدق تفاصيلها، التي بالرغم من قساوتها وصعوبتها المعروفة، إلا أنها تصبها في قالب وصفي جميل وأخاذ معتمدة في ذلك على جميل العبارات والمفردات التي تنتقيها بعناية تامة. فنجدها مثلا تصف منظرا ليليا، من ليالي مدينة وادي سوف، تلك المدينة الجزائرية الصحراوية الواقعة جنوب ، فتقول في قصة " اليد ":" كان الوقت ليلا، بشمال مدينة الوادي على طريق البهيمة،... والصمت يخيم على كل المكان.آه من الليالي القمرية على صحراء الرمال، ليال وهل تضاهيها ليال روعة وسحرا وغموضا؟

ونجدها بنفس الاحساس وسحر الكلمات نفسه القائم على رص الكلمات في معادلة أدبية يقل نظيرها، تصور في قصتها؛ " نحيب اللوز " شكل مدينة صحراوية أخرى هي مدينة بوسعادة، فتقول: ...تنام بوسعادة، الملكة الضاربة متسربلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية، لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية. وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح .

وفيما يلي نورد نموذج لقصة من قصصها واعتمادها كمدونة لاستخراج خصائص كتابتها لهذا الفن وما النهج الذي سلكته في كتابتها؟

## قصة الـــــيـــــد

من بين الذكريات القديمة التي تعود إلى أربعة سنين، عن" سوف" الفظ والبرّاق، تلك الأرض المتعصبة والبهية التي أحببتها والتي كادت أن تحتفظ بي إلى الأبد في إحدى مقابرها التي لا سياج لها ولا حزن.

كان الوقت ليلا، وكنّا شمالي الوادي على طريق "البهيمة" عائدين، أنا وأحد الصبايحية، من زيارة لإحدى الزوايا البعيدة وكنّا نسير في صمت.

آه....تلك الليالي المقمرة على صحراء الرمل، تلك الليالي الفريدة بهاء وسحرا.

فوضى الكثبان، القبور، ظل مأذنة سيدي سالم الكبيرة البيضاء التي تعلو المدينة، الكل يختلط، يمتزج، يأخذ أشكالا بخارية وهمية. وميض وردي وأخضر وأزرق، نور فضي ينساب فوق الصحراء التي تسكنها الأشباح.

لا حدود ظاهرة دقيقة للأشياء ولا شكل جلي في لمعان الرمل الهائل . أصبحت الكثبان البعيدة كأنها بخار متراكم في الأفق. تلاشت الكثبان القريبة في الشفافية اللامتناهية التي فوقها.

كنّا نمر في درب ضيق يشرف على واد صغير رمادي، منثور بالحجارة : إنها جبانة سيدي عبدالله. تسير أحصنتنا المنهكة في صمت على الرمل الجاف المتحرك. فجأة، لمحنا شبحا أسود ينزل على السفح الآخر للوادي ويتجه نحو المقبرة. كانت امرأة وكانت ترتدي ملحفة" السوفيات" الداكنة اللون من القماش الهلليني. جعلتنا المفاجأة والحيرة نتوقف لنراقبها.

تنتصب جريدتان نديتان على ربوة صغيرة من الرمل، تدلاّن على قبر جديد. جَثت المرأة التي ينير القمر الآن وجهها المجعّد على ركبتيها بعد أن نزعت الجريدتين. ثم إنها أخذت تحفر في الرمل بكلتا يديها، بسرعة شديدة كحيوانات الصحراء الحفارة. كانت تقوم بهذا العمل بكثير من الإصرار.

انفتحت الحفرة المظلمة من جديد على الموت والتعفن المجهولين التي كانت تخبئهما. أخيرا، انحنت المرأة على القبر الفاغر. وحين قامت، كانت تمسك بإحدى يدي الميت، مقطوعة من المعصم، يد يابسة داكنة.

بسرعة، ردمت العجوز الحفرة وغرست من جديد الجريدتين الخضراوين. ثم إنها رجعت إلى المدينة وهي تخبئ اليد تحت لحافها.

أخذ الصبايحي بندقيته وأسندها إلى كتفه في وضعية الرمي وهو يلهث ووجهه شاحب من شدّة الغضب. إلا أنني أوقفته.

- لماذا؟ هل يعنينا هذا ؟ ربّي وحده هو الذي يحكم !....

– آه... يا إلهي يصيح الصبايحي مرعوبا ، أتركني أقتل عدوة الله وعدوة مخلوقاته .

قل لي قبل ذلك ، ما يمكنها أن تفعل بهذه اليد؟

– آه ....ألا تعلم؟ إنها ساحرة لعينة. سوف تعجن خبزا بيد الميت. ثم إنها ستقدمه لأحد التعساء ليأكله. ومن أكل من خبز معجون بيد ميت في ليلة الجمعة، عند اكتمال القمر، جفّ قلبه ومات موتا بطيئا. إنه يصبح لا يبالي بشيء. انكماش مخيف يعتري روحه ويموت. نطلب من الله أن يحمينا من هذه الأذية[1] .

ومن خلال هذه القصة وغيرها من القصص التي كتبتها الرحالة فالملاحظ هو الاعتماد على الوقائع الحقيقية والمشاهدات اليومية من خلال ذكر الاماكن الحقيقية في القصة وحتى اعتماد الشخوص ومع ما يعتريها من ابداع فني فهي تصور طريق عودتها مع أحد الصبايحية الذي كان يحرسها ،وهي تمر بمقبرة سيدي عبدالله لمحت تصرفا مريبا لامرأة تسير بالمقبرة ليلا ثم تجثو على ركبتيها لتنبش قبرا جديدا أشارت إليه بالجريدتين النديتين وهذا صحيح وهي علامة على جدة القبر

[1] عبد القادر ميهي عودة العاشق المنفي مرجع سابق ص134-135

ثم تستخرج يد الميت وتقطعها من المعصم وتَجري بها بعيدا تحت لحافها ،فكانت تسأل الصبايحي الذي استشاط غضبا من هذا الفعل الشنيع وأفهمها أنها لممارسة طقوس السحر .

فتمتاز أغلب نصوص إيزابيل إيبرهاردت القصصية بالوصف الدقيق والميل إلى الكتابة الصحافية فكل قصصها نشرت في جريدتي الاخبار والبرقية الجزائرية والقصص الصحفية هي النافذة الصحفية التي تهتم أكثر الأمر بالتجربة الإنسانية وتركز بالأساس على التفاصيل والوصف وما وراء الخبر بدلًا من نص الخبر الجامد؛ بينما تكون الأخبار العادية عملية عقلية تعتمد على الخبر نفسه، تلعب اللغة وأسلوب السرد دورًا أكثر محورية عندما يتعلق الأمر بالقصة الصحفية. يتم التركيز هنا على قضية أو حدث أو فرد، على أن يظل الشرط الأساسي هو إتاحة الفرصة للقارئ لفهم مختلف الجوانب المثيرة المتعلقة بموضوع القصة. تجذب كتابة القصص الصحفية الكثير من العاملين في مجال الصحافة لكونها عملية ممتعة وإبداعية أكثر من غيرها، إلا أن ذلك لا ينفي أنها تحتاج إلى عمل مضني وأن تضع خطة كتابة فعّالة تساعدك على إنتاج نص مميز وجذاب.

وتختلف آليات كتابة القصة الصحفية الإنسانية عن كيفية إنتاج بقية الفنون الصحفية المعتادة، فالقصة الصحفية بمنزلة صورة يرسمها القلم لأبعاد ما وراء الحدث، فتنقل عقل القارئ إلى حيث وقع الخبر من خلال اعتمادها على مهارات كاتبها الأدائية أو التعبيرية وحواسّه الخلقية.

فيقول الأستاذ. منير سليم مسعود أبو راس ثمة عناصر لابد من توفرها في القصة  الصحفية حتى تكتمل حلقاتها ويمتد تأثيرها إلى القراء وتحقق هدفها ويمكن إجمال هذه العناصر في :

1/ المعاينة والمعايشة للحدث أو القضية وعدم الاعتماد على مجرد السماع تحريا للدقة وتجسيدا للمصداقية وتقليلاً للأخطاء.

2/ الحيوية والديناميكية التي تتوفر من خلال تقديم الوصف المرتبط بالزمان والمكان والأشخاص والأحداث المختلفة مما يضفي جواً من التفاعل مع القصة ويزيل عنها الجمود والرتابة .

3/ العنصر الإنساني والاجتماعي : وهو العنصر الذي يجذب القارئ أكثر ويجعله أكثر قربا من موضوع القصة ويشترك فيها وتثير اهتماماته وعواطفه

4/ الانطباعات لكاتب القصة الصحفية الحق في تسجيل انطباعاته الخاصة حول موضوعها وإبراز رأيه ولكن يفضل أن يتم ذلك بصورة وطرق غير مباشرة حتى لا يرفضها القارئ ويشعر بأنها مفروضة عليه .

5/ الشمولية أو دوائر القصة , فلكل قصة صحفية عدة دوائر ترتبط بها من قريب أو بعيد وهنا تظهر مقدرة الكاتب على الربط والاستنتاج فيما بينها وصولا إلى موضوع متكامل الأجزاء والأركان

6/ المعلوماتية والاعتماد على الحقائق لا مجرد الوصف والإنشاء والتعبيرات الجمالية والأدبية الخالصة حتى لا تتحول إلى قصة أدبية أو خاطرة , وتتمثل المعلوماتية في المصادر الحية والمصادر غير الحية [1].

وتختلف القصص الصحفية من موضوع إلى آخر فنجد:

1- القصة الإنسانية: والتي تركز البعد الإنساني للقضية ومدى تأثيرها على البشر المتضررين منها حيث يمكنك أن تركز على تأثير هذه القضية على شخص واحد أو مجموعة من الأفراد.

[1] أ. منير سليم مسعود أبو راس أستاذ بالجامعة الاسلامية بغزة تخصص صحافة وإعلام
رابط التحميل http://site.iugaza.edu.ps/mras/cv 2021-3-16 الساعة الخامسة مساءا .

2- القصة الشخصية: تركز القصة الصحفية من هذا النوع على شخصية فرد معين أو أسلوب حياته، على أن يكون الهدف هو فتح نافذة واسعة للقارئ يقدر من خلالها على رؤية ما يحدث في حياة الطرف موضوع القصة الصحفية. عادة ما تكون هذه القصص الصحفية حول المشاهير والرموز العامة، لكنها قد تأخذ طابعًا مغايرًا إذا اخترت شخصية مهمشة أو مجهولة تحاول من خلال قصتك أن تسلط الضوء على شخصه وحياته وما الذي يفرض ضرورة الانتباه لهذا الشخص وجوانب حياته.

3- القصص التعليمية: يمكن أن يكون الهدف من القصة الصحفية هو توجيه مجموعة من التعليمات حول كيفية القيام بشيء معين، والشكل الغالب في هذه الحالة هو أن يقوم الكاتب بمشاركة قصته الشخصية ورحلته من أجل تعلم القيام بمهمة معينة، كأن تشرح كيف تعلمت اللغة الإنجليزية أو كيفية صناعة طائرة ورقية أو قصص قصيرة للأطفال حول الحروف... أو غير ذلك.

4- القصة التاريخية: القصص التي تتباهى بالأحداث التاريخية البارزة أو ترصد التطورات التي حدثت على مر الزمن في شيء معين من أكثر الأشكال الشائعة بدورها. يكون هذا النوع مميزًا لأهمية عملية المقارنة والرصد التي تحدث بين الماضي والحاضر، وهو ما يفسر التاريخ والحاضر على حد سواء، والأهم أنه يربط القارئ بالأحداث التاريخية

5- القصص الصحفية الموسمية: تكون بعض القصص الصحفية مرتبطة بأوقات معينة من العام، مثل الكتابة عن بداية العطلة الصيفية أو أسعار الملابس مع دخول فصل الشتاء.

المطلب الثاني ـ الخواطر

الخاطرة هي فن أدبي وتعبيري عما يخطر في القلب والعقل معاً وهي نثرية أدبية تحاك كلماتها ببلاغة وتتصف بجمالها لكثرة الصور الفنية والتشبيهات والمحسنات والاستعارات والكنايات فهي إحدى الفنون النثريّة المنتشرةِ في العصر الحديث، تُصنف في الأدب بين الشّعر الحُر والقِصةِ القصيرة فهي لا تلتزمُ بوزنٍ ولا قافية، تجري الخاطرة بعفويةٍ وتبتعدُ عن الإسهاب والتفصيلات، وتُعبر عن فِكرة وإحساسٍ معين يَجول في خاطرِ كاتبها، فالخاطرة حالةٌ شعوريةٌ خاصةٌ بالكاتب في قالب أدبي بليغ .

وتسقط الخاطرة أيضا في فخ استحالة تعريفها، لتخطيها لعدة أجناس أدبية في وقت واحد فهي بين القصة القصيرة والقصيدة الغنائية و والمقال الأدبي والشعر المنثور إلا أن كتّاب الخاطرة لا عد لهم ولا حصر فكل كتابة تعبر عما يجول في خاطر صاحبها هي خاطرة وهذا هو الإشكال في حد ذاته، " ومما يشير إلى حداثة هذا النمط الكتابي في المصطلح النقدي أننا لا نجد له تعريفا ـ في المعاجم الأدبية الحديثة في حدود معرفتي ، حتى ولا في المعاجم اللغوية.وأي تعريف لهذا النوع النثري لابد أن يظل منبثقا من التعريف أوالمصطلح اللغوي ومرتبطا به، ومحكوما بدلالته، إذ الخاطر، كما ورد في لسان العرب هو" ما يخطر في القلب من تدبير أو أمر"، أو هو الهاجس كما ينقله عن بن سيده لسان العرب مادة خطر"[1].

كما تمتاز الخاطرة بكثرة المُحسّناتِ البديعية من صورٍ واستعاراتٍ وتشبيه فقد تجمع بعض خصائص الشّعر أيضًا، أيْ الموسيقى الداخلية، وقد يتفاوتُ حجمُها بين طولٍ وقِصَر؛ فهناك الخاطرة القصيرة والخاطرة المتوسطة والخاطرة الطويلة. هي أيضا تعبير عن مكنونات النفس وما يدور فيها من صراعات، حب، حزن أو حتى ضيق، ألم وسعادة .

[1] فنون النثر العربي الحديث 1 مجموعة من الاساتذة جامعة القدس المفتوحة عمان الاردن 2007 ص 227

كتبت إبرهاردت هذا النمط السردي وهي تدرك تماما أنها ليست قصصا ولا شعرا ولا روايات بل كتبته لتعبر عن تلك اللحظة المؤلمة أو الإحساس الرهيب بالوحدة والضياع أو فقدان الأمل لتسكب شحنتها تلك على أوراقها التي لم تغادرها يوما لتدون كل شاردة وواردة.

وفيما يلي نعرض أنموذجا من خاطرة كتبتها الرحالة بعنوان: **"في ا لـــزا ويــة[1]"** ونكتشف خصائصها ومميزاتها فتقول:

"اقتربنا ثانية من الواد الذي تكسو الحدائق ضفتيه، بالأخضر دائما، لا معقول تقريبا، لما به من نداوة وعذوبة. على نوع من المساحة المنبسطة جدا، بعض من البيوت من الطوب : هذه أيضا خلوة للطلبة تابعة مثل حدائقهم لزاو ية الهامل.

الهامل، اسم شاعري يعني « التائه » والذي ينطبق تماما على هذا المكان المتوحش والعظيم، التائه فعلا في واد محصور من جهة و يفتح من الجهة الأخرى نحو مجرى الماء، واد بوسعادة، على أفق فسيح أزرق.

ثم إن الزاوية تظهر لنا على المرتفع : بنايتان كبيرتان، واحدة بيضاء ناصعة، من الطراز الأوروبي والأخرى من الطوب الفاتح اللون به فتحات ضيقة نادرة. في الأسفل، مجموعة منازل من الطين ثم قر ية قبيلة الشرفة، ركام عجيب من المنازل القديمة تشبه كل تلك البنايات المشيدة من الطوب.

وفي الأسفل أيضا، بحر من الاخضرار الذي يعلوه النخيل كالظلّة الهائلة.

يرتسم كل ذلك بدقة متناهية ولطيفة على الهضبة التي تأخذ مسحة من اللون المتعذر التحديد، في هواء الجبل النقي. لهذا المكان مظهره الخاص، له وحده، والذي لا هو بالصحراء ولا هو بمنظر عادي من الهضاب العليا. ... نمت على الفور، على بساط في غرفة صغيرة من الطوب، بائسة وبسيطة جدا والتي هي مأوى سي بوبكر، في الوقت الذي غمرت المكان حركة دءوبة مرحة، من المجيء والرواح لاستقبالنا.

[1] زاوية الهامل المسيلة

عندما استيقظت، وجدت ثانية النقاشات الهادئة، السرية والمؤدبة التي تجعل الساعات الطويلة، للأيام المتشابهة دائما، تمر أينما ظلت الطيبة واللامبالاة الإسلامية نقية لم يدنسها الحراك الأوروبي الهدام.

هنا، في هذا المكان التائه، في هذه البيئة العظيمة البسيطة، يتلاشى ضجيج صراعاتنا الضارية وغير المجدية في الصمت الكبير الدائم فتصبح المسائل اليومية أحداثا عارضة فقط.

لكي تعيش بين هؤلاء الناس الكتومين الحساسين، يجب أن تلج أفكارهم وتتبناها وتطهرها بأن ترجع بها إلى أصولها القديمة... عندها، تصبح الحياة سهلة ولطيفة في هذا العالم من البرانس والعمائم، الموصد عن ملاحظة السائح مهما كان يقظا وذكيا. التكلم قليلا، والإنصات كثيرا، عدم البوح : هذه هي الطريق التي يجب إتباعها حتى تحظى بالقبول في أوساط الجنوب، وحتى تنعم بالراحة هناك. بعد أن عبرنا عدة أبهاء وباحات واسعة ومظلمة، دخلنا إلى باحة داخلية عريضة، تحيطهاجدران عالية وقديمة جدا من الطوب الداكن اللون. تنمو في وسطها شجرة تين صغيرة ستظل، بعد سنين قليلة، هذا المكان الذي يسوده صمت كبير. وجدنا في هذه الباحة ما يشبه السرير، بلاطة مصقولة موضوعة على أربع دعامات من الحجر : هنا، كان يجلس المرابو، سيدي محمد بلقسام رحمه الله"[1].

والملاحظ أن الخواطر التي كانت تكتبها الرحالة تدخل ضمن مشاهداتها اليومية والوصف البسيط دون تكلف للشخصيات والأمكنة والمواقف فلغتها مفهومة وواضحة المعاني وهي أقرب إلى الأسلوب الصحفي في تصوير المشاهدات الواقعية ونقل الأحداث كما وقعت وإضفاء نوع من الأدبية التي لا تتجاوز الخيال لتبقى محافظة على هذا النهج في العديد من أعمالها.

[1] إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر يوميات تر عبد القادر ميهي ص283- 284

فذكر الاسماء والأمكنة والأحداث في خواطرها يدخل ضمن زيارتها الواقعية لزاوية الهامل بالمسيلة مثلا ورصد الدروب والأزقة والشخوص والفضاء المكاني والزماني كذلك مع ما تخلل هذه الخواطر من الشاعرية .

كما لا ننسى الوصف الذي تعتمده فيها إضافة إلى الحالة الشعورية المعاشة إذ ذاك فتلجأ إبرهاردت إلى هذا النوع من الكتابة النثرية المفعمة بالأحاسيس والمشاعر كلما إستدعى الموقف لذلك فتجد نفسها في حالة صفاء ذهني وشعور متفرد تصقله في قالب بديع .

المبحث الثالث ـ التقارير والملاحظات

المطلب الأول ـ التقارير

تصف الرحالة فيما يشبه التقرير أو المقال الصحفي في ذكرياتها بالساحل التونسي فتقول: "الساحل التونسي هو هضبة فسيحة مرتفعة وفيرة الخصوبة بها الكثير من الينابيع والآبار وتنعم، خاصة على شاطئ البحر، بمناخ أقل حرا من باقي مناطق تونس، وهو صحي أكثر. لا يوجد رغم ذلك في الساحل سوى نهر واحد، جدول إفر يقي بائس يسمى واد زرود، ينشأ في نواحي تبسة في الجزائر، ويقطع تونس على عرضها ليرتمي في بحيرة الكلبة بالقرب من سوسة[1]".

فتعرج بعد ذلك على ذكر مجموعة من المدن التي انبهرت بجمالها وسحر طبيعتها في تقرير منظم ومرتب حسب المدن التي زارتها بشكل يجعلك تعيش التجربة مرة أخرى فتذكر الحمامات وساحلها الساحر نزولا الى مدينة القيروان التي وصفتها بالمدينة المقدسة في الفتح الاسلامي كما تحدثت عن صناعة السجاد بالمدينة ووصفت في طريقها المزارعين المنتشرين على حقول الزيتون من سوسة، المنستير، مكنين...وغيرها.

كما تحدثت في هذا التقرير عن مصائد التونة بسوسة والمنستير. هذه الهضاب التي سلبت فؤاد الرحالة من مدن وقرى جميلة ومزارعين متمسكين بأرضهم وزراعتهم. وفيما يشبه الدراسات العلمية تحاول ابرهاردت كتابة تقرير حول خصائص كل منطقة فتأتي على ذكر التين البربري وحدائقه المسيجة، ثم تستدرك سبب وجودها في تونس فتقول:

"قدمت إلى هنا، كما أزور البلاد الإسلامية، مرتدية لباس أثرياء مدينة تونس. في سوسة، لا أحد يعرف شخصيتي الحقيقية، ولا حتى الصديق الوحيد، ملازم الرماة الأهالي عبد الحليم العربي، ... ينتظرني عبد الحليم هنا، على مرفأ المحطة. – مرحبا

[1] إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر ترجمة عبد القادر ميهي ص74

سي محمود، يقول لي، تبادلنا العناق الأخوي حسب التقاليد الإسلامية...لم يشك للحظة واحدة أنني امرأة!... تناولنا معا عشاء خفيفا في قاعة الأكل المليئة بالضباط الفرنسيين .... صعدنا إلى الطابق الثالث... فرشنا بطانية وبعض المخدات على البلاط، على الطر يقة العربية واستلقينا على جانبينا. عبد الحليم ساكت بطبعه. دخنا وسبحنا في حلم عربي لطيف، قريب من الغفوة، حزين قليلا "[1].

كانت الرحالة في تونس غير متحرجة تماما من تنقلها مع الفرنسيين وفي حمايتهم، بل سيتطور الأمر في هذا التقرير إلى اعترافها بالمشاركة في جمع الضرائب على الفقراء والمزارعين بالقوة مما يثير حفيظتها في بعض الأحيان، فهي تتنقل في الأراضي التونسية المحتلة بكل حرية وبكثير من الحماية والوجاهة.

لكنها تعترف بكثير من المغالطات التي كانت تبثها فرنسا عن طريق أدبائها ومثقفيها فهي ترد بقولها:" أتيح لي، عند تنقلاتي المتواصلة في تونس أن أرى كم هي في الحقيقة جوفاء تلك الجمل الرنانة التي تلبسها السياسة وتبرر بها الأفعال المنفعية والأنانية... وبالفعل ألا نقرأ كل يوم كليشيهات على نحو: «عمل فرنسا الحضاري المنتج للسلام في إفريقيا»، «منافع الحضارة الممنوحة للأهالي في مستعمراتنا» إلى آخره...إلى آخره. من الأكيد أن كل فرنسا النزيهة ترى مهمتها على هذا النحو في البلاد المستعمرة أو المحمية وذلك نفس الشيء تماما. ولكن للأسف، ليس هذا ما يراه أغلب من بعث بهم الوطن الأم، بعيدا، حتى يكونوا أدوات العمل الخصب الذي أرسلهم من أجله. في تونس خاصة، الوصاية ما هي سوى مصطلح فضفاض يخفي استعمارا حقيقيا... زد على ذلك، ففي تونس الآن، يتم اختيار القياد أو خليفتهم من بين الشباب خريجي المدارس الفرنسية ويستعملون كوسطاء أخلاقيين بين المراقبين المدنيين، ضباط بيرو عرب والقياد[2]".

[1] المرجع السابق ص74-76

[2] نفس المرجع إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر ص76-79

ومن صور الظلم والعنصرية التي وقفت عليها الرحالة في زيارتها للساحل التونسي هي إستثناء سكان الحضر من سوسة والمنستير من الضرائب في إشارة واضحة لسياسة الاستعمار في خلق العداوة بين الاخوة في تونس والتفريق بين سكان الريف والحضر.

**المطلب الثاني ـ الملاحظات:**

كانت إبرهاردت تستعمل الملاحظات خاصة في أواخر رسائلها للتنويه أو التوضيح،أو للتذكير. فاختلفت في كتاباتها إما بالفرنسية أو بالعربية أو بالدارجة فتستعمل عبارات موجزة وواضحة في آخرها كما أن هذا التقليد قد رافق الرحالة في يومياتها أيضا فكان أسلوبها الذي يميزها عن غيرها فالقارئ لكتاباتها يلاحظ بسهولة أواخر يومياتها ورسائلها وكراريس تشردها موشحة بهذه الملاحظات.

كما كانت تستشهد في آخر كتاباتها إما بالقرآن الكريم أو بأقوال بيار لوتي التي كانت مولعة به أو فرومنتان أو تولستوي.

ملاحظات إبرهاردت كانت في كثير من الأحيان أبلغ من الرسالة نفسها أما في اليوميات فكانت تذكيرا لنفسها وللقارئ بحدث مشابه أو مخاوف قد تعتريها مستقبلا أو ذكرى مؤلمة أو سعيدة مرت بها.

**نماذج من الملاحظات**

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها بكاغلياري 01-01- 1900**

" ثم إن السؤال الأبدي والغريب والمحير يطرح نفسه مرة أخرى: أين سأكون، على أي أرض وتحت أي سماء في ساعة مماثلة بعد عام؟ ... بعيدا، دون شك، عن هذه المدينة الصغيرة [1]"

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها بالجزائر 22-07- 1900**

"أعود مرة أخرى إلى الحياة... أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم[1]"

[1] إيزابيل إبرهاردت تر عبد القادر ميهي على الرمل أثر يوميات ص 8

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها بالوادي الإثنين 09/03 /1900 الخامسة والنصف مساء**

(أنا لا أومن بالموت: هي ممر مظلم يلاقيه كل واحد منّا في لحظة مّا من حياته. ينزعج الكثير من الناس من ذلك، الذين تخيفهم الظلمة كالأطفال. أما أنا، فسبق لي أن اقتربت منها ثلاث أو أربع مرات. رأيت في الجانب الآخر ضوء صغير، لا أدري ما هو. لكنه طمأنني تماما.)

(فرومنتان/ سنة في الساحل)

نعم، هناك ضوء صغير وراء الظلمة الكبيرة[2].

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها بمرسيليا 23 جوان 1901 ، الساعة 9 مساء .**

(أنا وحيد، البيت مظلم وحزين والذي ينير حياتي بعيد عنّي.... أين أنتم، أعزائي؟) ( دوّن بقلم الرصاص وبالروسية)[3]

**مذكرات أفكار وانطباعات بدأت في المستشفى العسكري بالوادي فيفري 1901**

بسم الله الرحمان الرحيم

(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) [4]

(آه! ما أمرّ ذلك الحزن العضال، حين يتعذر عليّ أن أقاسمها ولو فكرة واحدة)

(بيار لوتي)[1]

[1] المرجع السابق ص84

[2] على الرمل أثر يوميات إيزابيل إبرهاردت تر عبد القادر ميهي ص102

[3] عودة العاشق المنفي كتابات إيزابيل إبرهاردت عن سوف تر عبد القادر ميهي ص36

[4] كتبت إيزابيل هذه الآية بالعربية في مطلع هذه اليومية .

**على هامش رسالة بعثتها من الوادي في 20 فيفري 1901**

ملاحظة: النصيحة التي أقدمها لك سأعمل بها حرفيا. أنا ذاهب إلى باتنة ولا أريد أن أسمع عن هؤلاء ثانية[2].

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها بتنس يوم 1 ديسمبر 1902 الاثنين الساعة 10 مساء**

«شيء آخر، حين نعلم أنه في مكان ما، بعيدا جدا، يوجد بشر منشغلون في تعذيب بشر

آخرين يذيقونهم شتى أنواع العذاب والإهانة، وشيء آخر، حين نحضر كل يوم وطيلة ثلاثة

أشهر، ونرى هذا العذاب وهذه الإهانة»

«تولستوي: البعث»[3]

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها ببوسعادة 28-1-1903**

"يبدو أنني لن أضطهد بعد الآن: قيل لي أنه لم يتم إبلاغهم بوصولي وكانوا في غاية اللطف

معي، حتى القائد العسكري... أناس ظل وأسرار. يبدو أن الفوضى تسود الهامل وكل شيء يجنح نحو المجهول[4]"

**ملاحظة كتبتها على هامش يومياتها ببوسعادة 31-1-1903**

"الله يعلم ما يخفى ويعلم صدق الشهادة.[5]"

---

[1] نفس المرجع ص45

[2] نفس المرجع ص116

[3] على الرمل أثر يوميات إيزابيل إبرهاردت تر عبد القادر ميهي ص309

[4] نفس المرجع ص318

[5] نفس المرجع ص328

وقد لاحظنا أن هذه الملاحظات التي كانت تكتبها الرحالة في آخر رسائلها ويومياتها توحي بأسلوب خاص تعتمده في إيصال صوتها للغير فهي لاتكتفي بالنص المكتوب بل تضيف عليه ما تعتقده الكاتبة أنه تكملة للمتن كما تحاول في كثير من ملاحظاتها التنفيس عن مشاعرها وأحاسيسها فتبوح بما لم تبح به في الرسالة أو غيرها كما تعتمد في كتابات أخرى على الاستشهاد بمقولة لغيرها كالجنرال ليوتي الذي كانت معجبة بثقافته وعلمه أو بآية من القرآن الكريم أو مثل .

وتضل مسحة الحزن تسيطر على هذه الملاحظات فتظهر نفسيتها المنكسرة الجريحة وتفكيرها وأسلوب كتابتها المتشظي ، كما تطفو مظاهر الرومنسية في ملاحظاتها من خلال مناجاتها للطبيعة .

**المبحث الرابع ـ النظرة الاستشراقية لدى إيزابيل إبرهاردت**

لقد رمى الاستعمار الفرنسي بثقله في الجزائر على جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة والعسكرية والفكرية ، فكان الاستشراق إحدى هذه السهام عن طريق الغزو الثقافي لتثبيت اقدامه والسيطرة على المستعمرة الجديدة ،وما قامت به فرنسا من تشجيع وتمويل للدراسات العربية والإسلامية أدى إلى ظهور مايسمى بالمدرسة الجزائرية وهي الانطلاقة الفعلية للدراسات الاستشراقية ، فدعمت المشروع الاستعماري في المغرب العربي وإفريقيا ، وبدأ هذا الفكر ينتشر ويستهدف الثقافة الجزائرية ويغير من ملامحها في اطار اعادة تغيير أسماء المعالم الكبرى وتحويل المساجد الى كنائس ومراقد للجنود في بعض الاحيان ،وقد عملت الكنيسة تحت حماية السلطات الفرنسية على الانتشار في المداشر والقرى والصحارى للمشاركة في ارساء معالم الرسالة الحضارية المزعومة المغلّفة بالأدوية والهدايا والكتب الفرنسية الشيّقة.

و" ضمن الحملة الفرنسية جاء عدد من المترجمين والكتاب والفنانين المهتمين بحياة الشرق والرومانتيكيين المغامرين .وعلى أثر نجاح الحملة واحتلال مدينة الجزائر انطلق كل فريق في مجال عمله"[1]

وكانت الانطلاقة من المراكز التعليمية الكبرى بالجزائر لتكون مركز اشعاع ثقافي فرنسي يُصدَّر بعد ذلك الى باقي بلدان المغرب العربي وأفريقيا فأنشأت السلطات الفرنسية مجموعة من الكراسي تُعنى بدراسة اللغة العربية والعامية وإعداد المعاجم والعمل على الترجمة لتنفيذ المشروع الاستعماري ثقافيا حيث أن "هذه الكراسي كانوا من مدرسة الجزائر. وإذا كان بعض المستشرقين في فرنسا نفسها لهم نظرة واسعة للمجتمعات الاسلامية ، فإن المستشرقين في الجزائر كانوا مرتبطين بالإدارة الفرنسية ارتباطا سياسيا ، وكانوا مدعومين من قبل لجنة ( إفريقيا الفرنسية) التي كان مقرها

[1] ابو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج 6 دار المغرب الاسلامي ط1 1998 ص10

باريس، ومن قبل زعماء الكولون أمثال يوجين إيتيان ومن الجامعات الفرنسية ، ومن اللوبي الاستعماري عموما "[1]

فكان الغزو الثقافي وطمس الهوية الوطنية للجزائريين من الاهداف الرئيسية التي جاء الاستعمار لتكريسها وتنفيذها على أرض الواقع ،فالآلة العسكرية والأمر الواقع في السيطرة على معظم القطر الجزائري لم تكن تكفي بل وجه المستعمر سهامه نحو اللغة الاصلية للسكان والثقافة والدين وكان الادباء والرحالة والمثقفون هم من ينفذون هذه السياسة الاستعمارية للسيطرة على الارض ووجدان الجزائريين فكتبوا بلغتهم الفرنسية وفروضها على السكان وحاربوا اللغة العربية وعوضوها بالعامية ويقول الاستاذ:

أحمد منور: "ويجب أن لا يغيب عن ذهني ،وأنا أتعامل مع هذه النصوص، أنني أقرأ لكتاب فرنسيين ،بمعنى أنهم ينتمون دما ،ولحما ،وشعورا ،وثقافة ، ولغة ، وحضارة ودينا ، إلى بلد المحتل ومجتمعه وثقافته وحضارته وأنني أتعامل مع أناس لا مع أنبياء ولا رسل ولا ملائكة، ولأجل ذلك لا أنتظر منهم أن يكونوا منصفين وعادلين إلى الحد الذي يجعلهم يتخلون عن مشاعرهم الذاتية ، وعن انتمائهم القومي ، ليندوا بالاستعمار ،ويقفوا في صف الجزائريين ، خاصة أن الكثير منهم كان يؤمن فعلا بالرسالة الحضارية التي كان الاستعمار الأوربي يدعي أنه جاء لنشرها في البلاد المستعمرة."[2]

ونرى ملامح المشروع الكولونيالي تظهر شيئا فشيئا في أعمال الادباء والمثقفين الفرنسيين الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد بأتباع المدرسة الجزائرانية أو الجزائرية (les Algerianistes).

فلم يندد هؤلاء بممارسات الاستعمار بل اعتبروه يحمل رسالة حضارية،فكان تيوفيل كوتيبي مثلا الذي قدم الى الجزائر سنة 1845 باحثا عن أجواء ألف ليلة وليلة في

[1] المرجع السابق ص14

[2] أحمد منور الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر دار التنوير الجزائر ط1 2013 ص6

الشرق لا يتأسف مثلا عن التحول السريع في ملامح مدينة البليدة التي يقول عنها إنها أخذت تفقد بسرعة سحرها الشرقي وطابعها المعماري الاندلسي لتتحول الى مدينة اوربية كما يتحدث مطولا عن تدشين سكة الحديد بينها وبين العاصمة الجزائر فيقول هو انجاز ماكان ليكن لولا سواعد جيشنا ثم يبشر بمستقبل مزهر لعموم افريقيا **!!؟**

كما يشيد أيضا ألفونس دودي في مذكرته "الجراد" بانجاز المستوطن الذي نزل ضيفا عليه في مزرعته وانبهر بما رآه من خضرة وثمار وأزهار فيصور المستوطن المسكين الذي استغل هذه الارض التي وجد عليها "براكة" قبيحة ويتحتم عليه احيانا ان يحمل البندقية في وجه السكان الاصليين لتأديبهم **!؟**

كما يتحدث غي ديموباسان في قصصه عن الرسالة الحضارية والتفوق العرقي الاوروبي على العربي المتسخ الغبي الذي يحمل كل انواع الغباء والرضوخ على حد قوله .

ولو اقتفينا النظرة الاستشراقية لدى الرحالة إيزابيل ابرهاردت لوجدنا تجلياتها واضحة في اهتمامها بالطبيعة العذراء في هوس لا متناه بالشمس في شروقها وغروبها وفي الضياء وانعكاساته على الطبيعة والواحات الخلابة ففي يوميات برج الترجان تقول: "عند غروب الشمس ،لاحظت أن الكثبان الشقراء اللون أخذت مسحة ذهبية فريدة ، بنصاعة غير معقولة"

وفي نفس اليوميات "بياض لا متناه في ضوء القمر، عند المحلة الأولى. جانب ينيره القمر ، ذهبي ، من جانب الظهر (ظهر العرق) بياض أزرق شفاف . لطافة ونقاوة غير معقولين للألوان."

ثم تتحدث في موقع آخر عن سحر واحات النخيل المزروعة في حفرة عميقة داخل الرمال فيما يسمى بالغوط[1] "ورماس[2]، استراحة بين الحدائق، منظر ساحر"

وفي صورة أخرى ترسمها الرحالة للرمل تقول: " نسير على الرمل الأبيض الثلجي الذي يبدو شفافا تحت ضوء القمر".

وعندما تتحدث عن النخيل فترى أنه " يبدو النخيل، تحت ضوء القمر الأزرق والأخضر كأنه اختلاط الريش الدقيق. تنتشر، بين جذوعه الجميلة المنقوشة، زراعة خضراء من البطيخ الأخضر والأحمر ومن النعناع الفواح."

وتبقى الرحالة تهيم في أجواء الكثيب ورؤية الغروب من اعالي الرمال الذهبية

"تمسي قمم الكثبان كأنها مشتعلة من الداخل بمسحات تعمق من لحظة لأخرى. ثم، حينما ينزل قرص الشمس بعيدا، يغرق كل شيء في درجات من اللون البنفسجي."

والسؤال المطروح بعد كل هذا العشق والهيام بالطبيعة ومناظر الشروق والغروب والحدائق الغناء ،أين الإنسان الذي يعيش على هاته الأرض وأين الأهالي الذين يكابدون صعوبة الحياة و يعيشون في هذه الظروف التي ساهم الاستعمار في تفشيها؟

إنها الصورة التي يريد المستشرقون رؤيتها عن الشرق هذه الطبيعة الغناء والهدوء والهروب من صخب الحضارة الى الاحلام الوردية هناك.

كما نلاحظ أن المستشرقين يركزون دائما على الملامح البدائية للبلدان المزارة فيسترسلون في الكتابة عنها ويصفون تلكم المظاهر التي تذكرهم بالبدايات الاولى للإنسان فهم يستغربون طريقة عيشهم ومأكلهم وهندامهم الرث فيرسمونه في لوحاتهم ويذكرونه في يومياتهم وقصصهم ولكنهم لا يبحثون له عن حل لانتشاله من هذه

[1] هو تجويف داخل الكثبان الرملية منخفض في الارض يصل الى عشرات الامتار للوصول الى الماء ثم تزرع النخيل فيه عد الى كتاب غراسة النخيل في سوف جاستون كوفي 1900-1901

[2] احدى بلديات ولاية الوادي مازالت تحافظ على طابعها الزراعي لحد الآن.

البدائية بل يريدون أن يرونه دائما على هاته الصورة التي تستفز خيالهم وتطلق قرائحهم وتكون مادة لقصصهم؟؟!

كما يتحدث المستشرقون عموما ورحالتنا ابرهاردت عن هذه البدائية في العيش وسذاجة الاهالي في تعاملهم مع الغريب فهم لا يسألونه من أين أتيت ولم قدمت ، فهمومهم

اليومية تغنيهم عن السؤال ، كما تحكي الرحالة عن الطقوس الغريبة الي شاهدتها في الجزائر خاصة بعيدا عن العواصم من مظاهر السحر والشعوذة والقصص الغريبة من خطف النساء وغيرها..

كما تذكر الحياة المريرة التي يعيشها السكان من انعدام للنظافة والروائح الكريهة المنبعثة من أجسامهم النحيلة واللباس الخشن الذي يجرح بشرتهم .

أما إذا ذكرت المرأة عند المستشرقين عامة وعند ابرهاردت خاصة فهي الشهوانية التي تضع المساحيق البراقة التي لاتتلائم مع اللباس المزركش والخشن فهي من ذوات العيون الكبيرة الراميات بسهام عيونهم لكل من يلمحنه في الطريق الخاضعات للهيمنة الذكورية الغير مسيطرات عن رغباتهن الجنسية فهن في حالة اثارة دائمة .

وان تتبعنا مراحل كتابة الرحالة ايزابيل ابرهاردت منذ اكتشافها للجزائر في مطلع القرن العشرين عن طريق توغلها في الصحراء الجزائرية على الحدود الشرقية المحاذية لتونس

وحتى كتاباتها في "خريف في تونس " ومرحلة تواجدها بالعاصمة التونسية لاول مرة فإنها تنتهج أسلوب المستشرقين الذين يكتشفون هذه البدائية والهمجية والتخلف في هاته البلدان التي يساهم الاستعمار في بعث رسالة الحضارة والتقدم وتتناسى أن هذا التقدم والازدهار والعمران هو بالدرجة الاولى من سواعد أبناء هذه الشعوب المضطهدة ومن خيرات بلاده المنهوبة فوق الارض وتحت الارض فقد استغل الاستعمار هاته اليد

العاملة في المناجم ومشاريع بناء السكة الحديدية وبناء الجسور والمباني واستغلهم في الاشغال الشاقة في الموانئ والمرافئ.

لكن الملاحظ هو الصورة الباهته التي تقدمها الرحالة وغيرها من المستشرقين حول من تصادفهم في حياتها فقد كانت تعيش في حماية السلطات الاستعمارية وتنزل عند عمالها الممثلين في "القياد" فهي تستعمل عماله وحتى أحصنتهم ؟

فالجزائري لا يعدو أن يكون إما حمالا للمتاع أو حارسا على البيت والأحصنة أو مدخنا للحشيش طوال اليوم غائبا عن الوجود فهو شبح لا ينفع ولا يضر.

يعني أن كل هذه المظاهر البائسة لم تستفز المستشرقين والرحالة الى هذه البلدان فهذا الفقر والتخلف الذي يعيشون فيه مكتوب عليهم وكأنهم اختاروا مصائرهم بأيديهم بل ان العمل لدى المعمرين وأعوان الجيش يعتبر هبة منهم لتحسين اوضاعهم المعيشية .

اذن فأين هي الرسالة الحضارية التي يدعيها الغرب ؟ وما تفسيرهم للطبقية والفوارق التي تميز بين الاهالي والمعمرين القادمين من شتى أنحاء العالم من مالطا واليونان وفرنسا وايطاليا وغيرها ، حتى تكون معيشتهم راقية ومرفهة على صاحب الارض والخيرات.

السكوت المطبق على مظاهر الظلم والاعتداء والاستغلال هو مشاركة في الجريمة التي قام بها الاستعمار الفرنسي في الجزائر وأما الحديث عن الاحداث الفردية والدفاع عنها فهي لا تعدو أن تكون موقفا مؤقتا لا يستند إلى مرجعية مبنية على العدل والمساواة وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

كما أن هناك من يعتبر ابرهاردت كاتبة جزائرية على اعتبار ان جل اعمالها كتب حول الجزائر ،فكانت مادتها الدسمة التي تستمد منها شخوصها وأمكنتها فيقول الطيب بودربالة:

"ويرى النّاقد الفرنسي، المختص في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، جون ديجو، أنّ هذه الرّواية تمثّل الإرهاصات الأولى للرّواية المكتوبة بالفرنسيّة. فهي تعدّ بمثابة المرتكز الأساسي لهذه الجينيالوجيا الرّوائية. ويرى أنّ دينيه وإيزابيل إبرهاردت يمثّلان بامتياز الانبجاسات الأولى للرّواية الجزائرية"[1]

و ما يضفي على الكولونيالية الأوروبية الحديثة هذه الصبغة الفريدة هو تسخيرها للتكنولوجيا الحديثة لصالحها. في ظل وجود سفن سريعة ووسائل مواصلات وجيوش حديثة ونظم إدارية أكثر كفاءة أصبح بإمكان الأوروبيين إرسال مستوطنيهم إلى أراضٍ بعيدة بين حضارات وثقافات مختلفة دون أن يفقدوا اتصالهم بأرضهم الأم، ودون أن تفقد الدولة الأوروبية سيادتها على الأراضي الجديدة .

يقول علي بهداد في كتابه :الرحالة المتأخرون "وعليه، فاني سأصب اهتمامي ، فيما يلي من الصفحات على السنوات السبع التي تقع في الفترة بين الاعوام 1897–1904 التي امضت فيها ابرهاردت معظم وقتها في شمال افريقيا .حيث عاشت ،متخفية كرجل شرقي، حياة مغامرة ملأها التشرد والتصوف والانخراط في المشروع الكولونيالي آخر الامر ، وقد كتبت ابرهاردت ابان تلك الفترة ، مدفوعة برغبة جامحة لامتلاك اسم أدبي العديد من القصص القصيرة ،والملحوظات ،واليوميات ،والمقالات الصحفية والرواية. وقد حرر فيكتور باروكاند ورينيه لويسن دويونه هذه الكتابات جميعها تقريبا، وتم نشرها بعد وفاة إبرهاردت في مجلة الرسالة الجزائرية وغيرها من المجلات الكولونيالية ."[2]

[1] ايتيان دينيه الطيب بودربالة المركز الثقافي للكتاب الدار البيضاء المغرب ط1 2019 ص58

[2] علي بهداد الرحالة المتأخرون، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري تر ناصر أبو الهيجاء منشورات كلمة أبوظبي ط1 2013 ص 234

ولم تشذ الرحالة عن القاعدة التي جاء بها المستشرقون في سبيل اكتشاف العالم السحري الجديد فقد كانت رغبتها جامحة لاكتشاف كل الخبايا التي تصادفها في طريقها بل وتعيش في هذا القطر البعيد عن الحضارة والأقرب الى البدائية في العيش و الملبس والمأكل في ظروف مناخية تمتاز بالرياح والحرارة والقحط مما يفضح غاياتها

" وتتأسس باثولوجيا الرؤية الاستشراقية على رغبتين متزامنتين اثنين : البحث الشخصي المحموم للذكر الغربي عن عالم الغريب والمدهش وكذلك عن الجنس في الشرق، والهدف الجمعي لتعليم الشرق والسيطرة عليه في ميادين السياسة والاقتصاد.[1]"

كما لم تنتقد الرحالة الاستعمار الفرنسي وتعتبره سلطة شرعية ماعدا تصريحاتها بشأن معيشة السكان وبؤسهم وفقرهم في معظم مناطق الجزائر دون الاستنكار المباشر للاستعمار الفرنسي الذي لا ينتمي إلى ثقافة هذا الشعب ولا يقربه جغرافيا بل تعتبره امرا واقعا في ظل هذه السلطة الشرعية فتقول: "... كنت أتكلم دائما وفي كل مكان للأهالي في صالح فرنسا التي هي موطني بالتبني..."[2].

ولا تخفي أيضا ابرهاردت نظرتها الدونية للعرب والمسلمين فهي تطلق الاحكام الجزافية كيف تشاء مما يدل على انخراطها في المشروع الكولونيالي فتقول مثلا:

"صيادو الصحراء رجال أفظاظ بدائيون يعيشون في الهواء الطلق دون إقامة ثابتة. يترك بعضهم أسرهم بعيدة جدا في القصور... يوجد بينهم طبعا بعض الشاذين الفارين في هذه الوحشة من عدالة البشر. إلا أنه، في هذه المناطق القريبة من المدن والقرى، المارقون، كما يسمون بالمصطلح الإداري."

[1] ضياء الدين ساردار الاستشراق : صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية /تر فخري صالح دار كلمة ابو ظبي ط1 2012 ص22

[2] في رسالتها لجريدة لادييباش دالجيري بعد قرار طردها من الاقاليم الجزائرية بعد حادثة محاولة الاغتيال بالبهيمة سنة 1901

مع أن الصيد يعتبر من مظاهر الشجاعة والقوة والجَلد على أهوال الصحراء بل يجيده الا المَهرة العارفين بسبل الصحراء ، وتسويق هذه الصورة عنهم يعكس الحقائق في الواقع.

# الفصل الثاني : رحلات إبرهاردت المسارات والخصائص .

## ( المقاربة البيوغرافية وخصائص الخطاب الرحلي عند إبرهاردت)

## المبحث الأول: الرحلة الأولى : (1899) المسار والخصائص

(جنيف – تولون – مرسيليا – تونس- باتنة – تيمقاد – بسكرة – توقورت- الوادي – باتنة – بسكرة – بونة عنابة – تونس- مرسيليا – باريس – جنيف)

## المبحث الثاني : الرحلة الثانية : (1900-1901) المسار والخصائص

(كاغلياري إيطاليا – مرسيليا- جنيف – باريس – جنيف – باريس – جنيف – مرسيليا – الجزائر- الوادي – باتنة – مرسيليا – قسنطينة – مرسيليا- باريس – جنيف )

## المبحث الثالث : الرحلة الثالثة:(1902-1904) المسار والخصائص

( بونة – الجزائر – بوسعادة – تنس الجزائر – تنس- الجزائر – بوسعادة تنس الجزائر – الجنوب الوهراني – عين الصفراء – فقيق- بني ونيف – عين الصفراء- بني ونيف- عين الصفراء- الجزائر – تلمسان – وجدة- الجزائر – عين الصفراء- بشار- قنادسة- عين الصفراء )

# الفصل الثاني: رحلات إبرهاردت المسارات والخصائص.

## ( المقاربة البيوغرافية وخصائص الخطاب الرحلي عند إبرهاردت)

وقبل الخوض في مسارات وخصائص رحلات إيزابيل إبرهاردت للجزائر والتي كانت مقسمة إلى ثلاث رحلات شاقة قادتها إلى السفر من تونس شرقا والتي دخلتها من عنابة مرورا بالجزائر التي كانت لها المستقر ووصولا إلى المغرب الأقصى غربا بعد قطعها مسافات طويلة في الأراضي الجزائرية.

فارتأينا في هذه الدراسة أن نطبق المقاربة البيوغرافية جنبا إلى جنب مع تتبع الخطاب الرحلي عندها وصولا للتصنيف وذكر الخصائص التي تميز كل رحلة.

فكلمة بيوغرافيا هي كلمة من أصل يوناني مركبة من كلمة (bio)تعني الحياة، و (graphie)بمعني كتابة، فيرى فؤاد طحطح* في كتابه " السيرة لعبة الكتابة" أن بلوتاركوس هو أول من استعمل لفظ "بيو"، و أنها تستعمل بغرض رسم صورة واضحة عن شخصيتهم و تخليد ذكراهم، و لقد ازدهر هذا الفن في العصور القديمة[1]

فالسيرة هي نوع أدبي يعرّف بحياة عَلم أو مجموعة من الأَعلام، أو هي السرد المتابعُ لدورة حياة شخص وذكر الوقائع التي جرت له أثناء مراحل هذه الحياة، و ليس تعريف السير اصطلاحيا قادرا على الإلمام بكل تفصيلاتها أو صورها المختلفة[2] حسب قول إبراهيم السعافين وزملائه.

و تظهر أهمية هذا النوع من الكتابات التاريخية من خلال قيام كل واحد منا في حياته عن قصد أو دون ذلك بسرد تاريخ سيرته، مثل ما يعود صديق من رحلته ويحكي تفاصيل مغامرته ، أو أحد الأقارب في أحدى المناسبات يروي أحد فصول حياته

[1] خالد طحطح، "عودة البيوغرافيا"، رباط الكتب، العدد العاشر، المغرب، 2011 ص4

[2] إبراهيم سعافين، أساليب التعبير الأدبي، عمان، الطبعة الأولى،1997 ص 192-193

الغامضة، و الأمثلة كثيرة، حتى وإن كانت عملا شفويا لا يرقى إلى العمل العلمي الأكاديمي إلا أنه يدخل ضمن مضمار البيوغرافية التاريخية رغم ما تخلل هذا اللون من الصناعة التاريخية من أفول نجمه خلال فترات متعاقبة من الزمن، و رغم الحرص على تطوير الأدوات المنهجية لوظيفة الكتابة التاريخية سواء مع المدرسة المنهجية أو مدرسة الحوليات إلا أنه منذ 1980م يعود بقوة و خاصة لدى المؤرخين بعدما تجاهلها المنطق و العقل دهرا من الوقت، فالبيوغرافية بكل ما تحمله من مزج مدهش بين الحقيقة و الخيال، بين التاريخ و الجانب الفني في الكتابة، إلا أنها تضل اليوم من الميادين المرغوب فيها أكثر، إلى جانب إقبال القراء على هذا اللون.

فالمؤكد أن هذه الطفرة الهائلة لعودة حمى البيوغرافية كما سماها فرنسوا دوس في كتابه "التحدي البيوغرافي–كتابة سيرة–" قد فتحت الباب واسعا أمام إعادة مسألة الهوية للكتابة التاريخية و حدود تصنيفها، لكن تبقى هذه الصنعة مجالا رحبا لصنوف الكتابة و من بين من تعرض لموضوع البيوغرافيا بالمدح و الإشادة نذكر إحسان عباس الذي قدم الحجج لترجيح رأيه.

فرغم تقديره واعترافه بقيمة المجتمع إلا أنه يدافع عن توظيف البيوغرافية، التي يسميها فن السيرة ، كما أنه أعطى للفرد و لتجربته المكانة المستحقة إذ كتب يقول: " وإني لأعلم أن الاتجاه في[1] الحياة المعاصرة، أخذ يتشكل نحو الجماعة بخطى سريعة، وهذا قد يقلل من تقديس الأبطال، ويُخمل دور الفرد في الحياة ويغير مفهومات الناس عن قيمة ذلك الدور، ومن ثم تقل الرغبة في السير عامة، ولكننا نسيء إلى روح الجماعة إذا اعتقدنا أن التجربة الفردية لا قيمة لها. فقد تزول عبادة الأبطال من النفوس، وقد يفقد الفرد معنى التفرد الأناني، ولكن شيئاً واحداً لا يزول هو هذه التجارب الحية، وطريقة التعبير عنها؛ وكل ما سيحدث أن المفهومات الجماعية ستنعكس على تلك التجارب وتصبغها بلون جديد.

[1] عباس إحسان، فن السيرة، دار صادر بيروت، 1996، ص13-12

**أساليب كتابة السيرة:**

هناك أشكال ثلاثة لكتابة السيرة حسب رأى محمد يوسف:

على الشكل الروائي: وهو الأكثر شيوعا في المجال الأدبي لا التاريخي، حيث تمتزج فيه المخيلة مع الواقع، و تتسع مساحة الإبداع، و مثال ذلك كتاب الأيام لطه حسين أو كما ذكر سالفا عن شخصية يوبا الثاني، ولكن هذا الأسلوب يحتوي على كثير من المزالق على المؤرخ الذي يجد نفسه مبتعدا عن نقل الحقيقة التاريخية و يغوص في مستنقع التزييف، لذا يجب توخي كثير من الحيطة و الحذر لأخذ المعلومة التاريخية غير مشوبة و صافية.

2-الأسلوب السردي: ويغلب على هذا الأسلوب السرد والتقرير والبعد عن التصوير، القائم على سرد الأحداث و الوقائع عن طريق التطور الزمني لها و إيجاد ترابط و تماسك بين أجزاء الموضوع وإظهار التطور الحاصل في السيرة المدروسة سواء كان ذالك سيرة ذاتية أو عن غيره.

3-الأسلوب التصويري: وهو المزج بين الأسلوبين السابقي الذكر، أي بين الطريقة السردية والفنية الروائية.

و يضيف الكاتب نفسه في مقاله المعنون السيرة الذاتية و حقائقها في التاريخ عن تقريب السيرة من التاريخ يجب الالتزام بما يلي:

أ- الالتزام بالصدق التاريخي، وهذا بتكثيف البحث عن الحقيقة التاريخية من المصادر و المراجع الموثوقة و العلمية، فيبتعد بذلك عن الجانب الفني الخيالي و يصبغها بالصبغة العلميةالتاريخية.

ب- عدم تحكيم العاطفة في هكذا عمل، لأنه من شأنه الانزلاق في الانحراف العاطفي والابتعاد عن العلمية المرجوة.[1]

[1] يوسف محمد، السيرة الذاتية و حقائقها في التاريخ، نقلا عن الموقع الالكتروني: http://maraji3-elondy.blogspot.com/2011/05/blog-post_26.html.

و الخلاصة أن الفن البيوغرافي هو أسلوب أدبي في ظاهره ولكنه قريب من الحادثة التاريخية مثلما هو قريب من الفن الأدبي السردي ونشير إلى أن السيرة التاريخية كانت و لا تزال مجالا واسعا و شيقا للصناعة التاريخية، و أن المقاربة هي الوسيلة العلمية لتحقيق هدف الباحث لاستخراج الحقائق التاريخية، كما أن أثر الفرد في الحادثة التاريخية واضح المعالم و لا يمكن استبعاده منها لأنه جزء مهم، فلا يمكن تصور الحادثة التاريخية دونه، كما أن التاريخ ما هو إلا وعاء الخبرة الإنسانية، والعلم الخاص بالجهود البشرية[1].

وبالنسبة لهذه الرحلات التي وجدنا مسارها محددا في كتاب إيزابيل إبرهارت الرسائل واليوميات الصادرعن دار بابل بفرنسا باللغة الفرنسية عام 1987 تقديم وتعليق EGLAL ERRERA [2] كما يلي :

(عام1899 )

(جنيف،طولون ،مرسيليا ،تونس،باتنة،تيمقاد ،بسكرة،توقورت،الوادي ،باتنة،بسكرة، عنابة،تونس،مرسيليا ،باريس،جنيف) .

(عام1900 )

(كاغلياري ، مرسيليا ، جنيف ،باريس ،جنيف ، باريس،جنيف ،مرسيليا ، الجزائر ، الوادي )

(عام1901 )

(الوادي ، بهيمة ،باتنة ، مرسيليا ، قسنطينة ، مرسيليا ، باريس ، جنيف )

[1] محمد محمود الحويري، منهج البحث التاريخي، دار المكتب المصري القاهرة 2001،ص7

[2] لمزيد من التفاصيل عد إلى كتاب : isabelle Eberhardt–Lettres et journaliers إيزابيل إبرهارت الرسائل واليوميات الصادرعن دار بابل بفرنسا عام 1987 تقديم وتعليق EGLAL ERRERA .

**(1902)**

**(بونة–الجزائر–بوسعادة–تنس الجزائر–تنس–الجزائر)**

**(1903)**

**(بوسعادة–تنس–الجزائر–الجنوب الوهراني–عين الصفراء–فقيق–بني ونيف–عين الصفراء)**

**(1904)**

**(بني ونيف–عين الصفراء–الجزائر–تلمسان–وجدة–الجزائر–عين الصفراء–بشار–قنادسة–عين الصفراء )**

يعني أن تصنيف الرحلات كان بحسب كل سنة لوحدها ،لذلك قمنا باعتماد سنة 1899 كرحلة واحدة على أساس أن مسارها كان من نقطة الانطلاق من جنيف والعودة في آخر السنة نفسها لنقطة البداية جنيف، أما الرحلة الثانية التي انطلقت من كاغلياري بايطاليا فقمنا بدمجهما في رحلة واحدة بداية من سنة 1900 إلى سنة 1901 والعودة مرة أخرى إلى جنيف.

أما الرحلة الثالثة والأخيرة فقد اعتمدنا فيها السنوات1902 -1903-1904 وخصوصيتها أنها كانت رحلة داخل القطر الجزائري انطلاقا من عنابة وصولا إلى العين الصفراء أين قضت الرحالة نَحْبها في فيضان وادي المدينة.

**المبحث الأول: الرحلة الأولى : (1899) المسار والخصائص**

**جنيف–تولون–مرسيليا–تونس–باتنة–تيمقاد–بسكرة–توقورت– الوادي–باتنة بسكرة–بونةعنابة–تونس–مرسيليا–باريس–جنيف**

كان لفقدان والديها وأخيها بداية من صيف 1899 الأثر الكبيرعلى إيزابيل من الناحية النفسية والمادية، فقد كان لزاما عليها أن تعتمد على نفسها، فعادت إلى تونس، وهي محتارة كيف تعيش بالمال القليل الذي كان معها والذي بدأ يتناقص، فتركت تونس لتلتحق بأخيها أوغيستان في مرسيليا،فوجدته هو الآخر معدما يتخبط في مشاكل مالية ، فزارت العديد من المدن الفرنسية باحثة عن مصدر مال، وزارت العاصمة الباريسية محاولة الحصول على وظيفة كصحفية، ولكن دون جدوى لولا، تعرفها هناك على الماركيزة دي موردر التي مات زوجها بالجنوب التونسي في ظروف غامضة، أثناء أحد الحملات العسكرية . فكانت تريد معرفة حيثيات وظروف وفاة زوجها، والتي أعجبت بشخصيتها وجرأتها وذكائها ،كلفتها بمهمة التحري عن تلك الظروف ومعرفة الحقيقة الكاملة. وهكذا عادت إيزابيل إلى تونس رفقة أخيها أوغيستان مرة أخرى في شهر جوان .1899 وكانت تلك الرحلة مثمرة بالنسبة لها على الصعيد النفسي خاصة، واستطاعت أن تعرف بأن زوج الماركيزة مات منتحرا.

ويبدو أنه في هذه المرحلة من حياة ابرهارت قد زادت شهيتها للكتابة وبعنوان ساعات في تونس كتبت يومياتها في العاصمة تونس وذكرت البيت الذي استأجرته رفقة خادمتها وما كانت تعايشه من سكنات الفقراء البسطاء وحركاتهم فكانت رحلة صوفية بامتياز استطاعت من خلالها الرحالة اكتشاف ذاتها والعلاقات الإنسانية التي دُفنت وسط المدنية والتحضر وتصرفات المريدين والدراويش في الأزقة والبنايات المهجورة.

ومن تونس زارت تيمقاد بباتنة في 12 جويلية 1899 ثم بسكرة في 14 جويلية أين أقامت في فندق الواحات ثم إلى توقورت والوادي في 04 أوت بعد مكوثها عدة أيام فيها فاكتشفت منطقة سوف لأول مرة ولم تخف اعجابها بها بل كتبت عن الواحات الكبيرة وهذه المدينة النائمة وسط الرمال ، ثم رجعت إلى باتنة في 17 أوت 1899 وفي 29 أوت زارت قبر أمها بعنابة ثم عادت إلى تونس في سبتمبر 1899 لتكون إقامتها بتونس خلال هذه الفترة من حياتها بمثابة اكتشاف لذاتها وإعادة بناء وترميم لمآسيها السابقة بفقد أحبتها حين قست الحياة عليها لتجد نفسها مرة أخرى في بلد غريب على حياتها ونمط معيشتها فكتبت بعنوان خريف في الساحل التونسي فيما يشبه استعادة ذكرياتها في تونس وما شاهدته في الجنوب القسنطيني من جبال باتنة وتضاريس بسكرة وشطوط واد ريغ ورمال وادي سوف.

والملاحظ أن الشهور التي قضتها في تونس كانت الرحالة في حماية الجيش الفرنسي المتمثل في رجال الصبايحية المتكونة من الأهالي المتعاونين معه تحت قيادة ضابط فرنسي فكانت تنقلاتها مريحة مما أتاح لها اكتشاف معظم القطر التونسية فانبهرت بسهول سوسة والمنستير وتعجبت من أشجار الزيتون الكثيفة ونبات التين الشوكي فعشقت الشرق من بوابة تونس التي غيرت مزاجها وداوت البعض من جراحها الغائرة .

بيد أن ما كتبته في تونس من يوميات تراوحت بين الإعجاب والراحة الجسدية والنفسية وبين استهجانها لممارسات السلطات الفرنسية تجاه المواطنين ومختلف فئات المجتمع خاصة الفلاحين الذين أرهقتهم الفاقة والضرائب المسلطة عليهم .

ومع بداية نوفمبر 1899 تصل إلى مرسيليا وفي 20 نوفمبر تغادر إلى باريس وفي 17 ديسمبر تعود لمرسيليا ثم تغادر لجنيف وفي 31 ديسمبر 1899 تصل إلى سردينيا بايطاليا.

وإذا أردنا تتبع مسار هاته الرحلة فإن نقطة الانطلاق كانت من جنيف ثم اتخذت شكلا دائريا للعودة مرة أخرى إلى جنيف مرورا بالمناطق التي زارتها وهي محددة في المسار فكانت هيمنة بنية السفر واضحة من خلال فعل السفر أي الانتقال من مكان إلى آخر بغية تحقيق هدف ما ، كما تؤطر بنية سفرها الأحداث لتنتقل من مكان لآخر. والملاحظ أن إيزابيل إبرهاردت ومن خلال قدومها أول مرة للجزائر كان في إطار عمل صحفي ومهمة محددة في التحقيق حول مقتل زوج الماركيزة دي موردر والتي مات زوجها بالجنوب التونسي في ظروف غامضة، لكن توغلها بالصحراء الجزائرية المتاخمة للحدود التونسية أدى لاكتشافها للصحراء الجزائرية لأول مرة فتعْلق في وجدانها وتتمسك بالعودة إليها مرة أخرى.

أما عنصر الذاتية فقد كان حاضرا من خلال رحلتها هذه ، مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات. وهكذا تحل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بأسلوبها ومساراتها.

كما تستعمل الرحالة الحكي بضمير المتكلم مفردا وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة الرحلية .

أماعنصر الواقعية فكان متجليا في رحالتها فهي الراوية الحقيقية التي عاشت في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين تتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ فالأماكن التي تصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض.

كما تعددت المضامين وتداخلت الخطابات داخل رحلة ابرهاردت هذه فاشتمل خطابها الرحلي على معارف متنوعة: دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية وتداخلت فيه خطابات مختلفة: الخاطرة والرسالة والحكاية والوصف والسرد .

أما السياق العام لهاته الرحلة فيتمثل في الاكتشاف العظيم للرحالة لسحر الجزائر وتعدد تضاريسها وغنى شعبها بتقاليده وعاداتها حتى أنها كانت تميز بين طبائع وحياة السكان

على مسار رحلتها مع قرب المسافة فتلاحظ التغير الحاصل كما كتبته عن الاختلاف بين سكان منطقة وادي سوف ومنطقة وادي ريغ أو بين الاختلافات حسب رأيها بين سكان العواصم وسكان المناطق الداخلية من الجزائر.

ويبدو أنها توغلت بعيدا في الأراضي الجزائرية دون أن تدرك ذلك قدوما من الجنوب التونسي لأن كلا القطرين كانا يرزحان تحت نير الاستعمار فهي لم تلاحظ الفرق لسببين السبب الأول هو الامتداد العرقي بين سكان الجنوب التونسي والجزائري ووجود قبائل وعروش تعيش بين هذا وذاك والسبب الثاني هو السيطرة الاستعمارية على هاته المناطق التي كانت تحت الاحكام العسكرية عكس الشمال الذي كانت تحكمه الاحكام المدنية .

كما لا تنكر الرحالة مساعدة السلطات العسكرية الفرنسية لها وتجولها في المناطق التونسية والجزائرية بسلاسة وحماية .

وفي هذه الرحلة لم تكن للرحالة بعد أحكام قطعية حول الجزائريين ماعدا بعض الملاحظات التي كانت تكتبها في الطريق، وما سجلته خلالها هو انبهارها بالجزائر وأهلها مما سيحفز الرحالة إلى الرجوع إليها مجددا بعد عودتها لجنيف.

وأما ما ميز هاته الرحلة أنها كانت رحلة استكشافية بدأت بمهمة صحفية وانتهت من حيث بدأت– أي من جنيف إلى جنيف– في خط سير دائري دونما تخطيط مسبق فكانت رحلة عملية ناجحة بالنسبة للرحالة أولا من خلال النتائج التي توصلت إليها حول انتحار زوج الماركيزة دي مويردر واستبعاد قتله من قبل السكان،ثانيا من خلال الحماية التي حضيت بها واستكشافها لاماكن مجهولة في الجزائر .

وإذا تحدثنا عن السياق الادبي لرحلتها والذي يغلب عليه الاسلوب المباشر ويتخلله بعض التعبيرات المجازية والصور الفنية والتأثر بالأسلوب الرومنسي وهذا ماميز رحلاتها عموما على حد قول البروفيسور علي غنابزية في معرض حديثه عن أسلوب

الرحلات وقيمتها الفنية ،ويضيف أن الرحالة الذين زاروا العرق الشرقي بعدها قد تأثروا بكتاباتها منهم تيرنيول[1].

فكان تأثرها بالمذهب الرومنسي جليا في رحلتها هذه من خلا ل مناجاة الطبيعة والجنوح للتشاؤم واستعمال الاساليب الادبية في كتاباتها وخير دليل على ذلك هي يومياتها في تونس.

[1] أنظر علي غنابزية رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي بصحراء قسنطينة 1860-1939 سامي للطباعة الوادي 2019 ص80.

**المبحث الثاني: الرحلة الثانية : (1900-1901) المسار والخصائص**

**(كاغلياري إيطاليا –مرسيليا-جنيف–باريس–جنيف–باريس–جنيف–مرسيليا – الجزائر-الوادي –باتنة–مرسيليا –قسنطينة–مرسيليا-باريس–جنيف)**

وفي هذه الرحلة التي تنطلق بكتابة يومياتها من كاغلياري بسردينا بإيطاليا في : 01-01-1900 مايشبه الخواطر لتعبر من خلالها على وحدتها وخيباتها المتتالية وحزنها وتتذكر أمها فتقول: أنا رحالة ليس لي من وطن سوى الإسلام.

كما يظهر اسم محمود السعدي الاسم المستعار الذي سيبقى ملازما لكتاباتها وتفر إليه كلما اقتضت الظروف إلى ذلك.

فكتبت يومياتها في كاغلياري بسردينيا على التوالي يوم 1 جانفي و9 جانفي و18 جانفي و 28جانفي 1900 ثم تغادر إلى باريس في أفريل 1900 وفي 30 جوان1900 تصل إلى جنيف وتشير الرحالة إلى روايتها راخيل التي لم تنهها أبدا فتقول : " وجدت أول أمس وأنا أناقش فيرا، الوسيلة التي تخلصني من الوضعية المعقدة التي تجعل من انجاز راخيل أمرا مستحيلا. عموما ، أعبر الآن فترة جديدة من الحضانة الفكرية التي كما أظن هي الأكثر خصوبة في حياتي حتى الآن ."[1] كما أنها خلال هذه الفترة كانت تقرأ يوميات آل غنكور وتأثرت بها كذلك ثم تغادر إلى مرسيليا من 15 إلى 20 جويلية وخلال هذه الفترة رسمت الرحالة خطة واضحة لإكمال روايتها راخيل وإتمام يومياتها ورسم خريطة للمناطق التي زارتها والتي ستزورها برحيلها للجزائر كما عزمت على قراءة كتابات اميل زولا ولوتي وبودلير مع عزمها على العودة للصحراء الجزائرية لإكمال كل هذا، وعند وصولها إلى الجزائر في 22 إلى 23جويلية 1900 عن طريق البحر بالسفينة أجان بيرير بعد أن ودعت أخيها أوغيستان بمرسيليا ، فصلّت بها العشاء ودخّنت الحشيش؟

[1] إيزابيل إبرهاردت – **على الرمل أثر** ترجمة عبد القادر ميهي مطبعة الرمال 2015 ص 61

فقالت في اليوم الثاني لوصولها للجزائر العاصمة "...طويلا طويلا، لا يُرى من الساحل الجزائري سوى ماتيفو[1] يغمره عالم من البخار الرمادي... ثم يظهر مثلث الجزائر والمدينة القديمة وهي تنساب كالثلج... أخيرا، يتجلى البانوراما المدهش في الضوء الساطع. بعد استراحة قصيرة في غرفتي رفقة أوجان[2]، وبعد أن رحل، ذهبت وحيدا لأستكشف المدينة. لكن قبعتي أزعجتني لأنها تعزلني عن العيش بين المسلمين ،عدت إذن إلى الغرفة، وبعد أن وضعت طربوشا على رأسي، خرجت ثانية وذهبت رفقة أحمد، الخادم، في أول الأمر إلى الجامع الكبير..."[3]

وفي 30 جويلية تصل إلى مدينة المغير بإقليم الوادي ثم وغلانة ثم سيدي عمران لتصل إلى توقورت صباح 31 جويلية 1900 وبعد أن منعها بيرو عرب[4] من الذهاب لورقلة إتجهت إلى الوادي ومرورا ببرج الترجان ثم مويه القايد فورماس وصولا للوادي بداية أوت 1900 أين بدأت ترتب إقامتها بها بالبحث عن منزل للكراء وكما جرت العادة أن تذهب الرحالة إلى القائد[5] لتكون تحت حمايته وتُقضى حوائجها بسرعة أكبر كما قابلت الرحالة في هذا اليوم النقيب غاستون كوفي[6] الكاتب والعسكري المشهور للمرة الثانية.

ففي هذه الفترة التي استمرت حوالي سبعة أشهر كتبت الرحالة العديد من الرسائل والخواطر واليوميات والقصص اضافة إلى تعرفها على سليمان هني الذي أصبح زوجها فيما بعد الذي تطلق عليه اسم روح- ويحة- فالزيارة الأولى لمنطقة الوادي سنة 1899 بالذات كانت ربما لاستكمال التحقيق في وفاة المركيز دي موريس بتكليف من

---

[1] رأس ماتيفو cap matifou

[2] أوجان لوتور : كانت للرحالة مراسلات دائمة لسنوات طويلة مع هذا الضابط الفرنسي من مكتب شؤون الأهالي بيرو عرب .

[3] إيزابيل إبرهاردت – **على الرمل أثر** ترجمة عبد القادر ميهي مطبعة الرمال 2015 ص 85

[4] **مكتب شؤون الأهالي**

[5] القايد من الأهالي وهو رئيسهم والوسيط بينه وبين السلطات الفرنسية

[6] غاستون كوفي صاحب كتاب **note sur le Souf et les souafa** ضابط محترف بالجيش الفرنسي أقام بمنطقة سوف بين 1900-1903 .

زوجته أما الرحلة الثانية فكانت ثقافية أدبية كما خططت لها الرحالة من جنيف فالعديد من الأحداث المهمة في حياة الرحالة وقعت لها بمنطقة الوادي التي أحبتها وأطلقت عليها مدينة القباب الألف كما تبنت الطريقة القادرية منهجا لها مما كاد يكلفها حياتها بمحاولة إغتيالها عن طريق أحد مريدي الطريقة التيجانية التي كانت تناصب العداء للطريقة القادرية كما أدى موقفها بالمحكمة حين أرادت مسامحة الجاني بالتعجيل بطردها من إقليم الوادي والجزائر عموما تقول في في احدى يومياتها " هذا الكراس يحوي مخططا لحياتي وأفكاري وانطباعاتي في الفترة الأكثر غرابة والأكثر اضطرابا ولكن أيضا، الأكثر أهمية في حياتي. بدأته بمقالات لمشاهير الكتاب، بعد مغادرتي "باريس"، واصلت كتابته في "مرسيليا" و"جينيف" والجزائر وخاصة الوادي . هذا الكتاب يعكس حقيقة أحزان، تيه وحيرة هذه الفترة، القريبة جدا والتي ماتت ودفنت. في الحقيقة هذه الفترة من حياتي، انتهت في" البهيمة[1]" يوم 1901/1/29 .[2]"

وقد صرحت إيزابيل إبرهاردت بعد قرار طردها من الأقاليم الجزائرية،عن دواعي هذا الإجراء. فتقول "أنا الروسية المتيقنة بأن لا شيء يؤخذ عليّ. أبدا، لم أشارك ولم أعلم بأي عمل معاد لفرنسا. لا في الصحراء ولا في التل".

أنها كانت تتكلم دائما وفي كل مكان للأهالي في صالح فرنسا التي هي موطنها بالتبني وتسأل لماذا إذن هذا الإجراء الذي يجرح شعوري بصفتي روسية ويحزنني كثيرا لأنه يفرق لشهور طويلة، بيني وبين خطيبي ضابط الصف في ثكنة "باتنة".

وتقول:" لو تعلق الأمر بإبعادي من الأقاليم العسكرية، لتفهمت ذلك، ولكنني لا أريد العودة الى الجنوب. أريد فقط أن أعيش في"باتنة" وأن أتزوج الذي كان رفيق الأيام الصعبة، سندي المعنوي الوحيد في هذا العالم. هذا كل شيء"[3].

لكن مغادرتها للوادي كانت يوم 25-02- 1901 لتمكث بباتنة من 20 مارس 1901 إلى مغادرتها يوم 06 ماي ووصولها لبونة ( عنابة) في نفس اليوم ثم تغادرها لمرسيليا في اليوم الموالي على متن باخرة بيري لتصل مرسيليا يوم 12 ماي وتقيم بها

[1] البهيمة بلدية حساني عبد الكريم بالوادي حاليا المنطقة التي تعرضت فيها لمحاولة إغتيال .

[2] إيزابيل **إبرهاردت عودة العاشق المنفي** تر عبد القادر ميهي كتاباتها عن سوف مطبعة الوليد الوادي 2006 ص44

[3] إيزابيل إبرهاردت **على الرمل أثر** ص184

إلى نهاية جويلية 1901 وتكتب منها يوميات في غاية القلق والحيرة وفقدان الأمل وإنسداد الأفق من إبتعادها عن سليمان هني واستحالت مساعدة أخيها أوغيستان لها بعد زواجه وخلافها مع زوجته.

فالمتتبع لمسار هاته الرحلة يجد أن نقطة الانطلاق كانت من كاغلياري إيطاليا ثم مرسيليا– جنيف– باريس –جنيف –باريس –جنيف –مرسيليا –الجزائر– الوادي – باتنة ، ثم اتخذت شكلا دائريا للعودة مرة أخرى إلى جنيف مرورا بالمناطق التي زارتها وهي محددة في المسار فهيمنة بنية السفر واضحة من خلال فعل السفر أي الانتقال من مكان إلى آخر بغية تحقيق هدف ما ، كما تؤطر بنية سفرها الأحداث لتنتقل من مكان لآخر. والملاحظ أن إيزابيل إبرهاردت ومن خلال عودتها للجزائر مرة أخرى كانت قد رسمت خطة لكتابة رحلتها هاته والعديد من الاعمال الادبية الأخرى لولا حادثة محاولة إغتيالها بالوادي والتي عجلت برحيلها وهذا مالم يكن في حسبانها .

أما عنصر الذاتية فقد كان حاضرا من خلال رحلتها هذه ، مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات.

كما تستعمل الرحالة الحكي بضمير المتكلم (أنا) وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة الرحلية عموما .

أماعنصر الواقعية فكان متجليا في رحالتها فهي الراوية الحقيقية (إيزابيل إبرهاردت)التي عاشت في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين تتحدث عنهم ( شيخ الطريقة ، القاتل ، سليمان هني ، اوغيستين، غاستون كوفي ....الخ)، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف؛ فالأماكن التي تصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض.

كما تعددت المضامين وتداخلت الخطابات داخل رحلة ابرهاردت هذه فاشتمل خطابها الرحلي على معارف متنوعة: دينية وتاريخية وجغرافية وإثنوغرافية وأدبية وتداخلت فيه خطابات مختلفة: الخاطرة والرسالة والحكاية والوصف والسرد .

أما السياق العام لهاته الرحلة فيتمثل في الحقبة التاريخية المظلمة من حياة الجزائريين تحت سلطة الاستعمار الفرنسي الذي أكمل سيطرته على الصحراء سنة 1881 لكن

هذه المرة أرادت الرحالة أن تقترب أكثر من السكان الأصليين فتعيش معيشتهم وتأكل مأكلهم وتلبس ما يلبس الرجال منهم.
والملاحظ في هذه الرحلة هو سوء العلاقة بينها وبين السلطت العسكرية الفرنسية بعد الحدث المفصلي في رحلتها هذه ومحاولة اغتيالها وموقفها من العفو عن المعتدي في المحكمة ما أثار غضب السلطات آن ذاك.

**ملاحظات عامة حول هذه الرحلة :**

– كانت هذه الرحلة الأكثر غزارة من حيث الإنتاج الأدبي للرحالة ففيها كتبت عن إقامتها في تونس وجنيف وسردينيا والجزائر وباتنة والوادي ومرسيليا وكانت أكثر حرصا على تدوين كل ماتعلق بهذه الرحلة من يوميات .

– في هذه الرحلة كتبت الرحالة أشهر قصصها اليد، تاعليث، ياسمينة...الخ كما كانت مراسلاتها غزيرة لأخيها أوغيستان وسليمان هني بالإضافة إلى الجرائد والسلطات الفرنسية .

– تعرضت الرحالة لمحاولة اغتيال كادت تودي بحياتها بمنطقة البهيمة[1] بالوادي مما أماط اللثام عن مشكل اجتماعي وثقافي وعقائدي كانت منطقة سوف وغيرها من مناطق الجزائر تتخبط فيه وهو العداء القائم بين الطرق الصوفية آن ذاك.

– شكلت الوادي مصدر إلهام للرحالة التي غادرتها على مضض رغم ما كانت تعيشه من تضييق وفقر وضياع فأحبت هذه الأرض وأرادت أن تدفن فيها .

– ستضل الرحالة تسترجع ذكرياتها في منطقة الوادي في قابل الأيام فهي الأرض التي منحتها بركة الطريقة القادرية وحبيب قلبها سليمان الذي أحبها بصدق ولم يتخل عنها في أحلك ظروفها.

[1] بلدية حساني عبد الكريم حاليا.

– بالوادي إلتقت بالنقيب غاستون كوفي الذي رفض أن يكتب تقريرا سلبيا حولها واكتفى بالقول أن المريب في إيزابيل إبرهاردت هي طريقة لباسها وعيشها وسط الأهالي ، فكان يحترم كتاباتها ويثمن قلمها.

– تذمر الرحالة من إقامتها بباتنة وبونة التي تذكرها بموت أمها، كما شكلت إقامتها بمرسيليا كابوسا أرادت التخلص منه في أقرب وقت للسلوكيات التي كانت تصادفها هناك وحاجتها للمال والسند وتخلي أخيها أوغيستان عنها بعد زواجه.

**المبحث الثالث : الرحلة الثالثة:(1902-1904) المسار والخصائص**

**( بونة – الجزائر – بوسعادة – تنس الجزائر – تنس – الجزائر – بوسعادة تنس الجزائر – الجنوب الوهراني – عين الصفراء – فقيق – بني ونيف – عين الصفراء – بني ونيف – عين الصفراء – الجزائر – تلمسان – وجدة – الجزائر – عين الصفراء – بشار – قنادسة عين الصفراء )**

بعد قرار السلطات الفرنسية طرد الرحالة من الأقاليم الجزائرية وبعد معاناتها من ظروف الإقامة بمرسيليا وتخلي أخيها عنها وبُعدها عن حبيبها سليمان هني، بصيص أمل يُنبأ برجوعها للجزائر فردوسها المفقود وأخبار عن بيع الفيلانوف منزل العائلة بجنيف، يصل أخيرا سليمان إلى مرسيليا في أكتوبر 1901 وأيام عن زواجهما الرسمي للعودة للجزائر بوثائق رسمية كزوجة لأحد جنود فرنسا وتزداد مأساة الرحالة في مرسيليا فتقول حتى الحطب الذي نتدفأ به يُعطى لنا صدقة، لكن الأمل بقي يحذو الرحالة التي مرت سريعا بجنيف لتتمكن من السفر إلى بونة[1] يوم 15جانفي 1902 وتقيم بها شهرين تقريبا في حالة إجتماعية صعبة وفي 12 مارس تنطلق من الجزائر العاصمة على متن عربة بريد الجنوب تجاه بير التوتة ثم البليدة ثم المدية كما تتحدث الرحالة عن لقائها بفكتور باروكاند[2] يوم 30 مارس 1902 ودامت إقامتها بالجزائر حوالي ثلاثة أشهر برعاية باروكاند، ثم غادرت الجزائر يوم 28 جوان 1902 لتصل إلى مسيلة في اليوم الموالي وتصل يوم 01جويلية إلى بوسعادة والملفت أن الرحالة إستعادت هويتها الأنثوية وأصبحت تكتب بصيغة المؤنث فقصدت زاوية الهامل وكتبت عنها قصة لالة زينب وفي الزاوية وبعض يومياتها ثم تعود للجزائر يوم 05 جويلية ثم

[1] الاسم القديم لعنابة

[2] Victor Barrucand الصديق الأديب الذي جمع كتابات إيزابيل إبرهاردت بعد وفاتها.

تغادر إلى مدينة تنس في 07جويلية ثم تصل إلى أورليونفيل[1] يوم 17جويلية وتعود إلى تنس لتقيم فيها حتى نهاية سبتمبر 1902 لكن تقارير السكان حولها عجل برحيلها والعودة للعاصمة مع بداية أكتوبر ثم تعود إلى تنس مع بداية ديسمبر ثم تعود للعاصمة في نهاية ديسمبر1902و تتذكر خلال هده الفترة الفيلانوف منزلها بجنيف وأخيها أوغيستان الذي يبدو أنها شطبته من سجل حياتها، و تستعيد ذكرياتها بالوادي التي منحتها السكينة والهدوء وزوجها سليمان الذي بقي لها من الدنيا ثم تغادر إلى بوسعادة يوم 26جانفي 1903 وتصل إلى زاوية الهامل ثانية يوم 29 جانفي 1903 ثم تصل إلى العين الصفراء التي تكتشفها لأول مرة حيث تقول في ماي 1904 " غادرت عين الصفراء في شتاء العام الماضي ... أراها اليوم من جديد في حلة مختلفة تماما[2] "

ثم تغادر إلى الجزائر العاصمة في أفريل 1903 ثم المغادرة نحو عين الصفراء في نهاية سبتمبر 1903 فتكتب مريامة وسيدي سليمان وفاطمة الصغيرة ودوار المخزن ومشاهد عن فقيق .

وفي جانفي 1904 تودع الرحالة زوجها سليمان هني بسطيف وفي فيفري تسافر لوجدة بالمغرب وتعود للجزائر في نفس الشهر حيث تحدثت عن زياراتها الثانية للجنوب الوهراني وربما يكون صديقها باروكاند قد قطع معها هذه الرحلة لتزور بني ونيف ثم عين الصفراء لتعود إلى الجزائر في أفريل1904 لكن الرحالة تعود مرة أخرى لعين الصفراء في ماي 1904 وتسافر إلى زاوية القنادسة من جويلية إلى بداية سبتمبر وتُعجب الرحالة بهذه المدينة الهادئة الصحراوية فتكتب الكثير من يومياتها هناك وإضافة إلى قصصها وتوثيق هذه الرحلة بالذات وكأنها كانت تشعر بانقضاء أجلها فيها وتتأقلم سريعا مع سكانها وتدخل المقهى العربي الذي يقدم النعناع وتستسلم لترانيم الناي الحزين على جنباته.

[1] مدينة شلف حاليا

[2] إيزابيل إبرهاردت **في ظلال الإسلام الدافئة** تر عبد القادر ميهي مطبعة مزوار الوادي ط1 ص12

وفي شئ لافت وأنت تقرأ لرحلتها الأخيرة إلى القنادسة تكتب الرحالة عن الموت في مواضع عدة وتقول: "علينا أن نعلم أننا سنرحل ذات يوم بما أن جمال الكائنات والأشياء عابر[1]"

وفي موت على الطريقة الإسلامية أين حضرت جنازة أحد المسلمين فتقول :"بدا لحن هذا الموال حزين ولطيف وصوت الطالب ( الذي كان يقرأ الموعظة) رخيم وأنا أنظر إلى الكومة الصغيرة التي تُركت هنا [2]" وغيرها من الكتابات .

في هذه الرحلة للقنادسة ببشار تأتي الرحالة إلى هذه المنطقة وهي متنكرة في زي رجالي وتلتقي بالمخازنية المغاربة ، كما تتكلم عن الوجود الكثيف في منطقة بشار لليهود والاسبان وحين تتكلم الرحالة عن منطقة بشار فمرة تقول أنها أرض مغربية ومرة تقول أنها فرنسية ومرة خارج حدود إقليم الجنوب الوهراني .

كما تقول أن قنادسة تعترف بسلطة سلطان فاس، وتصل أخيرا إلى زاوية الأخوية الزيانية و هي متنكرة ، فتقدم نفسها على أنها شاب تونسي متعلم يسافر من زاوية إلى أخرى للدراسة اسمه سي محمود ولد علي وهو قادم بتوصية من أحد الإخوان من عين الصفراء وعليه تُستقبل في الزاوية إستقبالا جيدا وتُمنح غرفة خاصة بها كما تتحدث الرحالة عن الاخوة الزيانيين على أنهم مؤيدون لفرنسا ، فيَنصحه شيخ الزاوية(سي محمود) بتغيير اللباس الجزائري لأنه غير محبذ في هذه الجهة ونَصحه باللباس المغربي.

---

[1] إيزابيل إبرهاردت **في ظلال الاسلام الدافئة** تر عبد القادر ميهي مطبعة مزوار الوادي ط1 2012 ص 15مترجم عن كتاب :

**Dans l'ombre chaud** arrange par **Victor barrucand** chapentier et fasquelle 1921 , **de l'islam** édite et

[2] نفس المرجع ص 21

بدأت الرحالة تكتشف الحياة في الزاوية ومحيطها فهي تحكي عن مختلف أصناف المجتمع الذي قابلته هناك من العبيد الذين كانوا يشتغلون بالقصر إلى الخادمات وإلى تصرفات أبناء شيوخ الزوايا في خلواتهم البعيدة عن الأولياء وإلى مدخني الحشيش والجنود الأقوياء من العرب والبربر ومن الجنود المغاربة، وتتحدث الكاتبة عن الشيخ بوعمامة وثورته بالغرب الجزائري على أنه متمرد وقائد عصابة قطاع طرق بسبب حادثة مقتل نائب شيخ الطريقة القادرية .

سيطرت على كتابات الرحالة في هذه المرحلة مشاعر الحزن واسترجاع الذكريات وصور المآسي والآلام التي كابدتها وتتكلم بكل ألم عن انقطاعها عن العالم الخارجي وكل الأصدقاء والأحبة فهي تعيش عزلة ووحدة حقيقيتان في أرض ووجهة مجهولتا العوالم ، وتعلن رغبتها في السفر إلى عمق الأراضي المغربية لكن الحمى باغتتها وبقيت تعاودها لمدة طويلة مما اضطرها للعودة إلى عين الصفراء للعلاج مع نهاية صيف 1904.

كان آخر نص تكتبه بعين الصفراء بعنوان 'أفراح السود ' في سبتمبر 1904 لتعاودها الحمى وتدخل إلى المستشفى وفي 21 أكتوبر يزورها زوجها بعين الصفراء وكانت قد خرجت للتو من المستشفى لإصابتها بالحمى، وفي نفس اليوم من سنة 1904 توفيت إيزابيل إبرهاردت في فيضان عين الصفرا ء على إثر إنهيار المسكن الذي كانت تستأجره.

وإذا أردنا تتبع مسار هاته الرحلة كانت رحلة داخل القطر الجزائري و نقطة الانطلاق كانت من بونة فلم تتخذ هذه المرة شكلا دائريا للعودة بل كانت على إمتداد ثلاث سنوات زارت فيها الجزائر العاصمة ستة مرات وكانت محطة رئيسة من خلال إقامتها بها وتعرفها على فيكتور باروكاند كما كانت محطة بوسعادة وإقامتها بها أيضا من اهم مراحل هذه الرحلة ،اضافة إلى زياراتها المتكررة لعين الصفراء والتي كانت محطتها الأخيرة ويبدو أن هذه الرحلة كانت لهدف معين هو اكتشاف ما يحدث من اضطرابات في هذه المنطقة التي كانت متوترة أمنيا فالسفر كان ديدن الرحالة حيث كانت تنتقل بين هاته المناطق في مسار غير محدد لكن ماتُمليه الظروف الراهنة. كما تؤطر بنية سفرها الأحداث لتنتقل من مكان لآخر. والجلي للعيان أن إيزابيل إبرهاردت ومن خلال تنقلها في هذه المناطق ،أي من أقصى الشرق الجزائري إلى أقصى الغرب الجزائري وحتى الدخول للأراضي المغربية كان في إطار عمل صحفي أيضا ومهمة محددة سلفا لكن وعورة هذه المناطق تضاريسيا وبشريا من خلال التوتر الذي كان قائما على الحدود الغربية للجزائر زاد من تعقيد مهمتها الصحفية.

أما عنصر الذاتية فقد كان حاضرا من خلال رحلتها هذه ، مادامت الرحلة حكيا لسفر قامت به الرحالة بنفسها ، فيسيطر أسلوبها وتهيمن رؤيتها وتوزيعها للأدوار المحيطة بها على حسب ماتراه من تقديم أو تأخير .

كما تستعمل الرحالة الحكي بضمير المتكلم مفردا لكن هذه المرة تتكلم إيزابيل إبرهاردت بالذات الأنثوية .

أماعنصر الواقعية فكان متجليا في رحالتها فهي الراوية الحقيقية التي عاشت في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين تتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف، فالأماكن التي تصفها أماكن حقيقية لها وجود فعلي على الأرض.

كتبت الرحالة في هذه الرحلة يومياتها كما كتبت مجموعة من القصص القصيرة المستوحاة من المناطق التي زارتها ،كما خصت منطقة القنادسة بكتابات منفردة جمعت في كتاب " في ظلال الإسلام الدافئة" فتعددت المضامين والخطابات داخل هذه الرحلة كانت جامعة لعدة معارف جغرافية وأدبية وإثنوغرافية مع استعمالها لخطابات سردية مختلفة.

أما السياق العام لهاته الرحلة فيتمثل في التوتر الأمني في المنطقة الغربية من القطر الجزائري وتحديدا ثورة الشيخ بوعمامة ، كما كانت ملاحظاتها عن سكان الغرب الجزائري مختلفة عما وجدته في الشرق الجزائري أو في العاصمة الجزائر فقد كانت متوجسة وتتحرك بحذر في هذه المناطق إلا أنها لم تسْلم من الاتهامات والاحكام القبلية التي كانت تطلقها على الجزائريين في هذه المناطق .

ويبدو أنها توغلت بعيدا في الأراضي المغربية أيضا وهي تعترف بالسلطة الاستعمارية الفرنسية كذلك في هذه المناطق والشئ المختلف عن باقي الرحلات السابقة لها هي شعورها العميق وهي في هذه المناطق بالفرق والتباين بين طبائع الجزائريين والمغاربة كما أكدت على وجود قبائل مسيطرة على هذه التخوم مما جعلها منطقة غير مستقرة أمنيا .

وفي هذه الرحلة أصبحت الرحالة أكثر خبرة وتمرس من ذي قبل من خلال شبكة علاقاتها التي نسجتها في الجزائر وعلاقتها الجيدة بالسلطات العسكرية الفرنسية كما أصبحت تطلق أحكاما قطعية من خلال سفرها في ربوع الجزائر ، فقدرتها العجيبة على التوغل داخل النسيج السكاني لمختلف المناطق مرة بالشخصية الذكورية ومرة بشخصيتها الانثوية أعطى لها زاوية رؤية تستطيع من خلالها تمييز التباين بين مختلف شرائح المجتمع ومختلف المناطق أيضا.

والمؤكد أن هاته الرحلة كانت رحلة عملية في إطار مهمة صحفية وانتهت بموتها.

**ملاحظات عامة حول هذه الرحلة :**

– إقامتها المزرية بمرسيليا ثم إلتحاق سليمان هني بها ليتم الزواج الرسمي بينهما .

–تخلي أخيها أوغيستان عنها في الظروف التي مرت بها وبيع الفيلانوف البيت العائلي لها بجنيف الذي لم يكف لتسديد ديونها والعودة للجزائر.

– ذكريات الصحراء الجزائرية عموما والوادي خاصة كانت تطفو على سطح كتاباتها لما وجدته من طمأنينة بها وحلم العودة لها ظل يرافقها.

– نقاشاتها المفيدة مع صديقها فيكتور باروكاند وإقامتها بالجزائر العاصمة والتي وطدت العلاقة بينهما مما أدى به للإعجاب بأفكارها فهو الذي جمع كتاباتها بعد وفاتها وأخرجها للعلن .

– قصصها الجميلة حول زاوية الهامل ومريديها وإقامتها المثمرة أدبيا في منطقة بوسعادة .

– كالعادة الرحالة تسير وتتنقل بحماية السلطات الفرنسية وبمباركة شيوخ الزوايا الذين يتكفلون في كثير من الأحيان بإقامتها ومأكلها وتنقلاتها.

– تكتشف الرحالة ولأول مرة منطقة عين الصفراء في شتاء العام 1903 أو ما كان يسمى الجنوب الوهراني لتكتشف الجنوب الغربي الجزائري وتكون لها عودة في العام المقبل .

– إصرار الرحالة على خوض تجربة جديدة من رحلاتها تجاه الجنوب الوهراني الذي كانت له خصوصياته التي صعّبت من هذه الرحلة وجعلتها تفقد بوصلتها بها.

– قدوم الرحالة لهذه المنطقة كانت له أسبابه وأهمها هي معرفة حقيقة ما يجري من صراع عسكري في منطقة الغرب الجزائري والدليل هو تغطيتها لمعركة المنغار

ومحاولتها للالتقاء بالشيخ بوعمامة فهي تُعد على حد قول إدموند شارل رو أول مراسلة صحفية حربية .

– الملاحظ أن الرحالة لم تعد تهتم بكتابة التواريخ والأماكن المتواجدة بها مما يوحي بفقدانها لقيمة الوقت في هذه المنطقة التي كانت متوترة عسكريا.

– نظرة الرحالة عن بوعمامة لا تختلف عن نظرة الفرنسيين فهي تعتبره قاطع طريق يقود عصابة من المجرمين.

– حديث الرحالة عن منطقة بشار الجزائرية على أنها مغربية يشعر القارئ بجهلها جغرافيا فلو شَبهت المنطقة بسكان المغرب الأقصى في الكلام واللباس والتقاليد لكان ذلك مقبولا.

– كتبت خلال هذه الرحلة ما يشبه القصص والخواطر وتوغلها في أقصى الجنوب الوهراني أعطاها شعورا بالعزلة والوحدة والانقطاع على العالم مما انعكس على كتاباتها في هذه المرحلة الذي يشعرك بذبول ورودها وجنوحها للتشاؤم واستسلامها لمشاعر الحزن والألم وطُفو ذكريات الماضي الأليم .

– اقامتها بزاوية القنادسة وَضعها في ما يشبه السجن بسبب النظام الصارم ووفق التقاليد المعمول بها مما حد من الحرية المطلقة التي كانت تتمتع بها في المناطق الأخرى من الجزائر رغم ترددها من وقت لآخر على الحشاشين ونوادي الغناء والشرب.

– الحمّى التي أصابتها في الزاوية وبقيت تعاودها تنبأ بمشكل صحي مما جعلها تغادر إلى عين الصفراء أين دخلت المستشفى.

– رغم الحمّى بقيت الرحالة وفية للكتابة وكانت آخر كتاباتها "أفراح السود" ، كما بعثت برسالة لزوجها سليمان الذي إلتحق بها على جناح السرعة يوم 21 أكتوبر يوم خروجها من المستشفى لكن المنية باغتتها على إثر الفيضان المفاجئ لوادي عين

الصفراء أين كانت تكتري بيتا ،ويقال أن الرحالة قد خرجت من المنزل الآيل للسقوط ثم عادت لتأخذ أوراقها ويومياتها فسقط المنزل عليها ووُجدت ميتة تحت الانقاض ممسكة بحزمة أوراقها.

– كتاب في ظلال الإسلام الدافئة الذي جمعه فيكتور باروكاند عن رحلة إيزابيل إبرهاردت يعتبر من أرقى الكتابات وأكثرها إنسانية ولمسا للمشاعر والأحاسيس وأعتقد أن هذه الرحلة هي من أكمل كتاباتها ، صحيح أنها كانت متخفية في اسم ولباس طالب تونسي يدعى محمود ولد علي لكن كتاباتها عادت لأنوثتها الطبيعية وكتبت هذه المرة بصيغة المؤنث.

# الفصل الثالث : رحلات إبرهاردت بين الأدبية والتقرير

المبحث الأول : أدبية الرحلة عن إيزابيل إبرهاردت

المبحث الثاني : الملاحظة الأثنوغرافية للرحالة

المبحث الثالث: صورة الجزائري في رحلة إيزابيل إبرهاردت

المبحث الرابع: رحلة إبرهاردت والإستشراق

المبحث الخامس: خصائص رحلة إيزابيل إبرهاردت

المبحث السادس:النص الرحلي عند إيزابيل إبرهاردت

/ البنية السردية والدلالة

**الفصل الرابع: رحلات إبرهاردت بين الادبية والتقرير**

المبحث الأول : أدبية الرحلة عند إيزابيل ابرهاردت

الأكيد أن إيزابيل إبرهاردت كانت تجد في الكتابة ملاذها الأول والأخير فهي تكتب الرسائل باستمرار ودون كلل أو ملل فتراسل من تحب في أوقات حزنها وفرحها وتكتب التقارير الرسمية التي كانت تبعث بها لمختلف المصالح الادارية آن ذاك كما كانت تدون يومياتها وتوثّق لكل ما هو استثنائي في نظرها لتوصله للقارئ كما لو كان يعيش الحدث معها كما أن اختلاطها بمختلف شرائح المجتمع جعل منها دارسة للسلوكيات الانسانية والاجتماعية في آن واحد كما أنها تجعلك تعيش العوالم والتفاصيل التي مرت بها بطريقة تأسر قلب القارئ وتسحره فرحلاتها مزيج من كل الأجناس الأدبية فتكتب في حلها وترحالها كل ما يجول في خاطرها دون أدنى حساب للزمن أو للممنوعات البشرية فإحساسها طاغ في كل ما تخطه اناملها . وقبل أن نطلق أي حكم على رحلة إيزابيل إبرهاردت علينا أولا أن نتقصى أسباب قيام هذه الرحلة والرجوع إلى نقطة البداية من رحلتها علّنا نجد اجابات شافية لبحثنا هذا ،وعليه فالموضوعية واجابة في البحث العلمي من خلال تحديد أهداف رحلتها هاته وهل كانت معدة سلفا أم أن أشياء وحوادث طرأت في طياتها وبين جنباتها جعلت من الرحالة تغير وجهتها وتغرق في تفاصيل الانسانية البريئة المعذبة التي اراد الاستدمار الفرنسي طمس كل هوية اوشعيرة او عادات اوسلوكيات كانت تميزه ؟

والأدب – في المفهوم الحديث – لا يقتصر على الشعر وفنون النثر والسرد، بل تجاوز هذا إلى مختلف الفنون القولية والمكتوبة التي تُعنى بقضايا الإنسان والحياة، فهو " علم يشمل أصول فن الكتابة ، ويُعنى بالآثار الخطية والنثرية والشعرية ، وهو المعبر عن

حالة المجتمع البشري ، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من الناس أو أهل حضارة من الحضارات ."[1]

يشمل هذا التعريف ما يسمى بـ " أدب الرحلات"، حيث ينطبق على مدونات الرحّالة الذي جابوا الأمكنة ، ووصفوا بدقة أحوال الشعوب ، وثقافاتهم ، خلال زمن زيارة الرحالة لهم . وما دام الرحّال قد صاغ ما شاهده وعايشه ، بصيغة أدبية ؛ فإنه يندرج ضمن فنون الأدب . فقد كان نص الرحلة " يُبرزُ في نصوصه المتوارثة إسهام الشعوب كبيرة وصغيرة ، قديمة ومعاصرة في بناء الحضارة ، متوخيا المزاوجة بين المضمون والشكل ليحول منها وحدة مثنية ."[2]

وقد تعددت تسميات هذا اللون من الأدب ، فمنهم من سماه بأدب الرحلة ضمن تسمية تروم تجنيس هذا النص ضمن المنظومة الأدبية السردية ، وهناك من أطلق عليها . الرحلة . فقط ، لتكون مصدرا للمؤرخ والجغرافي والأديب ... ، ولكن يفضل البعض الآخر أن يسميه . النص الرحلي. لأنه " نص لغوي محول قائم بعناصره ورؤاه ، يقود إلى التعامل معه بوصفه نصا مفتوحا على خطابات متعددة، مما يجعل مفهوم الرحلة ... ، يظل دوره ملتبسا وعاما ... ، ومما يدعو بالضرورة إلى فهمه في تعدديته من خلال النصوص ودرجات الوعي به"[3]

أسئلة كثيرة تتطلب أجوبة كافية لكل شغوف اقترب من كتابات إبرهاردت اختلفت من احكام مسبقة حول تعاونها مع السلطات الفرنسية رغم ماكتبته عن مضايقات تعرضت لها وتحذيرات من طرفها بعدم الاختلاط مع المجتمع المحلي ربما لعلمها ان مخالطة السكان المحليين قد يولد التعاطف او الاصطفاف بجانبهم وربما هذا ماحصل بعد ذلك نسبيا.

---

[1] جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، 1984م ، ص316

[2] د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي : التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002، ص39

[3] المرجع السابق ص40.

وهناك من حكم على مظهرها الرجولي وتسميتها ب: محمود السعدي. ونظر إليها بعين الريبة والشك رغم إسلامها ومحافظتها على صلاة الجماعة بالمسجد ، فشك في تدينها لمخالطتها الرجال وتدخينها للحشيش.

وللأسباب سابقة الذكر وجب علينا تغليب العقل وإعماله في التنقيب عن الدرر الكامنة في رحلتها والتركيز على الجانب الأدبي والجمالي للغة وللأفكار المطروحة لنخرج بنتائج تنصف أعمالها أدبيا بعيدا عن الاحكام المسبقة أو محاسبة النوايا والمظاهر الخارجية.

والملاحظ عندها هو ملازمة الاقلام والأوراق لرحالتنا فهي تكتب اليوميات وتؤرخ لها ثم تجدها تكتب رسالة أو تكتب خاطرة أو قصة أو موقفا ازعجها ذلك اليوم ولا يمكننا أن ننسى أن الموت المفاجئ لإيزابيل لم يمهلها جمع أو تصنيف هذه الاعمال وكل ماخرج للعلن من كتاباتها هو ما جمعه صديقها فكتور باروكاند من أوراق ودفاتر صنفت وطبعت بعد وفاتها.

"إن العمل الأدبي ،بالنسبة إليها هو موقف حياتي وآليّة لفضح ممارسات الاستعمار والوقوف إلى جانب المضطهدين،تقول:" إن الشيء الوحيد الذي يساعدني على تمضية السنوات المخصصة لكل واحد منا على وجه الأرض ، هو العمل الأدبي،وهذه الحياة المتخيّلة التي تملك سحرا خاصا،وتوفر لنا مجالا كبيرا لرغباتنا"، هذا إضافة إلى أنها كانت تملك موهبة المحقق الصحافي الذي يدوّن أقل التفاصيل ، وبحيث تقدم الواقع كما هو دون أن تضيف إليه آراءها ومشاعرها الذاتية .لقد كانت تقدم الواقع كما هو ، بوصفها شاهدة ، حتى لو كان هذا الواقع بعيدا عن أهوائها، أو كان ضدّها"[1]

وهذا الرأي لا يخص الاستاذ بوداود عمير فحسب بل العديد ممن تناولوا أسلوب الرحالة ايزابيل ابرهاردت في الكتابة وهو ميلها الى كتابة التقارير الصحفية لذكر الوقائع وما تشاهده وتعايشه يوميا باعتمادها تقنية التصوير في سرد الاحداث وذكر

[1] " ياسمينة"،ايزابيل ابرهاردت ترجمة داوود بوعمير منشورات مجلّة "الدوحة" عدد أكتوبر2015 ص 27

دقائق الامور والمشاهدات حتى تخال نفسك وسط الاحداث مع تحفظنا على وقوفها إلى جانب المضطهدين لأن الرحالة لم تنكر الاستعمار بل تستنكر بعض ممارساته .

وبهذا المعنى– أيضا– تجد ' إدموند شارل رو ' أن إيزابيل إبرهاردت،كانت بعيدة – تماما– عمّا كان يسود ،آنذاك ، من خط بين مصالح السياسة والمال ، كما تعدّها أول امرأة في العالم تغطّي ،صحفيّا ، أخبار الحرب ،ومن قلب المعركة ، وهي تشير بذلك إلى معركة المنغار التي دارت رحاها في الجنوب الغربي الجزائري ، حيث تميزت تغطيتها لهذه الاحداث الدامية بصدق المعالجة والموضوعية في الطرح، فقد كانت تصغي إلى جميع الاطراف المتحاربة ،وتنتقل من مكان إلى آخر قاطعة مسافات كبيرة ،بحثا عن حقيقة ما كان يجري ."[1]

ويضيف المترجم بوداود عميّر " كما تميّزت نصوصها ،أدبيا ، باستخدام كثيف للكلمات العربية داخل النص المكتوب بالفرنسية ،دون أن تجشّم نفسها عناء ترجمتها،فاسحة المجال ،بذلك، للقارئ الأوربي للولوج إلى النص ، بما يحمله من دلالات عميقة الاثر ، وهو شكل، في الاسلوب ،طبع كتاباتها وميّزها عن غيرها من المؤلفين،في الأسلوب ،حيث لا يكاد يخلو نص لها من سرد لكلمات، باللغة العربية الفصحى ،أحيانا ،وبالدارجة الجزائرية في أحيان كثيرة،أحصى منها الباحث محمد رشد ، في كتابه "السفر الأخير في الظل الدافئ للإسلام "أكثر من 100 كلمة على مستوى الكتابات الأخيرة لها فقط وأكبر الظن أنه كان لها الفضل في إثراء جزء من رصيدالقاموس الفرنسي بكلمات عربية ، وخاصة كلمات من الدارجة الجزائرية باتت متداولة ،إلى الآن ،في اللغة الفرنسية ،نذكر على سبيل المثال لا الحصر كلمات "[2] (قبة،برنوس،عمامة،بارود،قوربي،بندير ، غايطة،شاشية،قربة،مكتوب....إلخ )

[1] نفس المرجع نفس الصفحة.

[2] المرجع السابق ص28

ويضيف:" هذا إضافة إلى ماتحتويه نصوصها،خاصة تلك التي تدخل في إطار أدب الرحلات ،من نقل دقيق لهموم السكان الجزائريين وترجمة صادقة لأحاسيسهم ،حيث كانت تنقل ،وبدقة ،كلمات الاغاني الشعبية والاهازيج التي كانت ترددها النساء ، خاصة في أثناء مناسبات الأفراح أو مناسبات الأحزان."[1]

ولنثبت أدبية الرحلة عندها علينا التحقق من هذه الأدبية من خلال اقترابها أو بُعدها عنها ، فمن أهم محددات الأدبية في المتن الرحلي، هيمنة بنية السفر وهذا مايتوفر في رحلتنا التي كانت حقيقية داخل الزمان والمكان يقول عبد الفتاح كيليطو في هذا السياق: "السفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكننا من تلمس خصائص الكتابة، ما دامت الرحلة نوعا أدبيا يقلص من دور المصادقة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد إنتاج النص وقواعد تلقيه معا"[2].

فهيمنة السفر هو ما يميز الكتابة الرحلية كما لاحظناه عند إيزابيل إبرهاردت ثم الإنتاج الأدبي والكتابة أثناء هذه الرحلة هو ما يميزها عن غيرها من الذين يسافرون معها مثلا.

كما نجد تدوين الملاحظات وتأريخ المناطق المُزارة واليوميات وكتابة الرسائل والقصص والخواطر يجعل من رحلتها أدبية بامتياز تستغل فيها كل مشاهدة أو موقف أو صور عينية قصة رائعة تختلف عن الذين عايشوا معها هذه الأحداث وهذا هو الفرق بين الأديب والفنان وبين الإنسان العادي ،كما نلاحظ أن الرحالة تعتمد في الكثير من الأحيان على تقنية الاسترجاع في الأمكنة التي تزورها فالتراكم النصي وخصوصية السرد عندها يجعل منها رحلة متميزة إذا أضفنا إليها الجانب الجغرافي والتاريخي الذي أرخت إليهما من خلال واقعية الأحداث التي سردتها وحقيقة الشخصيات والأمكنة التي عايشتها واقعيا وسارت في دروبها واحتكت بشخوصها ،

[1] المرجع السابق ص28

[2] عبد الفتاح كيليطو: المقامات، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار طوبقال، 1993، ص127

فحتى القصص التي كتبتها كان أبطالها حقيقيون لكن أسلوب الكاتبة وخيالها أضفى عليها من السحر والخيال الكثير .

فرحلتها من خلال نصوصها تجعلك تعيش رحلة جديدة تضيء الرحلة الفعلية السابقة من خلال سردها ووصفها لأدق تفاصيل الحياة وتجعلك تعيش معها الموقف بل واللحظة نفسها في أسلوب أخّاذ لعوالم الأفق البعيد فلا تكاد تقرأ لها حتى تأسرك بعفويتها وصدق مشاعرها ورُقي قلمها ،وإذا كان العديد من الرحالة يهدفون إلى تقديم المعرفة بصورة المكان من خلال المشاهدات والمرئيات فإن الأمر مختلف عند إبرهاردت التي تتعدى ذلك إلى الاهتمام بالبلاغة والأسلوب وانتقاء العبارات مع دقة الوصف وحدّة الملاحظة فشكّل الجانب المعرفي عندها الفارق بينها وبين غيرها، فهي قارئة دائمة ومثقفة من الطراز العالي ، فهي تستشهد بكبار الكتاب والأدباء في الكثير من كتاباتها من اندريه جيد إلى بيار ليوتي إلى جورج ساند إلى فومونتان إلى تولستوي وغيرهم.

والخطاب السردي عندها يجعلها أدبية من خلال الشخصية المركزية للرحالة ومن خلال رحلتها كمنتج سردي إضافة إلى ضمير المفرد الذي تستعمله برحلتها فتغيره على حسب الشخصية الذكورية التي تتقمصها كمحمود السعدي ثم العودة في كتابات أخرى للشخصية الأنثوية .

فحضور الشخصية المركزية في المتن الرحلي لها يرتبط بدورها في صنع أحداث الرحلة، وتنظيمها في مسار معين، وبالإضافة إلى ذلك، فمركزيتها تعود إلى دورها في التأويل من جهة وتوزيع مناطق الكلام والحدث على باقي الشخصيات المرافقة للرحلة، من جهة ثانية، فتجدها توزع الأدوار داخل الرحلة وتقدم الشخصيات وتؤخرهم على حسب مشاهداتها وأثرهم في رحلتها ،كما لا تنسى الرحالة دور الزوايا وشيوخها في تسهيل مهمتها في مختلف مناطق الجزائر من الوادي إلى بشار كما أنها تصف كل

منطقة تزورها بدقة متناهية كما أنها لا تنكر فضل السلطات الفرنسية التي تسهل حركتها خاصة في الأقاليم الصحراوية .

لقد كانت رحلة إيزابيل إبرهاردت صدفة خَطتها الأيام عندما قررت البحث عن قتلة المركيز دي موريس وعندما وعدت زوجته بالحصول على معلومات على اثر توغله وفقدانه في الجنوب التونسي مع الحدود المتاخمة للجزائر لكن وجهة الرحالة تغيرت من المراسلة الصحفية إلى الرحالة التي عشقت الجزائر وجعلت مخططا لإكمال أعمالها الأدبية بداية من رواية راخيل التي أتمها صديقها فيكتور باروكاند بعد وفاتها وثانيا عندما اتخذت من مرسيليا بداية لكتاب رحلتها فتقول عند إقامتها بالوادي في 04 أوت 1900:" اليوم تصل الأمتعة. عندما تصبح إقامتي غير مؤقتة، عليّ أن أشرع في العمل. يجب أن أنجز كتاب رحلتي الذي يبدأ جزؤه الأول في مرسيليا[1] .

وتقول خلال إقامتها بمرسيليا في 20 جويلية 1900"يجب أن لا أتوسع في الكتابة عن مدينة الجزائر... لأنها مدينة معروفة أكثر مما يلزم. ربما عليّ أن أجعل الرحلة الجزائرية تبدأ في بونة وليس في الجزائر وإن كانت هناك أحاسيس تستحق الذكر يمكن تدوينها في شكل ذكر يات من زمن آخر. هي ذريعة لكتابة بعض الصفحات الجميلة الكئيبة على نحو "أخيلة إفريقية[2]."

إذن قررت في تصريح واضح أن تجعل من هذه اليوميات التي تكتبها تمهيدا لكتاب الرحلة الذي لم يكتمل بسبب موتها المفاجئ بعين الصفراء .

[1] إزابيل إبرهاردت عودة العاشق المنفي كتاباتها عن وادي سوف ص14وضعت الكاتبة مخططا للعمل الأدبي الذي كانت تنوي إنجازه . مخطط العمل : إهداء ، مقدمة ، 1 مرسيليا ، 2 العبور ، 3 بونة ( عنابة ) ، ذكريات الوصول إلى هنا وإلى الجزائر ، 4 العلمة ، 5 بسكرة ، المسيات ، 6 الانطلاق على ظهر الفرس . وصف سفر العام الماضي مع إضافة الملاحظات الرئيسية من هذا السفر . 7 تقرت ، 8 الذهاب إلى الوادي . يبدو من خلال هذه المذكرات الخاصة أن الكاتبة لم تعد تفكر في قتلة ( المركيز دي موريس ) الذين وعدت بالكشف عنهم حسب بعض الروايات .

[2] إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر ص 81

**المبحث الثاني:**

**الملاحظة الإثنوغرافية للرحالة**

لطالما اتصلت الإثنوغرافيا بأدب الرحلات حتى أصبحت ملازمة لها بل ويسترسل الرحالة في استعمالها دون شعوره أحيانا فالإثنوغرافيا– حسب حسين فهيم– " هي الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد،والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة "[1]

لقد قدّم الرحالة ، "وخاصة العرب المعلومات القيمة المستمدة من الملاحظة المباشرة والمعاينة الشخصية عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها أو أقاموا فيها وعن طبائع أهلها ومعالم حضارتهم وهذا كله يشكل جوهر العمل الإثنوغرافي [2]" إذن وصف الشعوب ودارسة عاداتها وتقاليدها والمعتقدات التي يصادفها الرحالة تجده يكتبها في طيات رحلته ومراحلها فبالنسبة له هي مشاهدات جديدة وغريبة عن ثقافته جديرة بالتدوين و"من المعلوم أن الإثنوغرافيا فرع من فروع علم الاجتماع كالأنتروبولوجيا والإثنولوجيا. وتدرس ما تدرسه الإثنولوجيا من مواضيع مختلفة؛ حيث تنكب الإثنوغرافيا على دراسة العادات والأعراف والتقاليد والطقوس والمعتقدات الدينية لجماعة محددة، في زمن ومكان معينين، بالتنقيب والاستكشاف ومعاينة الظواهر الإثنولوجية، وتوصيفها بشكل كلي مونوغرافي أو استقصائي شامل."[3]

[1] انظر: حسين فهيم: قصة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، العدد98، فبراير1986م، ص:14

[2] د جان عبد الله توما ، أدب الرحلة والرحالون العرب المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان ط1 2014 ص8

[3] نفس المرجع السابق نفس الصفحة .

أما من الناحية البنيوية "فإن الشبكة الإثنوغرافية المشكلة لبنية النص الرحلي تظهر بشكل كبير على مستوى الكتابة من بداية الحكاية الرحلية المنتظمة من متواليات سردية مترابطة زمنيا ومنطقيا[1]" وهذا ماتوفرت عليه الرحلة التي بين أيدينا التي خططت مسبقا لوضع مسارها وأمكنتها.

لقد كانت إبرهاردت وطيدة الصلة بالمجتمع الذي تعيش فيه ، فقد وصفت في حلّها وترحالها تفاصيل حياة الناس بأدق أمور معيشتهم وخبايا المعاملات بينهم وحتى أسرار البيوت وكأنها من عجائز القرية ، ففي يومياتها المكتوبة رصدت أديبتنا كل ما يجري من حولها من أحداث مختلفة وهي تتنقل من عنابة إلى باتنة إلى ورقلة إلى الوادي ،فتصف العادات والتقاليد وتَذكر من حين إلى آخر غرائب المجتمع من أعمال السحر إلى تهريب النساء من منطقة إلى أخرى ، أما عن أعمالها الأدبية فقد استعارت أسماء الشخصيات التي صادفتها في مسيرتها لتستعملها في قصصها القصيرة كقصة ياسمينة وقصة زهور وقصة مريامة وتاسعديت وغيرهم . في حبكة فنية متمازجة مع المناطق التي زارتها مُشكلة لوحات وتأريخا لمناطق كانت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي ، ففضحت بذلك بعض أعماله من خلال إظهار صور البؤس و الشقاء والحرمان لدى الشعب الفاقد لحريته قسرا عندما تفشت الأمراض والآفات الاجتماعية من دعارة وتدخين للحشيش وغيرها،أما القراءة والكتابة فقد أبرزت إبرهارت فضل الزوايا في المحافظة على اللغة العربية وتعاليم الدين الاسلامي ، يقول جستون كوفي : "عند اقامتي هجم شخص على ايزابيل ابرهاردت وجرحها جرحا بليغا وهي بجوار الشيخ الهاشمي وفي وسط جمع غفير من الاخوان القادرية كانت مسلمة ولا يمكن ذكر التطرف الديني في هذه الحالة"[2] ، ورأيه هذا يتأرجح بين الدافع السياسي بسبب ظلم

[1] أدب الرحلة ملتقى عيون الأدب العربي ماي 2017 مؤسسة آفاق للنشر مراكش المغرب ط1 2017 ص417

[2] جستون كوفي مذكرات حول سوف والسوافة ترجمة عبد القادر ميهي مطبعة الرمال ط 1 2016 ص83

مقدم البهيمة المتعاون مع بيرو عرب للسكان واستفزازه للتجار بدفع المزيد من الضرائب وما شاع عن حقيقة الصراع بين الزوايا في ذلك الوقت وهي قضية للنظر .

فنجد في قصصها وكتاباتها ما يُحيلنا إلى الغوص في النفس الإنسانية بمختلف تقلباتها وأمزجتها التي بلورتها البيئة المعاشة بكل آلامها وآمالها، فالإنسان ابن بيئته ، وللمجتمع تأثير على بناء شخصيته وصقل معالمها الكبرى ،ففي مجموعتها القصصية تؤرخ إبرهاردت بأسلوبها الأدبي الرقيق والمبدع لحقبة من حقب الاستعمار الفرنسي وتصور بالتقنية الفوتوغرافية ،الإنسان الجزائري في معاناته اليومية من أجل لقمة العيش تحت ضغط الفقر والجهل والمرض ، وتُميط اللثام على قضايا تُعد من المحظور في المجتمع الجزائري ، من الخيانة الزوجية نتيجة جور الزوج واستبداد عائلته ، إلى ولوج عالم المومسات ووصف حالهن البائس وهن يبعن أجسادهن بفرنكات قليلة ،مرورا بالوصف الدقيق نتيجة استعمال تقنية سرد دقائق الأمور مما يساعد على تقريب الصورة الحقيقية للأجساد والأمكنة والمواقف الإنسانية ، حتى يخالها القارئ ماثلة أمام عينيه .

فنريد من خلال هذا المبحث كشف حقيقة هذه الكتابات من خلال وضعها على الميزان النقدي المبين للعلاقة بين أدبها وكتاباتها – إبرهاردت – في ظل علاقتها بالإنثروبولوجيا ودراسة العادات والتقاليد والأعراف ومختلف الاشكال التعبيرية للسكان.

فيقول ادوارد سعيد في هذا السياق:" إن الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة هو الاتجاه الذي يضم بشكل عام الدارسين المتأثرين بالنظرية الأدبية ، أو على نحو أكثر دقة واضعي النظريات الحديثة في مجال الكتابة والخطاب وأنماط السلطة ،من أمثال فوكو ورولان بارت وجاك ديريدا ..أقول لم أجد سوى قلة من هؤلاء الباحثين لا يخفون رغبتهم في أن تكون الأنثروبولوجيا والنصوص الأنثروبولوجية أكثر توجها ناحية الادب والنظرية

الأدبية من حيث الأسلوب والرؤِية ، وفي أن ينفق الأنثروبولوجيون وقتا أطول في التفكير في أمر النصية"[1].

فالقارئ لقصصها مثلا يجد هذه التمثلات الأثروبولوجية حاضرة بشكل مكثف من خلال محاولاتها المتكررة لإيجاد العلاقة بين الأنا والآخر فتتوغل في المجتمع بشتى أطيافه لتحاول أن تفك هذه العلاقة وتعرف مدى قرب وتقبل الفرد الجزائري للأخر الاجنبي المستعمر وتركّز على تفوق العرق الاجنبي مع علمها أن الكثير من المجندين من الجيش الفرنسي كانوا من المرتزقة متعددي الجنسيات فنجد حضور الايطالي والمالطي و غيرهم ممن يسميهم السكان بـ" الرومي " فهم محتلون في خدمة الاستعمار سواء عندهم.

فتوظف الرحالة في قصصها خاصة بطل القصة هو هذا الرومي والبطلة المصطنعة الراضخة لأفعال سيدها المتفوق عرقيا والتي تنتمي للسكان الاصليين وتُصورهن ساذجات يَقبلن من يهتك أعراضهن بمجرد تغيير اسمه إلى مبروك أو محمد ونطقه للشهادتين ؟

أما مسألة الشرق والغرب عندها فهي تتباين في موقفها مثلا من المفاضلة بين مرسيليا والجزائر العاصمة مثلا فالأولى تمقتها حد الكره لما وجدته من معاملة قاسية وحضارة متوحشة فيها عكس الجزائر العاصمة التي افتتنت ببهاء معمارها خاصة مسجد سيدي عبد الرحمان بالعاصمة وبروحانياته ونورانيته كما وصفته بيومياتها .

أما موقفها من أشكال التعبير الثقافية في المناطق التي زارتها فهي تتعدى الإعجاب والانتشاء بالبيئة الصحراوية خاصة لتتمنى دفع حياتها ثمنا من أجل البقاء في هذه المناطق التي أحبتها بصدق لأنها منحتها الطمأنينة والسكينة الروحية وصفاء

[1] إدوارد سعيد : تمثيل التابع والمحاورون الأنثروبولوجيون ، فصول، ع:68 الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،2006، ص202.

السريرة فهي تقول في أكثر من موضع أنها لم تعد تطيق خبث وقذارة الحضارة بل وتعلن صراحة أنها لم تعد تطيق العيش في الغرب الذي يسبب لها الإكتآب والحزن.

سكان الصحراء الذين أحبتهم تقول أنهم لم يسألوا يوما عن جنسها ولا سبب قدومها فهي لم تزدري عاداتهم ولم تنكر طريقة عيشهم ولا مساكنهم الهشة لكنها كانت من خلال كتاباتها تنقد بعض الممارسات كتزويج البنات في سن صغير وطقوس السحر التي كانت تجهلها ولم تنكر سلطة شيوخ الزوايا آن ذاك بل كانت في حمايتهم .

كانت ملاحظاتها دقيقة فيما يخص طريقة اللباس ففي وصفها لهيئة ياسمينة تقول: "على رأسها ذي الشعر الصوفي المسترسل ، الحالك السواد وضعت خمارا أحمرا بسيطا ،ملتفا على شكل عمامة مسطحة ومشعة "[1] وفي موضع آخر من نفس القصة : سروال أبيض عريض ، سترة صغيرة من الحرير الملون ،.. كانت ترتدي حذاءا صغيرا جدا من الساتان الأبيض ، بينما كانت البدوية والزنجية ترتديان ثوبا صحراويا ، وهو نوع من الخمار الطويل بلون أزرق غامق ، مشبوكا على الاكتاف على شكل جلباب"[2] أما في تصويرها لنمط العيش للسان الاصليين فكانت تتحدث عن المباني الحديثة في الشمال ووجود القوربيات[3] بالنسبة لسكان الصحراء فتأتي على ذكر الخيم للبدو الرحل والمباني البيضاء المصنوعة من الجبس ذات القباب في منطقة سوف . أما طريقة إحياء الجزائريين لمختلف مناسباتهم فتكتب كل ما يقع عيناها عليها من فهي تصور مثلا قدوم شيخ الطريقة القادرية في ما يشبه موكب الحج والاحتفالات المتكررة لعدة أيام بسبب قدومه لمنطقة الوادي مثلا أو ما ذكرته من احتفالات شهدتها في زاوية الهامل بالمسيلة أو العين الصفراء ،كما تصف طريقة رقص السكان وطرائق

[1] إيزابيل إبرهاردت ياسمينة وقصص أخرى تر بوداود عمير دار القدس العربي 2011 بدعم من جمعية صافية كتو عين الصفراء ص 39

[22] نفس المرجع ص 63.

[3] المباني العشوائية المبنية من بقايا الحجارة والحديد وغيرها

تعبيرهم بالرقص والأهازيج وأيضا النواح إذا تعلق بجنازة بل وتركز أيضا على ذكر الألوان وكل العادات بشيء من التفصيل .

فكانت تعيش داخل هذه اللوحة الثقافية المتعددة لغويا بذكرها لواقع اللغة العربية واللهجات السائدة في المجتمع الجزائري وذَكرت هذا الانسجام رغم تنوعه من اللغة العربية واللغة الفرنسية والبربرية والشلحية والصابير: كما تلم في كتاباتها بالطوائف الدينية الموجودة كالسنوسية والطريقة القادرية والتجانية والرحمانية كما تأتي على ذكر مختلف الاعراق منها الشعانبة والطوارق والمزابية والزواوة والشاوية والبربر والبدو الرحل فتوظف اللغة الفرنسية كلغة للكاتبة لديها أو تستعمل كلمات بالعربية الدارجة بالحروف اللاتينية مثل :السوردي،الغندورة ،البرانس،شكون،وشنوهو،الخماسي ،القربي ، الدوار ، القربة ،الرومي ، الأعور الغيطة، دربوكة،شاشية، حاسي ... كما نجدها تشرح هاته الكلمات في هوامش قصصها[1].

وهذا ما وَقفت عليه الدكتورة باية غيبوب من خلال رصدها لمختلف التمثلات الانثروبولوجية فتقول: " تُعد إيزابيل إبرهاردت كاتبة أنثروبولوجية من نوع خاص، فاندماجها ومشاركتها لمختلف فئات المجتمع الجزائري جعل منها ملاحظة أنثروبولوجية ميدانية تختلف في ميدانها عن الباحث الانثربولوجي الميداني ، هدفها هو استثمار ما وقفت عليه من خصوصيات أنثربولوجية جزائرية وقمع استعماري ،في تغذية متخيلها الإبداعي القصصي و الروائي ورفده جماليا ودلاليا ليس إلا [2]" .

وهذا دليل على كثافة استعمالاتها لأحوال الناس وحرصها على معرفة دقائق خصوصيات السكان والإطلاع على خباياهم لتثري مخيلتها الابداعية وتكون رافدا لا ينضب من القصص والحكاوي.

[1] أنظر كتاب Isabelle eberhardt Yasmina editions lin alevi 1 place pauleve 75005 paris 5e edition 1998

[2] أ د عبد القادر عميش /د باية غيبوب :تجاوز الشعري والجمالي دراسة:دار خيال برج بوعريريج 2020 ص28

وتُضيف " لقد قدمت أعمالها الكاملة لقرائها المفترضين تغطية شبه كاملة للحياة المادية والمعنوية للمجتمعات التي عَبرتها أو أقامت بينها وهذا من شأنه تحفيز الاشتغال على نصوصها لرصد مختلف البنى الانثروبولوجية المعبّر عنها فنيا وجماليا والكشف عن سياقاتها الثقافية والاجتماعية التي صاغت المجتمع الجزائري آن ذاك، في حضور استعماري يمتلك قوى التأثير في المقومات والثوابت الوطنية.[1]"

وهذا اعتراف بغنى اللوحات الأنثروبولوجية التي كانت الرحالة تستعين بهم لبناء الخطاطة السردية لها وتثري قصصها وترصّع مشروعها الادبي بكل هاته المشاهدات والملاحظات مع التركيز على الحضور الاستعماري المهيمن على المشهد الحياتي للسكان.

[1] نفس المرجع السابق ص28.

**المبحث الثالث: صورة الجزائري في رحلة إيزابيل إبرهاردت**

راحت فرنسا منذ احتلالها للجزائر سنة 1830 تطمس كل معالم الهوية الجزائرية وتشن حربا ثقافية واجتماعية ضروسا بمعية الحرب العسكرية فكانت تحطم بنيان المجتمع وترسم أبشع صور الاحتقار والازدراء للمجتمع الجزائري وأطلقت عليه اسم الاهالي كمرتبة أدنى من الفرنسي وبقية الاجناس الاخرى فسوقت للجزائري المجرم والخارج عن القانون والهمجي الغير متحضر حيث "عمد المستعمر على رسم صورة فلكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية.إنها صورة تعكس قبل كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبوتاته العنصرية"[1]

ويضيف الاستاذ الدكتور الطيب بودربالة من جامعة باتنة في معرض حديثه عن صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة أن العديد من الأدباء الفرنسيين الذين كتبوا عن الجزائر هم من رسخوا هذه النظرة العنصرية لدى المتلقي الفرنسي والأوربي بداية من معتنقي المذهب الرومنسي ووصولا إلى سيطرة المذهب الواقعي بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث "حنّطت هذه النظرة الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميكيته وفاعليته وإنسانيته وكينونته التارخية، بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات.توحي هذه الصورة بأننا أمام جماعة بشرية بدائية معزولة في الزمان والمكان ومرشحة للانقراض لتدخل متحف التاريخ"[2]

وقبل أن نكتشف هذه الصورة في طيات رحلتها يجدر بنا معرفة علم الصورة أو الصورولوجيا حيث :

[1] مقال للاستاذ الدكتور الطيب بودربالة " صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة" مجلة علوم اللغة العربية وآدابها جامعة الوادي العدد 02 السنة 2009.

[2] نفس المرجع.

"ترجع بدايات هذا الفرع من فروع الأدب المقارن إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما قامت الأديبة الفرنسية المعروفة"مدام دو ستال" بزيارة طويلة لألمانيا، وذلك في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني، وأثناء الإقامة فوجئت الأديبة بمدى سوء الفهم والجهل الذي يعاني منه الفرنسيون لألمانيا، رغم الجوار الجغرافي، فقد تحقق لها أن الفرنسيين يجهلون أبسط الأمور المتعلقة بالمجتمع والثقافة والأدب والطبيعة في ألمانيا، فرسموا في أذهانهم صورة لشعب فظ غير متحضر، يتكلم لغة غير جميلة، ليس له إنجازات أدبية أو ثقافية تستحق الذكر، له!إنها باختصار صورة يرسمها شعب لشعب آخر يعدّه عدوا"[1]

إذن النظرة المسبقة لأي شعب على شعب آخر يولد ضغائن وأحقاد وكره متوارث يُجهل مصدره بسبب الصورة الخاطئة التي يحملها الواحد على الآخر أو الصورة التي يريد هو أن يراك بها.

"وهكذا كانت محصلة الرحلة التي قامت بها مدام دو ستال إلى ألمانيا كتابا وضعت له عنوانا بسيطا هو "ألمانيا" سعت فيه إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم، لهذا بإمكاننا أن نعدّ هذا الكتاب بداية لما أصبح يعرف بالدراسة الأدبية للآخر (الصورلوجيا)"[2].

وفي معرض الرحلات التي انطلقت من اوربا لاكتشاف افريقيا يتبين لنا جليا ما يحاول الرحالة ايصاله للمتلقي من خلال ملاحظاته ومشاهداته التي يريد تأكيدها بطريقة أو بأخرى على أنها حقيقة وعينيه وكتاباته هي الشاهد عليها .

" إن أهم ما ينبغي التأكيد عليه، هنا، هو أن الصورة التي يرسمها أديب ما لمجتمع أجنبي لا تعبر عن مشكلات ذلك المجتمع وهمومه وقضاياه، ولا تنبع من

[1] الدكتورة: ماجـدة حمـود. مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن اتحاد الكتاب العرب، دمشق: مكتبة الأسد سوريا سنة 2000 ص:108

[2] المرجع السابق ص108.

التزام الأديب حيال المجتمع الأجنبي ومن رغبته في إصلاحه أو تغييره نحو الأفضل، وهي ليست وليدة توحد الأديب مع ذلك المجتمع الذي لا يرتبط به قوميا، فالصورة التي يرسمها الأديب لمجتمع أجنبي تنبع أولا وقبل كل شيء آخر من مشكلات الأديب نفسه ومشكلات قومه في مواجهة الآخر، لذلك تلبي الصورة الأدبية في الدرجة الأولى حاجات نفسية أو فنية أو اجتماعية للشعب الأجنبي، دون أن تلبي حاجات المجتمع المدروس في أغلب الأحيان."[1]

لقد افتتنت إيزابيل إبرهاردت بالبيئة الجزائرية ولاسيما البيئة والمدن الصحراوية، فنجد أن ذلك الحب والوجد الذي كانت تكنه لها قد انعكس انعكاسا واضحا في تصويرها لها، إذ نجدها تصور تلك المدن والأماكن التي شكلت تلك البيئة الجزائرية وخصوصا الصحراوية منها، تصويرا شاعريا فتقف على أدق تفاصيلها، التي بالرغم من قساوتها وصعوبتها المعروفة، إلا أنها تصبها في قالب وصفي جميل وأخاذ معتمدة في ذلك على جميل العبارات والمفردات التي تنتقيها بعناية تامة. فنجدها مثلا تصف منظرا ليليا، من ليالي مدينة وادي سوف،" تلك المدينة الجزائرية الصحراوية الواقعة جنوب الجزائر والتي تبعد حوالي مائتين وعشرين كيلومتر جنوبا عن مدينة بسكرة "[2]،فتقول في قصة – اليد – :" كان الوقت ليلا، بشمال مدينة الوادي على طريق البهيمة،[...] والصمت يخيم على كل المكان.آه من الليالي القمرية على صحراء الرمال، ليال وهل تضاهيها ليال روعة وسحرا وغموضا ؟.

فوضى الكثبان الرملية، والأضرحة والصورة الظلية لمنارة سيدي سالم البيضاء المطلة على المدينة، كل شيء يتلاشى ينصهر يتبدد ويأخذ مظاهر شفافة وخيالية.[3]"

---

[1] نفس المرجع ص110.

[2] إبراهيم محمد الساسي العـوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق : الجيلاني بن إبراهيم العوامر ، منشورات ثالثة، الأبيار، الجزائر2007 ، ص 29

[3] إيزابيل إبرهاردت ، ياسمينة و قصص أخرى ، تر :حسن دواس ، ابداعات عالمية ، مجلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ، العدد390 ، الكويت ، أوت 2012 ، ص 116

و نجدها بالحس نفسه وسحر الكلمات نفسه القائم على رص الكلمات في معادلة أدبية يقل نظيرها، تصور في قصتها –نحيب اللوز – شكل مدينة صحراوية أخرى هي مدينة –بوسعادة–، فتقول: "...تنام بوسعادة، الملكة الضاربة متسربلة بحدائقها الداكنة ومحروسة بروابيها البنفسجية، لذيذة مثيرة على الضفة المنحدرة للوادي حيث يدمدم الماء على الأحجار البيضاء والوردية .وقد انحنت كما على لامبالاة حلم على الجدران الطينية الصغيرة، أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء تحت مداعبة الريح ...وأريجها الزكي يحلق في دفء الجو الرطب ناثرا كآبة مبهمة فاتنة...

إنه الربيع وتحت مظاهر الذبول، ورقة الأشياء الشجية.

تنام الحياة كامنة عنيفة طافحة بالحب والشوق ، يتدفق النسغ الغامر من ينابيع الأرض الخفية، كي تولد في نشوة مولد جديد.[1]"

ولم يقتصر هذا الأسلوب في تصوير المدن الجزائرية على المدن الصحراوية فحسب، بل كان سُنّة يتبعها قلم إيزابيل إبرهاردت كلما صادف مدينة جزائرية شمالية كانت أو شرقية كانت أو غربية او جنوبية ولا أدل على ذلك من تصويرها لتيمقاد– وهو الموقع الأثري المسمى قديما (تاموقادي) المصنف ضمن قائمة التراث العالمي،[2]" والواقع في مدينة –باتنة – بمنطقة الأوراس الأشم مهد الثورات الجزائرية[3]"،إذ اعتمدت إيزابيل إبرهاردت في تصويره على التقنية نفسها التي اعتمدتها في تصوير المدينتين السالفتين–وادي سوف –و– بوسعادة ، حيث تقول : "...تقبع أكواخ قريتها بجنب آثار تيمقاد الرومانية، وسط سهل كبير، تناثرت بين جنباته صخور مجهولة بلا اسم ولا

[1] إيزابيل إبرهاردت ، ياسمينة و قصص أخرى ، تر :حسن دواس ص37

[2] صديقي عز الدين، دراسة أثرية لفوروم تيمقاد ومرافقه، مذكرة ماجستير ، جامعة الجزائر، 2003– 2004، ص32

[3] محمد العيد مطمر، الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعية لسكان المنطقة،(1844–1884)، مجلة العلوم الإنسانية، العدد العاشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 87–91

عمر، حطام تناثر وسط حقول البلان الشائك ذي السيماء الشرسة، النبات العشبي الوحيد الذي استطاع أن يقاوم الحرارة اللفوح لفصول الصيف المستعرة.[1]"

هذا التصوير سالف الذكر كان للأمكنة والأضرحة والمدن التي زارتها وصفا لمشاهدات عينية فكان توثيقا لرحلتها هذه التي إمتزجت أمكنتها من الشمال إلى الجنوب فلا نجد تزويرا أو رؤيا إستشراقية مقيتة إلا عندما نتقصى كتاباتها حول الجزائري فنشتم هاته الرائحة التي تفوح منها صورة الازدراء والانتقاص منها، فالتصوير الذي كان يطفو على سطح كتابات الرحالة لا يختلف عن انبهار المستشرقين بالشرق والصورة التي سافروا من أجل رؤيتها فيقع الانشطار من خلال الدعوة للقيم الإنسانية لكن دون التنديد بالاستعمار لهاته الشعوب فمن خلال اليوميات تقول الرحالة عن الجزائريين: "كم يتشابه العرب فيما بينهم! بالأمس، عند الحاج محمد، ظننت أنني أرى رجالا عرفتهم سابقا في بونة، أو في باتنة أو في الجنوب... ما عدى في تونس أين يختلف الجنس تماما. ما سبب ذلك يا ترى؟ أهو نقص في تطور الشخصية الفردية أم هو تأثير المساواة الإسلامية؟ للاثنين دون شك"[2].

إذن تطلق أحكاما عامة عن نقص في تطور الشخصية الفردية للجزائريين وتتهم أيضا الإسلام في خلق شخصية عامة تبعية لا تُعمل العقل فيما تقول وتَفعل فهي تراهم صورة طبق الأصل عدى ما شاهدته عند التونسيين، وهي لا تختلف عن نظرة المستشرقين الذين يؤمنون بتفوق العرق الأوربي عن غيره.

كما أن صورة المرأة الجزائرية كانت عند الرحالة لا تتعدى المرأة الشهوانية التي تجري وراء غرائزها لتشبعها بأي طريقة كانت عندما وصفت تاسعديت في قصتها الفتاة التي زوجها أهلها لرجل طاعن في السن لتتمرد عن القيم والأعراف وتشبع رغباتها الجانحة خارج أسوار البيت لتهرب مع الفارس المجند بالجيش الفرنسي"وذات مساء، عندما

[1] إيزابيل إبرهاردت ، ياسمينة و قصص أخرى ، تر :حسن دواس ص43

[2] إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر تر عبد القادر ميهي ص86

كانت تنظر حزينة كحيوان سجين إلى قافلة جمال محملة بالقرب من أفران الجبس نحو كثبان وادي العلندة الفضية اللون، أخذت القرار الذي سيجعل من قدرها سجنا مظلما كقدر النغفة"[1]. ونجد هذه الصورة تتكرر في قصة تاعليث وغيرها و"يظهر أيضا أن شرق إيزابيل إبرهاردت يستمد من السجل الاستشراقي الضخم الذي يميل إلى شرقنة وتأنيث الشرق الحقيقي ،من أجل إعادة رسمه تخيليا وإخضاعه لسلطة الرجل الغربي الغارق في استيهاماته ونرجسيته ومغامراته.[2]"

كما تصف الجزائريين الكادحين على أرصفة الموانئ الممتهنين للعتالة فتقول :"هنا، بعيدا عن المواني والمدن المختلفة الاجناس، لاوجود لتلك المخلوقات البشعة، هجين الجنس المنحل الذي يشوه مدن التل[3]"

فصورة العمال الجزائريين الكادحين من أجل لقمة العيش في بلدهم المحتل أصبحوا مخلوقات بشعة بفعل ممارسات الاستعمار وظروف العيش الصعبة فهم لم يختاروا هاته الظروف أو هاته المهنه فأكثرهم ممن فر من مناطق الفقر البعيدة عن التل ومن الذين نهبت فرنسا أراضيهم وهجرتهم قسرا.

وفي وصف مقيت للجزائريين في قصة تحت النير يسأل الضابط: "هل هي حقا جميلة كما تقول؟ أنتم العرب، أبناء الماعز تحبون المرأة السمينة الطرية المليئة شحما. أخذ السمسار يذكر مفاتن المرأة وجمال جنسها كأنه يحاول بيعها إلى الضابط[4]".

وفي قصة النقيب وعلى لسان الجنود الفرنسيين تقول :

"عند وصوله، كان عليه أن يصغي إلى تحذيرات رفاقه الجدد الذين عند احتفالهم بقدومه، شعر بسخريتهم وتظاهرهم بحمايته، مستهزئين بشبابه وقلة خبرته، محاولين

[1] إيزابيل إبرهاردت عودة العاشق المنفي ص147

[2] أ.عبد الرحمن وغليسي جامعة بومرداس مقال بعنوان فلسفة التيه واللعبة الاستعمارية عند إيزابيل إبرهاردت في " ياسمينة " مجلة اللغة والادب جامعة الجزائر 2 العدد:27 مارس 2016 ص268.

[3] إيزابيل إبرهاردت عودة العاشق المنفي ص129

[4] المرجع السابق ص151

التأثير عليه وإثارة دهشته ..... استمع، دون مبالاة، إلى شكاويهم وانتقاداتهم :(( ما من مجتمع راق هنا، تكاسل دائم، ضجر كئيب، بلد بلا جمال. الجزائريون أفظاظ لا يهمهم سوى الربح، أما الأهالي فمنفرون منافقون همجيون، أحط من أي انتقاد، مثيرون للسخرية)).

كل هذا لم يشغله كثيرا بل أعطاه فكرة عن هؤلاء الزملاء الذين يتحتم عليه العيش بينهم[1]"

ومرة أخرى تطلق الرحالة لمخيلتها العنان لوصف الجزائريين على أنهم منفرون وهمجيون وهم أحط من أي انتقاد ومثيرون للسخرية وطبعا تتخفى دائما وراء الشخصيات التي تستخدمها في قصصها وهذا لا يبرر لها إعطاء هاته الصور النمطية عن الشرقي عموما حتى ولو كانت في طيات القصة،ثم تضيف : "رأى جاك في نظرتهم كلهم خشية وحذرا واضحين.

ترتدي مجموعة الرجال برانس ترابية اللون، بشرتهم سمراء ، تتم قسماتهم على شراسة طبعهم، عيونهم ملتهبة تحجبها نقابات وسخة بالية.

أما النساء، فأكثر سمرة من الرجال ... تحمل المسنات اللاتي فقدن معظم أسنانهن وتجعدت بشرتهن ، فوق رؤوسهن ضفائر كثيرة من الشعر الأبيض المصبوغ بالحناء وأخرى من الصوف الأحمر وحلقات ومناديل ...قسمات الصبايا بارزة متناسقة، شهوانية.[2]"

إذن نفس الصورة التي تعيدها إيزابيل إبرهاردت عن الجزائريين رجالا ونساء تحاول تكرارها في أكثر من موضع ، الرجال شرسون عدوانيون ذوي لباس متسخ والنساء شهوانيات و ملامحهم وألوان لباسهم براقة.

[1] نفس المرجع السابق ص157

[2] إيزابيل إبرهاردت عودة العاشق المنفي ص161

ويقول :أحمد منور في معرض حديثه عن كتابات الفرنسيين عن الجزائر "ويجب أن لا يغيب عن ذهني وأنا أتعامل مع هذه النصوص أنني أقرأ لكتّاب فرنسيين بمعنى أنهم ينتمون دما ولحما وشعورا وثقافة ولغة وحضارة إلى البلد المحتل ...لا أنتظر منهم أن يكونوا عادلين ومنصفين إلى الحد الذي يجعلهم يتخلون عن مشاعرهم الذاتية ... خاصة أن الكثير منهم كان يؤمن فعلا بالرسالة الحضارية التي كان الاستعمار الأوروبي يدعي أنه جاء لنشرها في البلاد المستعمرة[1]"

فإننا إذا ما أردنا تقييم الصورة التي صورت بها الرحالة الفرنسية إيزابيل إبرهاردت المجتمع الجزائري إبان فترة الاستعمار الفرنسي، سواء تعلق الأمر بتصوير المدن والأماكن التي كان يقطنها هذا المجتمع، أو بتصوير عاداته وتقاليده وأعرافه، أو بتصوير معتقداته وشعائره الدينية، أو بتصوير نمط حياته، وأسلوب معيشته، لوجدناه تصويرا ينم عن شخصية عايشت هذا المجتمع وتغلغلت في أعماقه وخبرته خبرة جيدة ، وعرفته معرفة تامة، لذلك نجد أن تلك الصورة التي صورت بها هذا المجتمع هي الصورة التي أرادت أن تراها رجال مستسلمون لمطالبها ونزواتها ونساء يعشن الحرية التي أرادت هي عيشها في بلاد الشرق البعيد الذي قرأت عليه قبل مجيئها للجزائر صورة المستشرقين عموما مع إضفائها للمسحة الإنسانية التي لم تغير من بؤس الذين صادفتهم في طريقها من شئ بل أن الذين ساعدوها في الجزائر لم يكونوا من أبناء جلدتها ومع ذلك تصورهم في صورة السذج والمنغلقين عن العالم الخارجي.

أما تصويرها للمباني والبيوت والطبيعة التي تراها عينها فهي السحر الذي يناشده المستشرقون في هذه البنايات البيضاء الغريبة والأزقة والشوارع الضيقة والبنايات الهشة صورة لم تجدها في جنيف أوباريس أو سردينيا أو مرسيليا فهي تجدها في شرقها المنشود الذي تصطدم بالولوج إلى عوالمه فلا أدل على ذلك رسائلها لأخيها أوغيستان

[1] أ د أحمد منور الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر دار التنوير الجزائر ط1 2013 ص 6

وظروف عيشها بالوادي وبباتنة وببوسعادة وببشار والعين الصفراء عندما تحطمت أحلامها على صخور الحقيقة المزرية التي يرزح تحتها الجزائري في تلكم الحقبة الصعبة.

"فمن الناحية الذهنية يؤكد الكثير من الرحالة أن الجزائريين يتمتعون بملكات ذهنية وفكرية تؤهلهم لاستيعاب جميع الآداب والفنون والعلوم[1] "

وهذا الرأي يعتد به أيضا الدكتور أبو العيد دودو حيث يقول وتذكر مجلة الكتب السنوية في نهاية دراستها عام 1830 أن الجزائريين لا ينقصهم الذكاء ولا المواهب ولا القدرة على التطور ولكن الاضطهاد التركي هو الذي تركهم في هذه الحالة التي هم فيها.[2]"

وهذا دليل على أن الصورة التي أرادت الرحالة إيصالها للمتلقي هي صورة مغلوطة ومنافية للواقع حيث تتدخل فيها ذاتيتها التي تطلق العنان للصور النمطية التي قرأت عنها مع تحفظها أحيانا عن بعض الأحكام المسبقة التي تقع فيها فتكتشف العكس .

[1] حسن دواس ديابوراما رحلية للجزائر الثقافية في القرن التاسع عشر دار الوطن اليوم العلمة سطيف ط1 2016 ص 6

[2] د أبو العيد دودو الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ش و ن إ الجزائر 1973 ص 9

**المبحث الرابع : رحلة ابرهاردت والاستشراق**

فالواضح للعيان الآن أن جل الرحالة الغربيين الذين فُتنوا بالشرق وزاروه وكتبوا عنه إما يحملون عنه صورة نمطية يصطدمون بالواقع المزري لتلك البلدان عندما لايجدونها وإما هنالك صورة يريدون هم أن يروا الشرقي على صورتها لذلك "استحوذ النزوع نحو التصوير عالم الشرق ببنيته الروحية والمادية على اهتمام الرومانسية الأوربية بكل مدارسها،وفي شتى أبوابها وأنواعها وأجناسها الفنية.فالرومانسية تبنت الموضوعات والصور الفنية الشرقية وبلورتها ،وطورتها،كما منحتها طابعها ومعاييرها الجمالية الخاصة بها والمميزة لها .ومع هذه المرحلة الفنية بالذات تم الانتقال من مفهوم (الغرائبية) في تصوير الشرق، إلى مفهوم ( الاستشراق) –أي كل ما يتضمنه علم الشرق – وفنونه في الفن الأوربي"[1]

فالشرق يغري بالسفر والمغامرة ،ولهذا فقد كان الشرق تقريبا اختراعا غربيا ،"وكان منذ القدم الغابر مكانا للرمنسة " الرومنس" والكائنات الغربية المدهشة ،والذكريات والمشاهد الشابحة ، والتجارب الاستثنائية.[2]"

لهذا " لقد انحسرت حقيقة الشرق، بوصفه حالةً بدائيةً، والنمطَ النقيضَ لأوروبا منذ أبد الآبدين، والليلَ الخصيبَ الذي ولدت منه العقلانية الأوروبية، انحسرت بلا هوادة متحولةً إلى نوعٍ من المستحاثات النموذجية. وانطلاقاً من هذا الفارق الجذري، كان أن تشكّلت أصول الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا الأوروبيتين.[3]"

[1] د.زينات البيطار –الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي سلسلة كتب عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت العدد 157 شعبان 1998 ص7–8

[2] سعيد إدوارد :الاستشراق ،تر:كمال أبو ديب ،مؤسسة الأبحاث العربية ،بيروت،ط1984،2،ص37.

[3] مجلة الآداب الأجنبية اتحاد الكتاب العرب دمشق سوريا إعادة النظر في الإستشراق إدوارد سعيد ترجمة : ثائر ديب العدد115 صيف 2003 السنةالثامنة والعشرون ص244

كما "رسم بعض الرحالين والتجار الغربيين للشرق في أذهان قرائهم صورة غامضة غربية أو ناقصة مشوهة .وفي طليعتهم ماركو بولو الذي قضى في الشرقين الأدنى والأقصى عشرين سنة ودون رحلته في جزأين حشاهما بغرائب الثراء والأخلاق والأديان..أقلها إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين ! فزار فورير مصر،وأحسن وصف بعض معالمها في كتابه الدليل 1565 وطوف رودزيفيل بسوريا ولبنان وفلسطين ومصر وفصل الكثير من عادات أهلها وأخلاقهم وأحوال بلادهم،واعترف لهم شاردن بأنهم شعب لطيف الأحدوثة خفيف الظل نابه مضياف (باريس 1686)"[1]

فكانت الجزائر محط أطماع فرنسا فكانت تستفز داي الجزائر وتماطل في دفع ديونها "وعند تأزم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة1827 وبداية التفكير في الحملة ضد حكومة الداي، ترجم الفرنسيون أعمال زملائهم الأوربيين والأمريكيين عن الجزائر أيضا، مثل مؤلفات الدكتور شو والقنصل شيلر ،والأديب باننتي.ولعبت مدرسة اللغات الشرقية عندئذ دورا مهما.

وكان زعيم هذه المدرسة بل زعيم الاستشراق الفرنسي في ذلك الوقت هو سيلفستر دي ساسي الذي إعتبره بعضهم هو أبو الإستشراق ومنشىء علم الاستشراق ، وتخرج على يديه تلاميذ من أنحاء فرنسا وأوربا "[2]

لذلك ركز الإستعمار الفرنسي في إحتلاله للجزائر على إكتشاف الصحراء الجزائرية ورصد العتاد والعدة والأموال لاكتشاف مناطق جديدة "ويعتبر شارل فيرو من الاوائل الذين إستعملوا مصطلح الصحراء القسنطينية على الجنوب الشرقي الجزائري والذي كان المترجم الأول للجيش الفرنسي حيث كان مهتما بالدراسات الاثنوغرافية حيث كان يرافق الحملة الفرنسية على قبيلة بني خطاب الشرقية في جوان 1860 كما خضعت معظم الصحراء للسلطة الفرنسية منذ 1901 كما حددت المجال الجغرافي

[1] نجيب العقيقي، المستشرقون الجزء 1 دار المعارف القاهرة ط5 2006 ص 127 –128

[2] د أبو القاسم سعد الله ،التاريخ الثقافي للجزائر الجزء 6 دار المغرب الاسلامي بيروت 1998 ط1 ص(8–9)

لها مع الشمال والحدود مع تونس والمغرب الأقصى بموجب قانون 24 ديسمبر 1902"[1]

وعن الرحلة المكانية والرحلة الروحية والرحلة الادبية يقول الدكتور وحيد بن بوعزيز "لم تكن الرحلة الأدبية عند الكثير من الكتاب والأدباء الفرنسيين والانجليز،خاصة في القرن التاسع عشر ،بمثابة رحلة مكانية فقط،بل ارتبط مفهومها دائما بالرحلة الروحية.ويرجع ذلك إلى الجوع الميتافيزيقي،الذي صار ،بسبب تصاعد وحلول ما يسمى بالقيم الشيئية كبديل للقيم الإنسانية التي حفل بها عصر الأنوار ، سمة العصر وقلقا وجوديا،لهذا عادت موضوعة الشرق ملاذا وحنينا لكثير من الكتاب القلقين،الذين وصل بعضهم إلى حد اعتناق الإسلام كإسماعيل أوربان ونصر الدين ديني (إيتيان سابقا) وإيزابيل إبرهاردت"[2].

ففي رحلة إبرهاردت التي كانت دوما تؤكد على البحث عن إستقرارها النفسي الذي فقدته بسبب موت أمها وأخيها ثم زوج أمها والأهم هو نسبها المجهول الذي كان يؤرقها فاتجهت كغيرها من المستشرقين وهروبا من ضجيج المدن والحضارة الذي يسحبها دائما إلى ذكرياتها الحزينة فهي تناشد الاستقرار في الشرق الساحر الموجود في مخيلة المستشرقين " وقد اعتنق الكثير من رجال الفكر والمستشرقين والرحالة والمكاتبين والشواذ.. وغيرهم من الجمهور الغربي عقيدة الحضارة والتنوير،وزعموا أن الشطر الآخر من العالم يعاني من براثن الاستبداد والعبودية ،ويحيا في كنف التخلف والجهل ، ولهذه الأسباب والذرائع لا غرو أن نرى أرتالا من دعاة الحضارة ينزلون إلى المستعمرات والأقاليم الخاضعة من أجل تخليص الأصلانيين من عذاباتهم ،وانتشالهم

[1] د.علي غنابزية رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي بصحراء قسنطينة (1860-1939 ) مطبعة سامي 2019 الوادي ص 44-45 بتصرف.

[2] د. بن بوعزيز وحيد . رحلة جيرار دو نيرفال إلى الشرق: التواصل المستحيل وتفكيك الكولونيالي مجلة الآداب واللغات جامعة الجزائر 2 جوان 2010
المجلد 4, العدد 4, الصفحة 55-56

من سباتهم ،لكن ادعاءهم التفوق والتميز ورطهم في المشروع الإمبريالي الضخم الذي أيدوه ودعموه بالقدر الذي انتقدوه وتصدوا له . فحين تقرأ أعمال جوزيف كونراد وبيير لوتي وألبير كامو وإبرهاردت إيزابيل تلمس الازدواجية في الحكم وانشطار الذات بين النزعة الإنسانية والولاء الاستعماري المخيب للآمال."[1]

ومع توالي البعثات الفرنسية لاكتشاف الاراضي الجزائرية البعيدة تمهيدا لاحتلالها ووصولا الى رحلة ابرهاردت التي اكتشفت الجزائر أول مرة بعد توغلها بالجنوب الجزائري قادمة من تونس في سنة 1899 والتي لايمكننا الجزم بأنها رحلة إستكشافية بقدر ما هي رحلة البحث عن الذات وترميم الماضي والهروب من واقعها المؤلم على الأقل فيما كتبته وصرحت به في كتاباتها كما لايمكننا أن نبرأها من المشاركة في اللعبة الإستعمارية فأخاها أوغيستين كان يعمل بالجيش الفرنسي وتزوجت بعد ذلك بسليمان هني وهو أيضا يشتغل بالجيش الفرنسي كما كانت متعاونة في كتابة التقارير عن أحوال المجتمع الجزائري وطريقة عيشه مع الجنرال لوتي ومما لا شك فيه أن إيزابيل إبرهاردت اعتمدت في ارتحالها بين ربوع الجزائر على مبدأ التوصيات ودخول البلاد بأهلها وبحماية السلطات الفرنسية ثانيا لذلك نجدها في رحلتها للوادي تنزل في ضيافة وحماية شيخ الزاوية القادرية بعد تلقينها مبادئ القادرية على يديه فكانت تناديه ب(سيدي ) ،كذلك الأمر بالنسبة لرحلتها للقنادسة ( بشار) للنزول بزاوية الاخوية الزيانية المتواجدة خارج الحدود الجزائرية الخاضعة لسيادة سلطان فاس المغربية منتحلة اسم محمود ولد علي، مثقف تونسي شاب ينتقل من زاوية لاخرى للدراسة وبذلك تضمن لنفسها مكان آمن وحراسة ومنزلة لديهم فترتحل مع الجزائريين وإليهم، لكن ماهي الصورة التي نقلتها عنهم وأوصلتها لغيرها ؟ وهل أنصفت الجزائري ووصفته

[1] أ.عبد الرحمن وغليسي جامعة بومرداس مقال بعنوان فلسفة التيه واللعبة الاستعمارية عند إيزابيل إبرهاردت في " ياسمينة " مجلة اللغة والادب جامعة الجزائر 2 العدد:27 مارس 2016 ص258.

بموضوعية وواقعية وبتجرد من النظرة الكولونيالية أو نظرة المستشرقين المليئة بالأحكام المسبقة الموروثة عن الشعوب المستعمرة تحت شعار تصدير الحضارة؟

وإذا أردنا الحكم على الكاتبة من حيث ولائها فهي تقر بولائها لفرنسا واحترامها للعلم الفرنسي وأنها لم تسئ يوما لمصالحها بل وتصرح انها تدافع عن مصالحه الاستعمارية قبل طردها من الاقاليم الجزائرية كلها مدنية كانت ام عسكرية بعد حادثة البهيمة حيث تقول قبل عودتها مرة أخرى للجزائر :

" ...أنا أتساءل عن دواعي هذا الإجراء. أنا الروسية المتيقنة بأن لا شيء يؤخذ عليّ. أبدا، لم أشارك ولم أعلم بأي عمل معاد لفرنسا. لا في الصحراء ولا في التل. بالعكس، لقد دافعت بكل قواي على المرحوم نائب ورقلة الذي مات بكل فخر مدافعا على العلم الفرنسي، وفندت اتهامات بعض المسلمين الذين يجهلون كل شيء عن الإسلام الحقيقي-. إسلام القرءان والسنة – الذين يتهمون النائب بخيانة الإسلام لما ساعد فرنسا على التمركز في "إن صالح".

...كنت أتكلم دائما وفي كل مكان للأهالي في صالح فرنسا التي هي موطني بالتبني. لماذا إذن هذا الإجراء الذي يجرح شعوري بصفتي روسية ويحزنني كثيرا لأنه يفرق لشهور طويلة، بيني وبين خطيبي ضابط الصف في ثكنة "باتنة"[1].

فهاهي قبل طردها من الأقاليم الجزائرية بعد حادثة محاولة الإغتيال بالبهيمة[2] تقر بولائها لفرنسا وتعاونها معها صراحة.

وإذا عرجنا على ماكتبته الرحالة من قصص وما تطلقه من أحكام إستشراقية لا عد لها ولا حصر ففي قصة تحت النير تصور تاسعديت الفتاة الشهوانية التي تريد إشباع رغباتها بطريقة حيوانية

[1] إيزابيل إبرهاردت على الرمل أثر :ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي ، مطبعة الرمال الوادي 2015 ط1 ص189

[2] بلدية حساني عبد الكريم حاليا ولاية الوادي .

كما وصفت الجزائريين بالجمود الفكري والجزائريات بالشهوانية في ملمحهن وملبسهن ونظراتهن .

فدُون شك "تطلق إبرهاردت حكما استشراقيا مقيتا تفوح منه رائحة العنصرية ،وتسفيه الدين والثقافة الإسلاميتين .فهي تلصق بياسمينة نموذج الجاهل المطبق بتعاليم دينه ، المنغمس في الخرافات وترهات القدر الحتمية ،التي تجعل الشرقي يستسلم لكل ما هو غيبي وعصي عن التفسير ،منساقا وراء المظاهر الخادعة،لا يشكك ولا ينتقد ولا يفكر في الأسباب والمسببات. إنها لغة التعميم والأحكام المسبقة التي لم تستطع إبرهاردت التملص منها رغم إسلامها ،وعيشها على الطريقة العربية ، متنكرة في الزي الرجالي العربي في كثير من الأحيان.[1]"

إذن وقعت الرحالة في فخ الأحكام المسبقة والصور النمطية التي كتبها ورواها من زار الشرق قبلها فأرادوا الشرق كما تصوروه في أذهانهم المريضة ونزواتهم الحيوانية التي وصفوا بها غيرهم فهذا الإسلام الذي إعتنقته الرحالة تقول أنها إعتنقته مع أمها في بونة في العام 1897 ثم نجدها تعتنق الإسلام مرة أخرى على يد الشيخ الهاشمي شيخ الزاوية القادرية بالوادي في العام 1900 مما يثير الشك والريبة أيضا عن سبب تبنيها للطريقة القادرية مع علم السلطات الفرنسية للعداء والحساسية بين الطريقة القادرية والتجانية آن ذاك مما أحدث بلبلة في أوساط سكان سوف أدت لمحاولة إغتيالها، كما أن تنسيق رحلاتها داخل الجزائر كانت تحت رعاية ما يسمى بيرو عرب في المناطق العسكرية وفي التل تحت رعاية السلطات الفرنسية أو بتوصيات دائمة أينما رحلت وحلت .

[1] أ.عبد الرحمن وغليسي جامعة بومرداس مقال بعنوان فلسفة التيه واللعبة الاستعمارية عند إيزابيل إبرهاردت ص266.

صحيح أن الرحالة كانت تصف الحالات الإنسانية التي تصادفها وتتعاطف معها لكن لم تحاول يوما تغيير أحوال هؤلاء الفقراء والمضطهدين فهم مجرد شخوص عابرة تطرّز بها يومياتها أو تجعل منهم مادة دسمة لقصصها .

وعن هذا التنميط في الخطاب الاستشراقي يقول : لونيس بن علي "يفتقر الشرقي عند كرومر إلى العناصر الأساسية التي تصنع منه إنسانا متحضرا ، فهو يفتقر إلى النشاط وتغيب فيه روح المبادرة وفي المقابل يجد متعة فيما يلقى عليه من مديح وتملق ، ناهيك عن صفات التآمر والمكر والقسوة ولأن التنميط لا يكتسب معناه إلا لكونه يبرز القيم المناقضة للمنمّط فصفات الشرقي تمثل الصورة المناقضة تماما للأوروبي[1]"

أما معارضة الرحالة لممارسات الاستعمار والثورة على قراراته لا تتعدى الغضب والتنديد الآني الذي يزول باستعانتها مرة أخرى بالسلطة الفرنسية لتسهيل رحلتها أو قضاء حوائجها حيث:

"انغمست إيزابيل إبرهاردت مثلها مثل بقية المستشرقين والمغامرين في المشروع الإستعماري الذي ينشد بناء إمبراطورية تسودها وتحكمها الروح الغربية المتفوقة لكن إيزابيل تشكل حالة شاذة واستثنائية في علاقتها المتوترة في كثير من الأحيان مع المستعمر فهي رغم معارضتها المستميتة النظام الكولونيالي وإرباكه من الداخل تُقدم له الكثير من التنازلات والخدمات بصفة رسمية[2]"

مما يجعلنا نصنفها ضمن المستشرقين الحالمين بسحر الشرق والميدان الفسيح لإشباع رغباتهم المكبوته سواء أكانت جنسية أو نفسية أو الفضول الذي تقتحم من خلاله خصوصيات هؤلاء السكان الطيبين فمرة تقتحم عالم الرجال فتصف أدق تفاصيله ومرة

[1] د لونيس بن علي إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية دار ميم للنشر الجزائر ط1 2018 ص 121

[2] العين الثالثة تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي مجموعة من الأكاديميين إعداد حياة أم السعد تقديم وحيد بن بوعزيز دار ميم للنشر الجزائر ط1 2018 ص97

تصف عالم النساء الذي اقتحمته بوقاحة المسترق للنظر فلم تشذ عن غيرها من المستشرقين.

فإذا بحثنا لها عن عذر يبرئ ساحتها من تهمة الإستشراق لما وجدنا لها إلا عبارات ومشاعر ضلت حبيسة نصوصها تصف فيها الجزائر بشمالها وجنوبها تغدق فيها بعبارات الحنين والحب وصفا يليق بالممدوح فلا فضل لها عليها حيث "تمثل أعمال إبرهاردت بما تجسده من مفصلة للتماهي الفضائحي مع الآخر إقلالا في الخطاب الكولونيالي الاستشراقي عاملة على خلخلة نظامه ومنكرة لعلاقات السلطة القمعية لديه ولكن بسبب من معرفة نصوص إبرهاردت بالآخر وبما هي شهادة على التقييدات الاستراتيجية للنظام الكولونيالي فإنها تستحيل إلى مصدر من المعلومات تفيد منه السلطة الكولونيالية التي تعارضها مما يتيح للنظام إنتاج كيان كولونيالي أكثر فعالية[1]"

والخلاصة أن الرحالة تخدم المشروع الكولونيالي من حيث تدري أو من حيث لاتدري فهي ترسخ أقدام السطة الإستعمارية وتعترف بفضله في تنقلاتها وفي ترحالها وإقامتها بالجزائر بل أنها تزوجت بسليمان هني زواجا مدنيا بمرسيليا كي تعود للجزائر بعد حادثة محاولة إغتيالها بوثائق فرنسية .

[1] علي بهداد الرحالة المتأخرون، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري تر ناصر أبو الهيجاء منشورات كلمة أبوظبي ط1 2013 ص237

**المبحث الخامس: خصائص فن الرحلة عند إيزابيل إبرهاردت**

لقد كانت رحلة إيزابيل إبرهاردت مميزة على عدة مستويات أهمها أنه لا يوجد كتاب يخصها قد دون هذه الرحلة من البداية إلى النهاية كما عهدناه في أدب الرحلات التي تنطلق من البداية لتتخذ مسارا دائريا نحو طريق العودة فإما يكتبه الرحالة بنفسه أو يسرده بعد رجوعه، وما كتبته من يوميات ينبأ بنيتها بجمعها في كتاب يؤرخ لرحلتها هاته وهذا ماكتبته في مرسيليا حول خطة هذه الرحلة وأعمال أخرى كانت تكتبها وتجمعها في أوراق وكراريس لطباعتها يوما ما، إذن كتابة رحلتها هذه تطلب منا إقتفاء أثرها وجمعنا كل ما كتب خلال هذه الفترة التي حددناها منذ دخولها للجزائر أول مرة من عام 1897 إلى وفاتها عام 1904.

ومما يتجلى لنا واضحا البنية العامة في أسلوب الرحلة لإيزابيل إبرهاردت الذي يطغى عليه الأسلوب الصحافي أولا بسبب عملها كمراسلة صحفية نشرت رسائلها وقصصها في جريدة لادييباش دالجيري والتي كانت تكتبها أثناء رحلاتها المتتالية للجزائر فكانت تركز في كتاباتها على تسجيل الواقع المعاش ،فلاحظنا أن رحلاتها ذات طابع تسجيلي يعتمد على الاسلوب المباشر والتقرير لذلك ظهر أسلوب كتابتها لرحلاتها اسلوبا بسيطا عاديا يعتمد على اليوميات التي كانت تسجلها ،كما لاحظنا عدم استرجاع الرحالة لصورة بلادها المأسورة داخل كل مرتحل بل لا تكاد تذكرها أصلا فكانت الرحالة ناقلة للأخبار.

وتظهر الرحالة متذبذبة في كتاباتها تسيطر عليها اللحظات الآنية فتجدها تسجل ثم تنقطع عن الكتابة ، فيومياتها تمتاز بتقطع خيط السرد ويظهر ذلك في الانتقال من موضوع إلى آخر دون مقدمات ، كما يطغى عليها الطابع الانطباعي لأنه رصد لحالات نفسية مضطربة في إطار ما يعرف بتيار الوعي، فتسجل ما يرد على خاطر دون تكلف ولا تفكير في توفير بنية محكمة لما تكتبه.

والواضح من خلال الكآبة المسيطرة على يومياتها ، أنها متأثرة بالمذهب الرومانسيّ أو الرومانتيكيّ الذي ظهر أوائلَ القرن التاسع عشر ميلادي، وبظهورِهِ اكتسحَ ثقافةَ أوروبّا السائدة في ذلك الوقت، واستطاعَ أن يحلّ محلَّ الكلاسيكيّة، حيث جاء هذا المذهب كردّة فعل على الكلاسيكيّة ذات القيود والنظام الصارم، حيث تمَلمَلَ الأدباء من هذا المذهب وثاروا عليه، كما كان للفوضى السياسيّة الناتجة عن الحروب التي تفجرت آنذاك كحروب نابليون والصراع على المستعمرات والحروب بين الدول المتجاورة في أوروبّا أثرٌ في انتشار هذا المذهب فظهرت الرومانسيّة كمذهب أدبيّ، وبدأ الناس يدركون معناها الحقيقيّ التجديديّ وثورتها ضدّ الكلاسيكية، واتجه صوبَها

كما تتميز يوميات إبرهاردت التي تشكل رحلتها بالتمركز على الذات أي التبئير الذاتي و هو تقليص حقل الرؤية عند الراوي وحصر معلوماته وسمي هذا الحصر بالتبئير لأن السرد يجري فيه من خلال بؤرة تحدد إطار الرؤية وتحصره ، وما ميز يومياتها هو التّبئير الدّاخلي المتعلق بالترهين السردي الذي تكون فيه الرؤية مقتصرة على الشخصية أي تعبير عن وجهة نظر شخصيّة فرديّة ثابتة أومتحرِّكة،وتكون معرفة الرّاوي هنا على قدر معرفة الشّخصيّة الحكائيّة ، فلا يقدِّم لنا أيّ معلومات أو تفسيرات إلاّ بعد أن تكون الشّخصيّة نفسها قد توصّلت إليها، مما يعني أن زاوية رؤيتها ومشاهدتها للأحداث والشخصيات هي الزاوية التي سينظر منها القارئ لهذه الرحلات فسجلت ما كانت تعتقد أنها الحقيقة والواقع والحكم يكون للمتلقي في القبول أو النقد.

ففي كتاباتها تستعمل ضمير المتكلم (أنا) دائما فتحاول إيصال كل مشاهداتها ومحادثاتها عبر هذه الانا لتوصل لنا ما تعتقد أنها الحقيقة من زاوية نظرها الأحادية.

كما ولعت ابرهاردت بالوصف باعتباره فن من فنون الاتصال اللغوي الذي يُستخدم لتصوير المشاهد أو الشخصيات أو التعبير عن المواقف والانفعالات الداخلية والمشاعر، ويمكن اعتباره رسماً دقيقاً لصور الأشياء باستخدام الكلمات؛ لإيصالها

للقارئ بصورة يخال بها أنه يرى الموصوف رأي العين ورحالتنا تتميز بالوصف الانفعالي: ويسمى أيضاً بالوصف الوجداني أو الذاتي، وفيه لا يكتفي الواصف بوصف الشيء فقط بل ينتقل إلى إضافة مشاعره وخيالاته أثناء ذلك.

كما سيطرت على الرحالة مشاعر التشاؤم ، والهروب من الواقع المزري ، والفرار إلى العزلة والانطوائية ، والانطلاق إلى عالم الرؤى والخيال والأحلام من الظواهر التي سادت في هذه الحقبة فلم تنفرد ايزابيل إبرهاردت بهذه المشاعر بل كانت سمة الرومانسيين عامة اضافة الى شدة التأثر بمظاهر الطبيعة المختلفة.

**أما الملاحظات العامة لرحلات إبرهاردت فقد أجملناها في مايلي:**

– رجوع الرحالة إلى سويسرا لم يوح في البداية بعودتها للجزائر وتونس على اعتبار أن رحلتها هذه كانت مليئة بالمآسي وخيبات الأمل من وفاة أمها وانتحار أخيها وموت زوج أمها ودخولها في مرحلة متقدمة من الكآبة ووصولها لحافة الجنون مما أدى بالسلطات الاستعمارية الفرنسية إلى إعطائها إجازة نقاهة إلى تونس سمحت لها برؤية صديقها علي عبد الوهاب .

– القدرة العجيبة للرحالة على الاختلاط بالسكان في الجزائر وعنابة وتونس بلبسها الرجالي بل وبمبيتها حتى في المقاهي بمدينة عنابة والتي لم توح للمتسكعين معها بالأنوثة التي كانت تخفيها تحت شخصيتها الذكورية هذه الجرأة التي أكسبتها حبا وغرابة ودهشة لكل من يقترب منها فهي تتغلغل داخل النسيج العمراني والسكاني وتُخالط فقراء الناس بطريقة سحرية.

– ذكريات الصحراء الجزائرية عموما والوادي خاصة كانت تطفو على سطح كتاباتها لما وجدته من طمأنينة بها وحلم العودة لها ظل يرافقها.

– نقاشاتها المفيدة مع صديقها فيكتور باروكاند وإقامتها بالجزائر العاصمة والتي وطدت العلاقة بينهما مما أدى به للإعجاب بأفكارها فهو الذي جمع كتاباتها بعد وفاتها وأخرجها للعلن .

– قصصها الجميلة حول زاوية الهامل ومريديها وإقامتها المثمرة أدبيا في منطقة بوسعادة .

– كالعادة الرحالة تسير وتتنقل بحماية السلطات الفرنسية وبمباركة شيوخ الزوايا الذين يتكفلون في كثير من الأحيان بإقامتها ومأكلها وتنقلاتها.

– قدوم الرحالة لمنطقة الجنوب الوهراني وصولا لبشار وعين الصفراء كانت له أسبابه وأهمها هي معرفة حقيقة ما يجري من صراع عسكري في منطقة الغرب الجزائري والدليل هو تغطيتها لمعركة المنغار ومحاولتها للإلتقاء بالشيخ بوعمامة فهي تُعد على حد قول إدموند شارل رو أول مراسلة صحفية حربية .

– الملاحظ أن الرحالة لم تعد تهتم بكتابة التواريخ والأماكن المتواجدة بها مما يوحي بفقدانها لقيمة الوقت في منطقة بشار وعين الصفراء التي كانت متوترة عسكريا.

– نظرة الرحالة لبوعمامة لا تختلف عن نظرة الفرنسيين فهي تعتبره قاطع طريق يقود عصابة من المجرمين.

– حديث الرحالة عن منطقة بشار الجزائرية على أنها مغربية يشعر القارئ بجهلها جغرافيا فلو شَبهت المنطقة بسكان المغرب الأقصى في الكلام واللباس والتقاليد لكان ذلك مقبولا.

– كتبت خلال رحلتها للقنادسة ما يشبه القصص والخواطر وتوغلها في أقصى الجنوب الوهراني أعطاها شعورا بالعزلة والوحدة والانقطاع على العالم مما انعكس على كتاباتها

في هذة المرحلة الذي يشعرك بذبول ورودها وجنوحها للتشاؤم واستسلامها لمشاعر الحزن والألم وطُفو ذكريات الماضي الأليم .

– اقامتها بزاوية القنادسة وَضعها في ما يشبه السجن بسبب النظام الصارم ووفق التقاليد المعمول بها مما حد من الحرية المطلقة التي كانت تتمتع بها في المناطق الأخرى من الجزائر رغم ترددها من وقت لآخر على الحشاشين ونوادي الغناء والشرب.

– كتاب في ظلال الإسلام الدافئة الذي جمعه فيكتور باروكاند عن رحلة إيزابيل إبرهاردت الأخيرة للقنادسة يعتبر من أرقى الكتابات وأكثرها إنسانية ولمسا للمشاعر والأحاسيس وأعتقد أن هذه الرحلة هي من أكمل كتاباتها ، صحيح أنها كانت متخفية في إسم ولباس طالب تونسي يدعى محمود ولد علي لكن كتاباتها عادت لأنوثتها الطبيعية وكتبت هذه المرة بصيغة المؤنث.

**المبحث السادس:النص الرحلي عند إيزابيل إبرهاردت – البنية السردية والدلالة .**

إن الطبيعة الغنية للكتابة الرحلية جعلت دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارس، فيجعلها المؤرخ نصا تاريخيا يستفيد منها بالكثير من المعلومات المتصلة بالبلدان المزارة ، ويجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر عليها، كما يجد فيها الباحث الإثنوغرافي كثيرا مما يود معرفته عن الشعوب التي تحدث عنها الرحالة، كما يجد فيها الباحث في تاريخ الأفكار ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يجليها الرحالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحالة في أحضانها، ويجد فيها غير هؤلاء مبتغاهم من المعلومات والمعارف التي تزخر بها، لذا لم يستقرّ مفهوم أدب الرحلات بعد على تعريف شامل جامع لماهيته فلا تزال ماهيته تنفلت من كلّ تحديد ولايزال الاختلاف حوله قائما ولعلّ مردّ ذلك راجع إلى اختلاف طريقة القراءة لدى كلّ باحث كما أنّ عدم الاتّفاق على مفهوم قارّ وثابت لأدب الرّحلة وتعدّد مسمياته وهذا يدّل على موسوعيته وعلى الحريّة التي يمتّع بها وهو يتحرّك عبر العديد من الأجناس ، الأمر الذي يجعل منه أدبا إشكاليّا حقا يطرح ما لا حصر له من الأسئلة المقلقة المحيّرة في الآن ذاته،

وهكذا ظلّ تحديد خطاب أدب الرّحلة ملتبسا وتعيين نوعيته مبهما وتدقيق طبيعته مستعصيا بل مستحيلا. وقد عزا الباحث شعيب حليفي، صعوبة تحديد وصياغة مفهوم واضح لأدب الرّحلة إلى عدّة اعتبارات أساسية نذكر منها:

– غياب تعاريف دقيقة وعدم الوعي بالرحلة الأمر الذي نتج عنه غياب تقعيد واضح للمفهوم، سواء عند الرحالة أو عند اللّغويين العرب.

– وجود نصوص رحلية كثيرة ثرية ومتنوّعة، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كلّ النصوص الرّحلية.

– انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى متحرّكة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص[1].

ويبدو أن سمة الانفتاح هي من أبرز السمات التي تصعّب على الباحث الوصول إلى تعريف مستقّل لأدب الرحلات على اعتبار أنّه نسيج لوشائج متعالقة من الأشكال والأجناس، كما أنّ تعدّد الرؤى والتوجهات واختلاف زوايا النظر بين الباحثين من شأنه أن يقف حائلاً أمام تسييج هذا الحقل الموسوعي ووضع أطر له.

تحليل نص الرحلة الذي أردناه هنا مستوحى بدرجة عالية من مقولات نورمان فاركلوف Norman Fairclaugh في كتابه (تحليل الخطاب– التحليل النصي في البحث الاجتماعي) وهي مقولات مستلهمة من الألسنية الوظيفية النسقية بشكل أساسي، من حيث اهتمامُها بالعلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية. ذلك لأننا نعتقد بأن نصوص إيزابيل إيبرهاردت الرحلية على اختلاف صيغها (مذكرات، يوميات، تقارير، رسائل...) وطيدة الصلة بالفضاء الاجتماعي الذي كانت تتحرك ضمنه. فهي بحكم هويتها واهتماماتها وجدت نفسها تراقب الحركية الاجتماعية وتصدر عليها أحكاما، وتصفها وتعلّق عليها...مما يجعلها في صوب التفاعل الثقافي. من هذا الجانب فنصوصها الرحلية أقرب إلى الوثائق السوسيولوجية منها إلى الأدب بمعناه الخالص.

ولكن تلك النصوص، ليست تقارير جافة دائما، ففي كثير من الأحيان تتخذ صيغة أدبية راقية ، لذلك ارتأينا أن نطعّم تحليلنا بمقولات مستلهمة من علم السرد ، أو طرائق التحليل السردي، خاصة ما تعلق منها بمفهوم السارد العليم، والرؤية، والاستباق والاسترجاع...إلخ.

[1] ينظر، شعيب حليفي: الرّحلة في الأدب العربي، ص 82.

إذا كانت اللغة هي المكون الرئيسي في تشكيل هويات الشعوب، فإن المجتمع هو الوعاء الذي تصب فيه كل الثقافات والهويات، الذي إذا تصدع أعيد جبره من خلال اللغة.

على إثر ذلك باتت اللغة واحدة من أشد الظواهر الإنسانية تشعبا باعتبارها نظاما معقدا من الرموز التي تحمل في طياتها معاني مختلفة، فهي من أهم المنافذ المستخدمة من أجل الولوج إلى عمق الثقافة والبنية الاجتماعية بل وصياغتها وتوريثها لتكون بذلك واحدة من أهم العوامل الأساسية في بناء وتكوين المجتمع، لتشارك وبشكل أساسي وفعال في تحديد الهوية الجماعية للمجموعة البشرية التي تتحدث بها، هذا الذي يؤكد على وجود علاقة بين كل من اللغة والمجتمع، فهما وجهان لعملة واحدة لا يوجد مجتمع دون لغة ولا لغة من دون مجتمع .

يَعتبر نورمان فاركلوف النصوص عناصر في الاحداث الاجتماعية ويتساءل عن النصوص والأصوات التي يتضمنها النص وماهي الاصوات التي يقصيها فيقول:

"يوجد تباين هام بين التناص والمسلمات :يفتح التناص المجال واسعا أمام الاختلاف بجلب أصوات أخرى إلى داخل النص،في حين تختزل المسلمات الاختلاف مفترضة وجود أرضية مشتركة .وبعبارات أخرى ، يقوي التناص البعد الحواري والاختلاف في النص، الحوار بين صوت المؤلف والأصوات الاخرى في حين تضعف المسلمات هذا البعد."[1]

كما يؤكد نورمان فاركلوف أن النصوص والأحداث الاجتماعية يمكن أن تمزج بطرق متنوعة ويمكن اجمالها في سيناريوهات هي :

- الانفتاح على الاختلاف قبوله والاعتراف به

[1] نورمان فاركلوف، (تحليل الخطاب) التحليل النصي في البحث الاجتماعي، . ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة-2009 ص93

– التشديد على الاختلاف والنزاع والجدل

– تحييد الاختلاف والتركيز على المشترك والتضامن

– الاجماع تطبيق وقبول الاختلاف في السلطة التي تحيد الاختلافات في المعنى وقواعد السلوك أو تقمعها.

ففي رحلتنا إذا أردنا تتبع صوت المؤلف والأصوات الاخرى للاحظنا أن ايزابيل ابرهاردت لا تجد حرجا في جلب الاصوات الاخرى لنصوصها ولوجدنا أنها اكثر انفتاحا على الغير فهي الملاحظة المنتبهة لما حولها ففي نصها بعنوان (خريف في الساحل التونسي ) حينما شارك صوتها أصوات الشخوص الاخرى من أمثال محمد بن محمد بن الضو حين مساءلته في شأن دفع الضرائب كذلك اصوات أحمد الصبايحي وسي ابراهيم وخادم سي العربي و الفارس البدوي فهي لا ترى حرجا في الاختلاف بينها وبين من تصادفهم عبر مراحل رحلتها لكن قد تبدي رأيها في بعض النصوص وتدون الملاحظات الهامة كلما اقتضت الضرورة لذلك أي تعقيبا أو تنويها أو رفع لبس.

تستخدم ابرهاردت في نصوصها الرحلية التناص الذي تستشهد به كلما اقتضت الحاجة لذلك من خلال استعمالها لمقولات بيير لوتي واندري جيد و دوستفيسكي وفرومنتان وتوليستوي ،كما تستعمل الايات القرآنية وبعض أقوال شيوخ الطريقة القادرية .

كما لا ننسى أنها تستعمل المسلمات أيضا في نصوصها أي ما اصطلح عليه الناس وأصبحا مسلما بينهم لا يحتاج الى استشهادات فهي تستعمل المكتسبات القبلية التي اصبح مسلما به كأحكام لايبحث الناس لها عن تعريف او اصطلاح.

أما على مستوى السرد " ومادة الحكاية هي المادة أو المضمون الذي تم تحويله إلى حكاية ، إنها سلسلة من الاحداث المرتبطة منطقيا والمتتابعة زمنيا .والحكاية مادة تم تقديمها بطريقة معينة ،يتضمن ذلك ،على سبيل المثال ، ترتيب الاحداث في تتابع يمكن أن يكون مختلفا عن ترتيبها الزمني الفعلي، وتحديد فاعلين اجتماعيين ينجزون الاحداث الفعلية ، ووسم الفاعلين بميزات خاصة تحولهم إلى شخصيات ،وتركيز الحكاية عن طريق ربطها بوجهة نظر معينة .ويمكن أن تظهر الحكاية نفسها

في عدد من النصوص السردية ، نصوص يقص فيها الراوي الحكاية بوسيلة اتصال معينة ، على سبيل المثال حكاية في محادثة ،أو في قصة اخبارية بالراديوا ،أو في قصة إخبارية متلفزة ،أو في وثائقي ،أو في فيلم." [1]

وما يهمنا هنا ما يلي:

– في النص الرحلي، السارد (ومن ورائه الكاتب) ليس بإمكانه أن يكون ساردا عليما يحيط بكل شيء، لأن نص الرحلة أساسا ليس نصا تخييليا، وبالتالي فإن السارد لا يمتلك زمام الحبكة، ولا يتحكم في المتواليات السردية من الوضعية الافتتاحية إلى الوضعية الختامية. لأنه لا ينقل إلا ما يقع تحت عينيه.

من هنا يتحول السارد من سارد عليم إلى سارد مراقب لما يحدث عن كثب، دون أن يحيط بنهايات الأحداث التي يصفها، وقد أطلق النقاد على هذه الرؤية "الرؤية المصاحبة " أو الرؤية مع، والمقصود بها أن الراوي والشخصية الحكائية متساويان في الرؤية فلا يعرض الراوي أي معلومات أو رغبات إلا عندما تتوصل لها الشخصية الحكائية نفسها، وكأنهما يسيران معًا في خطين متوازيين أثناء السرد، ولا يسبق أحدهما الآخر ولا يتأخر عنه، وتغلب على هذه النوع من الرؤية ضمائر المتكلم وضمائر الغائب.

[1] المرجع السابق ص 167–168.

هذا النوع من الرؤية السردية هو ما سماه توماشفسكي بالسرد الذاتي، وذكر أنّ الراوي يتبادل المعرفة مع الشخصيات خلال سرد الوقائع، ومن الممكن أن تكون الشخصية هي نفسها الراوي، وتغلب هذه الرؤية السردية على الروايات ذات الطابع الرومانسي، أو روايات البطل الإشكالي، أو الروايات الشخصية، أي التي تكون سيرة ذاتية أو عرض ذكريات شخصية.

وأحيانا تستغني إيزابيل إيبرهاردت عن هذه الرؤية لتتبنى الرؤية من الخارج أي التي يكون فيها الراوي أصغر أو أقل إلماما بما يحدث من الشخصية الحكائية في السرد، أي أنّ الراوي لا يعرف عن الشخصيات الحكائية إلا القليل، والذي يساعد في اكتشاف هذا النوع من أنواع الرؤية السردية هو أن يكتفي الراوي بالوصف الخارجي والذي يُرى بالعين، دون أي محاولة لعرض تفاصيل الشخصيات ومكنوناتها، أو عرض رغباتها الخفية.

وهذا بالضبط مايميز الكتابات الرحلية عندها فهي توغل في الوصف الخارجي وتركز على المشاهدات العينية فكتاباتها تمتاز بالتسجيلية الآنية للأحداث والشخوص فترى أن الشخصيات المذكورة في نصوصها هي شخوص عابرة لا تعدو أن تكون ديكورا سرديا.
ففي يومياتها خريف في الساحل التونسي تحت عنوان "أميرة" تقول:
حين انضمامها إلى قافلة صغيرة مكلفة من السلطات التونسية ببعض التحريات المختصرة وبجمع الضرائب العربية، المتأخرة الدفع دائما.
" تتكون القافلة من خليفة قائد المنستير، عربي من تونس رهيف نحيف، عديم الشخصية تماما،عادل وليس قاسي القلب وخاصة ليس جشعا، كاتبي ضبط عربيين مسنين متصلبين في الأفكار والتصرفات القديمة، لطيفين جدا ومتسامحين ومبتسمين دائما. ثم أحمد رقيب الصبايحية، وهراني، خليط غريب من اللطف الصبياني والعنف

الوحشي، من الطيش ومن الأفكار الأكثر عمقا مما يتطلبه وضعه الاجتماعي... أخيرا بدو يرتدون البرنس الأحمر أو الأزرق وهم صبايحية ودوائر المخزن"[1].

وتبقى الرحالة تواصل وصف شخوصها في يومياتها دون أن تبحث في حيثيات حياة أو معيشة أي منهم فالوصف الخارجي هو ديدنها فلا تكلف نفسها الغوص في تفاصيل حياتهم أو شخصياتهم بل تكتفي بالوصف الخارجي لهذه الشخوص.

فتقول في وصفها لزيارتها لمنطقة البهيمة بالوادي التي تعرضت فيها الى محاولة اغتيال "يوم 29جانفي1901 كنت اصطحب أحدهم، سيدي الهاشمي الى قرية البهيمة... مع خادمي، وهو سوفي، وكان يرافقني راجلا. دخلنا منزل المسمى سي ابراهيم بن العربي. بقيت في قاعة فسيحة تفتح على بهو يؤدي الى الساحة العامة أين يقف جمع كبير من بينهم خادمي الذي كان يحرس حصاني.

كان هناك خمسة أو ستة من الأعيان العرب من المنطقة وما جاورها، كلهم تقريبا من

إخوان الطريقة الرحمانية. كنت جالسة بين شخصين من هؤلاء، صاحب البيت وتاجر شاب من قمار يدعى أحمد بن بلقاسم."[2]

أما إذا انتقلنا الى مستوى وصف الامكنة لدى الرحالة في مختلف نصوصها فهي تتأرجح بين الامكنة المفتوحة من خلال وصفها لمصائد التونة بتونس ثم وصف غابات الزيتون في السهول التونسية وأشجار التين الشوكي ثم وصف الصحراء التونسية الغربية المحاذية للصحراء الجزائرية.

وتقول أيضا:"مررت خلف المقهى عبر أزقة رملية فسيحة، بين المنازل التي أصبح نصفها أطلالا.[3]"

[1] على الرمل أثر يوميات ايزابيل ابرهاردت 1900-1903 تر- ع القادر ميهي ص 21-22

[2] المرجع نفسه ص 180

[3] عود ة العاشق المنفي يوميات 09-10-1900 ص 29

ونجدها في زيارتها لزاوية الهامل ببوسعادة في جويلية 1902 تصف أيضا الامكنة وصفا خارجيا فتقول: "إن الزاوية تظهر لنا على المرتفع : بنايتان كبيرتان، واحدة بيضاء ناصعة، من الطراز الأوروبي والأخرى من الطوب الفاتح اللون به فتحات ضيقة نادرة.

في الأسفل، مجموعة منازل من الطين ثم قرية قبيلة الشرفة، ركام عجيب من المنازل القديمة تشبه كل تلك البنايات المشيدة من الطوب.

وفي الأسفل أيضا، بحر من الاخضرار الذي يعلوه النخيل كالظلّة الهائلة.

يرتسم كل ذلك بدقة متناهية ولطيفة على الهضبة التي تأخذ مسحة من اللون المتعذر التحديد.[1]"

إلا أننا نلاحظ صعوبة ولوجها إلى الأماكن المغلقة بسبب خصوصية المناطق التي زارتها في الجزائر خاصة ، ونعتقد أن شخصيتها الجريئة هي التي صعبت مهمتها في إختراق الأمكنة المغلقة ما عدا وصفها الداخلي لمنزلها خلال اقامتها بالوادي وتعترف بصعوبة الولوج إلى البيوت والامكنة الخاصة للجزائريين حين تعترف بذلك حين تقول في زيارتها لزاوية الهامل و محاولة مخالطتها للسكان: "لكي تعيش بين هؤلاء الناس ال كتومين الحساسين، يجب أن تلج أفكارهم وتتبناها وتطهرها بأن ترجع بها إلى أصولها القديمة... عندها، تصبح الحياة سهلة ولطيفة في هذا العالم من البرانس والعمائم، الموصد عن ملاحظة السائح مهما كان يقظا وذكيا."[2]

ونجد وصفها للزاوية الاخوية الزيانية عند زيارتها للقنادسة وصفا داخليا يصف الاقواس والابواب الكبيرة المتتالية والغرف المظلمة عند استقبالها بتوصية من الاخوة بعين الصفراء" بدأت عيني تتعود على الظل وبدأت أتفقد المكان- خاصة من الجانب

[1] على الرمل أثر يوميات ايزابيل ابرهاردت 1900-1903 تر- ع القادر ميهي ص238
[2] المرجع نفسه ص239

الأمني– يؤدي سلم ضيق وعر من الحجارة السوداء الى السطح الى اليسار دعامة جوفاء... مجهزة بموقد من الحديد لتحضير الشاي... حوض مربع اربعة اعمدة ملتصقة بالجدار باب من خشب غرفة الضيوف هذه قديمة جدا[1]" .

أما لولوج الرحالة للفضاءات النسوية فعلينا أن ننوه إلى الازدواجية المربكة التي كانت تعيشها الرحالة فعند دخولها للأراضي الجزائرية كانت ترتدي لباس الرجال وتعيش مرة بشخصية محمود السعدي ومرة بمحمود ولد علي في زيارتها الاخيرة للقنادسة مما صعب عليها ولوج علم النساء فهي محل شك وريبة من طرف السكان لكننا نجدها تصف هذه الفضاءات النسوية خاصة في رحلتها ل بوسعادة جويلية 1902 حين تقول : "وجوه سمراء تحت العمائم البيضاء أو الخمار الممسوك بحبال دقيقة من وبر الجمال لونها بنّي فاتح، وجوه وقورة زهدية، أعين صهباء غائرة، تنيرها شعلة مظلمة تحت إفريز القلمونة (قلنسوةالبرنس)، السبحة معلقة على الرقبة، هيئة من عصر آخر، من عالم آخر تقريبا.

الزي النسائي أكثر تعقيدا : قماش موصلي يلبس كالقميص اليوناني، يشده حزام منخفض جدا، تسريحة الشعر ضخمة، عريضة، كل هذا لا يوات سوى النساء الطويلات القامة النحيفات والرشيقات خاصة. لسن هن من نرى في الشوارع بل مومياء مسنة منهكة، محزنة.[2]"

أما وصف الرحالة للفضاءات الرجالية فقد كانت هي الطاغية على كتاباتها فهي تخالط الرجال وتتجول إما مع خادمها أو برفقة زوجها سليمان هني أو برفقة شيوخ ومريدي الزوايا التي زارتها اما بالوادي أو ببوسعادة او بالقنادسة كما لا ننسى أن اقامتها بالجزائر العاصمة كانت ايضا بضيافة فيكنور باروكاند كما لا ننسى اقامتها السابقة

[1] ايزابيل ابرهارت في ظلال الاسلام الدافئة تر ع القادر ميهي ص 53–54

[2] على الرمل أثر يوميات ايزابيل ابرهاردت 1900–1903 تر– ع القادر ميهي ص248

بتونس والتي كانت ايضا برفقة علي عبد الوهاب التونسي فهذه الفضاءات الرجالية هي فعلا ما كانت تحياه حتى انها كانت تصف خلواتها مع المتشردين خلال اقامتها بعنابة وهم لا يعلمون انوثتها التي تخفيها تحت اللباس وخلال اقامتها بالقنادسة ايضا حينما كانت تدخن الحشيش مع شباب الزاوية الاخوية بعيدا عن سلطة الشيوخ والآباء.

أما في وصفها للفضاءات المقدسة فقد كانت الرحالة مولعة بهته الاماكن وتصفها بكل جوارحها وصفا دقيقا وخلال زيارتها للجنوب التونسي تقول : "مسجد صغير فظ، أصفر ترابي اللون، يذكرني ببنايات الطوب في الجنوب، بعض المنازل من نفس المسحة المغراء، بعض الأطلال، بعض القبور المنثورة بالصدفة : تلك هي أول ضيعة في أميرة، سيد النعيجة."[1]

كما تصف مسجد سيدي سالم بالوادي ومقبرة أولاد حمد أيضا والزاوية القادرية اضافة الى وصفها لزاوية الهامل بالمسيلة وزاوية الاخوية بالقنادسة ، كما انها حضرت بعض الجنائز ووثقتها بيومياتها .

كما تذكر في يومياتها بكافيلياري 9-1-1900 " . ثكنات تشبه كثيرا تلك التي في الجزائر، مستطيلة سقوفها منخفضة يكسوها القرميد الأحمر، زال ملاط جدرانها البرصاء الذهبية اللون كالباقي.

جدران مطلية بالوردي الفاقع أو بالأحمر الدموي أو بالأزرق السماوي كالبيوت العربية...كنائس عتيقة مظلمة مليئة بالمنحوتات والفسيفساء المرمرية. بذخ كبير في بلاد البؤس والقذارة هذه. ممرات مقوسة، حيث يدق وقع الأرجل ويرسل صدى طنّان. أزقة متشابكة تصعد ثم تنزل تقطعها أحيانا سلالم من الحجر الرمادي وبسبب ندرة السير عليها، تكسو أحجار البلاط، في أعلى المدينة، أعشاب دقيقة ذابلة تكاد تكون صفراء.

[1] المرجع السابق ص15

تفتح الأبواب على أقبية عريضة في الأسفل أين تعشش أسر بائسة في الظل والرطوبة الدائمة.

أسر أخرى تعيش في أبهاء مقوسة أو على سلالم من الخزف الصيني.

دكاكين صغيرة بمعروضات ألوانها صارخة، حوانيت شرقية ضيقة يغمرها الدخان تنبعث منها أصوات أخنّة مرتعشة.[1] "

وما نلاحضه من خلال وصفها لكل هاته الفضاءات هي تركيزها على الوصف الخارجي للشخوص والاشياء التي تصادفها ، كما يكون وصفها دقيقا عندما يتعلق الامر باهتماماتها كوصفها للباس وذكرها للألوان وللعادات والتقاليد فيخلف وصفها ويتباين من حياد تارة عندما يتعلق الامر بوصف مجهول وإعجاب حين تصف محبوبا اوصديقا او مكانا تقيم فيه ، أما الموصوفات التي كانت الرحالة تقرف منها فهي في كثير من الاحيان تتعلق بلباس وسخ أو شخص فض الطباع أو أماكن قديمة متسخة غير مرتبة تظهر انزعاجها منها.

أما دلالة ذلك حسب رأينا فهي الحياة الغربية التي كانت تعيشها الرحالة بجنيف والتي حالت دون تأقلمها مع الوضع الجديد الذي كانت تسمع عنه إما عن طريق مراسلاتها بداية من اوجان لوتور المجند الفرنسي بالجزائر ثم مراسلاتها مع أخيها اوغيستان ثم زيارتها لعنابة ثم الجنوب الشرقي والعاصمة والجنوب الغربي فالبون واسع والحياة في المدينة لا تقارن بالحياة في الصحراء التي كانت ترزح تحت الحكم العسكري عكس مدن الشمال التي كانت تحت الحكم المدني والفرق شاسع في هذا .

فقد قدمت الى هاته الاماكن لترى ماتريده لكنها وجدت ما لا تريده من فقر وبؤس وحرمان .

[1] المرجع السابق ص29

والخلاصة أن الاوصاف التي كانت تنعت بها الامكنة والشخوص لا تعدو أن تكون وصفا أدبيا ضمن ما تأثرت به الرحالة وقرأت لهم من الرومنسيين المولعين بالوصف والطبيعة ، أما واقع معيشتها فقد كان عكس ذلك تماما.

وإذا تحدثنا عن الزمن في النص الرحلي عامة فهو يعتمد على الاسترجاع أي سرد ما حدث بعد حدوثه بزمن ما، ولكن يحدث أحيانا أن يكون السرد متزامنا مع الأحداث، لأن النص الرحلي قد يحدث طابع المتابعة الآنية والوصف الحيّ...لهذا لا نجد الاستباق ونجد أكثر الاسترجاع.

وهذا ما لاحظناه من خلال رحلتنا هاته حيث أن ابرهاردت كثيرا ما كانت تتذكر أمها التي توفيت بعنابة في بداية استكشافها للجزائر لكنها باتت تذكرها في مذكراتها بعد ذلك الزمن بسنين ، كما نلاحظ أن تأثر الرحالة بزيارتها لمنطقة الوادي لأول مرة وعند عودتها لجنيف استرجعت تلكم الايام الخمسة عشر الي ذكرتها وعزمت على العودة مرة أخرى لهذه المناطق الصحراوية البعيدة عن صخب الحضارة التي تميزها العفوية وطيبة سكانها وعدم ازعاجهم للغريب حتى انها كانت تستغرب لعدم اكتشاف هويتها الانثوية ؟.

فاعتمادها على تقنية الاسترجاع يجعلها تتذكر بين الفينة والأخرى مالم تكتبه حول رحلتها وتستدركه فتقول في احدى يومياتها :

"مرسيليا في 8/7/1901 التاسعة مساء

الرحيل عن الوادي يوم ( 25/2/1901الإثنين الساعة الواحدة والنصف مساء)

ذهبت صحبة الطبيب حتى تغزوت، من هناك إلى بيت سيدي الحسين. أمضيت الليلة هناك. يوم 26على الساعة 8انطلقنا رفقة لخضر الدايرة 1والتحقنا بباقي القافلة المتوغلة بين الكثبان.

يوم 26 وصلنا الى بير بوشامة عند الغروب تقريبا. سماء سوداء، جو رمادي مظلم، ريح عاصفة وباردة قادمة من الشمال[1]".

كما نلاحظ أن الرحالة حريصة على تدوين رحلتها اما على شكل يوميات أو رسائل أو قصص قصيرة لها علاقة مباشرة بالأحداث الآنية التي تعيشها ونستشعر دائما في كتاباتها حضور العفوية والوصف الخارجي لما تشاهده ومسابقة الزمن في محاولة كتابة كل ما تشاهده فنجدها مثلا في رحلتها للوادي الاولى والثانية تركز كثيرا على توثيق كتاباتها بالساعة واليوم والسنة وفي رحلتها الاخيرة للقنادسة نلاحظ ان هذا الوهج قد خف بريقة وأصبحت كتاباتها اكثر ادبية مع اهمال عامل التدوين الزمني.

أما التزامن الزمني في سرد الأحداث فهو السمة التي طبعت يوميات الرحالة فقد كانت حريصة على كتابتها في زمن حدوثها ما عدا ماذكرناه من استرجاع او استدراك لأحداث لم تدون من قبل ، كما ان الرسائل التي كانت تكتبها هي أيضا مؤرخة في ساعتها ويومها وسنتها أما القصص التي كانت تكتبها فهي حوصلة لقريحتها الادبية من خلال ملاحظاتها اليومية لحياة السكان وطريقة عيشهم وممارستهم لحياتهم اليومية والدليل على ذلك أن معظم القصص تحمل أسماء انثوية متداولة مثل تاسعديت وياسمينة .

والسؤال الذي يمكننا طرحه بعد هذا المستوى من التحليل هل تكلمت إيزابيل باسمها صراحة أي إيزابيل المرأة الشابة الاوربية القادمة من جنيف بكل خلفياتها الثقافية؟

أم اتخذت قناعا وأسماء مستعارة اختفت من وراءها ؟ولم هذا التنكر؟ هل لدواعي أمنية أم لأسباب أخرى؟

[1] المرجع السابق ص 140

وللإجابة على هذه الاسئلة كان لزاما علينا العودة إلى المدونة الرحلية عندها لنكتشف أن ابرهاردت كانت في كثير من الاحيان تستشهد بأقوال بيار لوتي تتذكر رواياته منها الصبايحي وآزيادي وأيام في السينغال ، حيث كان يذكر أنه كان يتنكر في زي امرأة ليلتقي بحبيبته، وربما كان التأثر الأول لرحالتنا وأخذ فكرة التنكر من هذا الكاتب الذي كان ينتمي إلى الاكاديمية الفرنسية رفيعة المستوى.

فتقول في احدى مذكراتها وقدومها لتونس : " وأنا متنكرة في زيّ رجالي بشخصية مستعارة، خيّمت آنذاك في دوار من قيادة المنستير مع سي العربي، الخليفة. لم يشك الفتى أبدا في أنني امرأة. كان يناديني أخي محمود فتقاسمت معه حياته وتنقلاته وأعماله لمد شهرين.[1]"

كما أنها تتكلم كثيرا بصيغة المذكر وهي التي قدمت نفسها عند قدومها للوادي باسم محمود السعدي وهاهي مرة أخرى تقدم نفسها للأخوية الزيانية بالقنادسة على أنها محمود ولد علي الطالب التونسي الذي ينتقل من زاوية لأخرى لتلقي العلم وقد قدمت الى هناك بتوصية من الزاوية الاخوية الزيانية بالعين الصفراء التي كانت تربطها علاقات مميزة مع الطريقة القادرية.

فهي تقول : "استقبلنا ثلاثة او اربعة عبيد كرر لهم مرشدي ما قاله قدور او بركة : أنا سي محمود ولد علي شاب تونسي متعلم أسافر من زاوية إلى اخرى للدراسة.[2]"

و إشكالية التأنيث والتذكير في نصوص الرحالة تباينت من خلال الفترات التي عاشتها في الجزائر ففي فترة إقامتها بالوادي كانت تكتب بصيغة المذكر واخفت هويتها حتى على المقربين منها أي حقيقة وكتابة، أما في رحلتها الى زاوية الهامل بالمسيلة وزيارتها لبوسعادة فلم تكن تخفي شخصيتها الانثوية حقيقة وكتابة، لكن الملاحظ من خلال

[1] على الرمل أثر يوميات ايزابيل ابرهاردت 1900-1903 تر- ع القادر ميهي ص14

[2] ايزابيل ابرهارت في ظلال الاسلام الدافئة تر ع القادر ميهي ص52

رحلتها الاخيرة للقنادسة هو اخفاء شخصيتها الانثوية حقيقة وإظهار الشخصية الانثوية من خلال كتاباتها .

ففي نصوصها تظهر قرائن المؤنث و المذكر على حسب المنطقة التي تتواجد بها الرحالة ويبدو أن الدواعي الأمنية وما تعرضت له ابرهاردت من محاولة اغتيال بمنطقة البهيمة له علاقة بهذا التوجس اضافة الى تأثرها ببيار لوتي أدبيا .

أما الشخصية الاوربية المتحررة للرحالة فتظهر في آراءها وملاحظاتها حول الاحداث والشخوص المحيطة بها ولا نجد حضور خلفيتها الاوربية الا من خلال رسائلها لاخيها اوغيستان حينما تشتكي اليه سوء معيشتها ومقارنتها بما كانت تحياه هناك في جنيف.

أما الموضوعات والقصص التي سردتها على وجه التعميم فكانت تتعلق بالحياة الاجتماعية للسكان وطريقة معاملة الاستعمار لهؤلاء الناس اضافة الى استباحة الجنود والضباط الفرنسيين والمجندين الاجانب لخصوصيات السكان واستباحتهم للأعراض.

والسؤال الذي يبحث عن اجابة في رحلتها :هل رسمت ابرهاردت صورة عن الوضع القائم اذاك أم انها رسمت صورة لحالها وما كانت تعيشه من حالات نفسية مضطربة؟

والملاحظ في رحلة ابرهارت هو تيمة السفر بعتبارها تيمة بارزة بل انها مكون اساسي تدور في فلكه باقي التيمات كما نلاحظ تيمة اللقاء " باعتبارهاجوهرا مركزيا في البناء الفني... لان الاحداث لا تتنامى ولا تتطور بل تتحدد بلقاء شخصية من الشخصيات التي ينتج من خلال لقائها موضوعات معرفية متنوعة ينقلها الرحالة موظفا الخطاب غير المباشر ."[1]

فلقاء الرحالة بعلي عبد الوهاب التونسي شكل موضوعات سردية عدة ادت الى اكتشاف الرحالة لهذه البيئة الجديدة فقد كانت تراسله قبل ذلك ولولا محنتها بوفاة امها

[1] حياة أم السعد النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية دار رؤية مصر ط1 2017 ص122

ورحلتها لتونس لما كتبت ما كتبته عن ازقة العاصمة التونسية والفضاءات المشكلة للعمران والشخوص المختلفة، اضافة الى رحلتها للسهوب التونسية التي اكتشفنا من خلالها مدى دقة وصفها ومشاهداتها العينية لمختلف المناطق التي زارتها .

كما كان اللقاء بشيخ الزاوية القادرية بالوادي منعرجا للتغير الذي حدث في حياتها والذي أمّن لها اكتشاف هاته المناطق البعيدة عن المدنية ، كذلك الامر بالنسبة للقاء الرحالة بفيكتور باروكاند الذي أمن لها مصدر رزق جعلها ترجع مرة أخرى للجنوب الغربي الجزائري لتغطية معركة المنغار وكمراسلة لصحيفة الاخبار جعل قريحتها الصحفية وأعمالها الادبية تأخذ منحى مرموقا في الادب ودون أن ننسى القاء الذي جمعها بالجنرال ليوتي الذي فتح لها مجال الانطلاق والتجوال في المناطق الغربية للوطن بحرية أكثر رغم اجواء التوتر الامني الذي ساد المنطقة.

فبتحليلنا لرحلة ابرهاردت وجب علينا ان نعود إلى الرواية عند باختين والتي يقول عنها :"إن الرواية تشتمل على نسق أدبي للغات ، وبدقة أكثر ، على نسق لتشخيصات اللغات ، وتتمثل المهمة الحقيقية لتحليله أسلوبيا في أن نكشف داخل جسم الرواية جميع اللغات المفيدة في توجيهها وفهم درجة الانزياح القائمة بين كل واحدة من اللغات وبين المستوى الدلالي الاخير للرواية والزوايا المختلفة لتكسير النوايا... اذا كان هناك خطاب مباشر للكاتب فان على التحليل ان يكشف عن الخلفية الحوارية المتعددة اللغات .[1]"

والشيء المميز لهذه الرحلة أنها لم تكن كتابا يروي احداث هذه الرحلة من البداية الى النهاية بل كانت مجموعة من اليوميات والملاحظات اليومية والرسائل والقصص التي تركتها الرحالة بعد موتها المفاجئ والذي جمع شتات هذه الكتابات فيكتور باروكاند لذلك نلاحظ ان هذه الرحلة لم تحترم استمرارية الموضوعات التي كانت تعالجها

[1] ميخائيل باختين الخطاب الروائي ترجمة محمد برادة دار الفكر القاهرة مصر ط1 1987 ص163

فالبداية كانت معلومة لكن النهاية كانت غير متوقعة أما التمثلات المعرفية للرحالة ورسم صورتها وصورة الآخر فتميزت رحلة ابرهاردت بطغيان صوتها على مجريات الرحلة كما كانت حريصة على جودة خطابها السردي ولو انها كانت تستعمل العامية الجزائرية تارة والعربية الفصحى تارة اخرى فقد كانت البنية السردية لقصصها خاصة تمتاز بالحبك الجيد واستعمال الشخوص المختلفة والملاحظ هو وجود بطل دائما في قصصها.أما الخطابات الغيرية فقد كانت ثانوية في العديد من اعمالها فصوت الانا كان طاغيا على بنيتها السردية عامة .

وبانتقالنا الى مستوى آخر من التحليل لنستنطق رحلتها وهذا يحيلنا الى " الحديث عن الاجناس المتخللة يربطنا مباشرة بباختين لانه في تنظيره لاسلوبية الرواية ضبط اهم اشكال التعدد اللغوي الذي يمكن ايجاده في الرواية الاوربية على اساس ان الرواية هي الجنس الذي يسمح بان ندخل في كيانه جميع الاجناس التعبيرية الاخرى سواء اكانت ادبية ام غير ادبية "[1]

وبما ان الرحلة تمتاز بالواقعية دون ان ننسى انها تمنحنا جانبا معرفيا يتمثل في المعلومات التاريخية والجغرافية والحياة الاجتماعية وتصوير طبائع البشر ومعاملاتهم في طابع ادبي وفني ، ورغم الاسلوب الراقي الذي كتبت به ايزابيل ابرهاردت نصوصها إلا ان حالاتها النفسية المضطربة والظروف القاهرة التي عاشتها في الجزائر انعكس على كتاباتها فطغت عليها سمة الحزن والبوح بمكنونات النفس في حالات الضعف التي كانت تحياها ، فقد خدمت الاجناس المتخللة ما ارادته الرحالة في اكتشافها لخبايا نفسها اولا وخبايا البلاد البعيدة التي احبتها فنقلت الحالة الاجتماعية للسكان على حقيقتها فأرادت نقل هاته الصور من خلال جميع اعمالها الادبية فكانت المركز فنقلت

[1] المرجع السابق ص 135

صورتها عن نفسها وهي التائهة في دروب الحياة كما وصف نفسها ونقلت تجربتها في زيارة العديد من مناطق الجزائر بداية بعنابة ونهاية بالعين الصفراء.

وإذ نتساءل في هذا الاطار عن الجمهور الذي توجهت اليه الرحالة من خلال سرد نصوصها هل توجهت لقراء مسلمين؟ أم الى قارئ مجرد دون ملامح واضحة ؟ أم الى الصحافة الغربية ؟

والاحتمال الاخير هو الاقرب للصواب في نظرنا على اعتبار انها كانت مراسلة صحفية اشتغلت بجريدة لاديباش دالجيري ثم بجريدة الاخبار وصدور قصصها بجريدة لنوفال والعولمة وحضورها في افريل 1903 ضمن كوكبة من الصحفيين أثناء زيارة الرئيس الفرنسي للجزائر " اميل لوبي" وقد كان حضورها المؤثر سببا في نشر العديد من الصحف الجزائرية والفرنسية مقالات حولها[1].

[1] انظر كتاب الشيخ بوعمامة وايزابيل ابرهاردت لقاء ام مصير لبلعرج بوداود دار الوطن اليوم العلمة سطيف ط1 انفي 2021 ص76-77

# خـــاتـــمة

وبعد أن رست بنا سفينة البحث على الميناء وجب علينا أن نُنزل أغراضنا مما استفدنا وأن نقدم النتائج والإجابات على ما طرحنا لكي نروي ظمأنا ونشبع فضولنا ونقدم للقارئ الزاد الذي يستفيد منه فيما يخص رحلة إيزابيل إبرهاردت للجزائر ،فأما رحلتها فكانت معدة سلفا في مخطط كتبته في مرسيليا حال عودتها للجزائر مرة أخرى فالاكتشاف للمرة الأولى كان صدفة ليتحول فيما بعد إلى شغف وحب لم يكتمل ،حبها وولعها بالصحراء الجزائرية قد يكون بسبب قراءتها للمستشرقين الذين يجعلون من الصحراء مكانا سحريا تحفّه الأسرار والغموض والممارسات الغريبة والطقوس المجهولة ولكن معايشتها لها غير من نظرتها ليحول حياتها إلى جحيم وهذا من خلال رسائلها لأخيها أوغيستان وهي تستجديه أن يغيثها من الوضعية المزرية التي كانت تحياها خلال إقامتها بالوادي مثلا، الصورة السيئة التي سوقتها الرحالة عن المرأة الجزائرية لا تختلف مثلا عن صورة المرأة عند غي دي موباسان مثلا فهي الشهوانية الحيوانية المتمردة التي لا تعير للنظافة شيء .

كما أنها صورت الجزائري ذلك المتخلف المنقاد لسيده الصبور الكتوم .

صحيح أن إبرهاردت كانت وطيدة الصلة بالمجتمع الذي تعيش فيه فهي المتغلغلة بين ثناياه دون استإذان ، فقد وصفت في حلّها وترحالها تفاصيل حياة الناس بأدق أمور معيشتهم وخبايا المعاملات بينهم وحتى أسرار البيوت وكأنها من عجائز القرية ،ففي يومياتها المكتوبة رصدت الرحالة كل ما يجري من حولها من أحداث مختلفة وهي تتنقل من عنابة إلى باتنة إلى ورقلة إلى الوادي ،فتصف العادات والتقاليد وتَذكر من حين إلى آخر غرائب المجتمع من أعمال السحر إلى تهريب النساء من منطقة إلى أخرى ، أما عن أعمالها الأدبية فقد استعارت أسماء الشخصيات التي صادفتها في مسيرتها لتستعملها في قصصها القصيرة كقصة ياسمينة وقصة زهور وقصة مريامة

وتاسعديت وغيرهم . في حبكة فنية متمازجة مع المناطق التي زارتها مُشكلة لوحات وتأريخا لمناطق كانت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي ولكن للأسف لم نجدها تندد بالاستعمار الفرنسي ، بل تندد ببعض ممارساته فقد كانت في حمايته وتحت توصياته مذ دخلت تونس إلى وفاتها بعين الصفراء ، يشكل الوصف في رحلة إبرهاردت دافعا للسرد حيث أضْفت عليه هواجس ذاتية من حيث الأبعاد والجمالية التي تسهم في نقل المجّردات إلى محسوسات مشكلة محورا يدور عليه السرد فقد ميّزت الرحالة نفسها بذكر دقائق الأمور والمشاهدات فهي تصرح ولا تلمح لما تشاهده أو تلاحظه.

وقعت الرحالة في فخ الأحكام المسبقة والصور النمطية التي كتبها ورواها من زار الشرق قبلها فأرادوا الشرق كما تصوروه في أذهانهم فخدمت المشروع الكولونيالي كما فعل من سبقها من المستشرقين الباحثين عن فردوسهم المفقود وجنتهم التي يفتقدونها في مدنهم وحضاراتهم فنستشف من خلال رحلتها أنها رحلة مزدوجة تبحث فيها إبرهاردت عن راحتها النفسية المضطربة وهروبا من ماضيها وصنعا لمستقبلها فهو الترميم النفسي في أقصى صوره ولا تتأتى إلا بالرحلة الحقيقية داخل الزمان والمكان التي كانت في كثير من مراحلها عكس ما تصورته ورسمته في ذهنها رغم ما أظهرته هاته الشابة السويسرية من تحمل وجَلد على السفر والترحال بالقوافل والمبيت في العراء فاستهلكت كل قدراتها النفسية والجسدية في وقت قصير .

لقد كانت بدايات الرحلة استكشافية لأعماق الجنوب التونسي في إطار تحقيق كُلفت به الرحالة للتحقيق في مقتل زوج الماركيزة دي موردر بعد تخبط الرحالة في مشاكل مالية خلال اقامتها بباريس جعل منها تقبل هاته المهمة للحصول على المال ووصولها للأراضي الجزائري واكتشافها لهذه المناطق لم يتعدى محض الصدفة التي قادتها لها ،ثم اتخذت في هذه الرحلة الاولى سنة 1899 مسارا دائريا للعودة من حيث بدأت أي لجنيف بسويسرا، أما الرحلة الثانية التي كانت بداية من عام 1900-1901 فقد كانت خطة هذا المسار معدة سلفا وتبدأ هذه الرحلة من كاغلياري بايطاليا ثم تتخذ أيضا

مسارا دائريا للعودة مرة أخرى لسويسرا بعد محاولة اغتيالها بالوادي وطرد السلطات الفرنسية لها من الاقاليم الجزائرية ثم تعود مرة أخرى وتقوم برحلة أخيرة ولكن مختلفة هذه المرة حيث يكون مسارها داخل القطر الجزائري ماعدا زيارتها لوجدة على الحدود المغربية وينتهي بها المطاف بموتها بعين الصفراء سنة 1904. أما إذا عرجنا على الأسباب التي جعلت من فتاة سويسرية في مقتبل العمر تخاطر بحياتها، بل وتبيع كل ما تملك لتُكمل رحلتها إلى الجزائر هي اكتشافها لهذة الدولة القارة المتعددة الثقافات والعادات والتقاليد وعشقها المبرر لهذه الاجواء والمراحل التي عاشتها مع السكان الطيبين المتسامحين مع الغريب من جهة ثم لإكمال مشروعها الادبي كما صرحت به بكتابة رحلتها وطبعها عند عودتها وجعل هذه البانوراما المتنوعة من أهالي الجزائر ومدنها وتقاليدها وأعرافها وتنوعها مادة دسمة لكتاباتها الادبية فكل موقف حياتي بالنسبة لها هي مشروع قصة وكل هروب أو اضطراب أو معركة أو خلاف أو مأساة هي جديرة بالتدوين وتصلح لموضوع سردي شيق تبعث به إلى الجريدة التي كانت تعمل لصالحها.

أما عودتها للجزائر مرة أخرى بعد طردها من قبل السلطات الفرنسية فهي لاستكمال مشاريعها سواء اكانت على المستوى الشخصي لزواجها من المجند بالجيش الفرنسي سليمان هني او لاستكمال مشروعها الادبي رغم ما كانت تدّعيه من عشق وهيام وارتباط بالمناطق الصحراوية كانت أو التلية فمشروع الزواج بالنسبة لها كان لتأمين العودة بوثائق فرنسية لان غياب زوجها أو حضوره لم يكن يشكل عائقا أمام ما تقرره هي من رحيل أو إقامة معه، كما صورت الجزائري في كتاباتها ذلك المُنقاد إلى سيده لا يحسن من الأعمال إلا ماكلفه به سيده فهو قاصر النظر والتفكير فكما صورت الكثير من رجال سوف الذين يدخنون الحشيش باستمرار ولا تراهم إلا متسللين في الصباح الباكر للذهاب لأعمالهم فهم اشباح حسب رأيها لا ترى جانبهم الانساني

على الاطلاق. فهي تصف أهل التل أيضا بنعوت مماثلة كحديثها عن عمال الميناء. ومن المؤكد أن الرحالة كانت كغيرها من المستشرقين الذين زاروا المنطقة قبلها فهم بيادق للاستعمار عن قصد أو عن غير قصد خدموا المشروع الاستعماري باستكشافهم لهذه المناطق من الجزائر ، فكما استعانت الرحالة بالذين سبقوها ممن اكتشفوا إفريقيا قبلها كأندريه جيد وديفارييه فان الرحالة الذي زاروا هذه المناطق بعدها قد تأثروا بكتابات إيزابيل إبرهارت وبالتقارير التي كتبتها فيعترفون بفضلها في فتح الافاق لهم في اكتشاف هذه المناطق البعيدة على حد قول الاستاذ علي غنابزية الذي رصد هذه الرحلات بعدها وفي وقتها من سنة 1860-1939.

و ما ميّز أدب الرحلة عند إيزابيل إبرهادت هو طغيان اليوميات على مشهد هذه الرحلة والتي اضافة الى تعدد المضامين ورصد المشاهد الإثنوغرافية التي طرّزت بها يومياتها وقصصها وخواطرها ،كما كانت تستعمل الرسائل بكثرة في معاملاتها فهي تراسل وتستقبل الرسائل دائما، كما أرّخت في رحلتها هاته إلى مرحلة مهمة من التاريخ الجزائري ،فوصولها إلى الصحراء الجزائرية تزامن مع تمام سيطرة الاستعمار الفرنسي للصحراء بداية من سنة 1890 مع إخماد كل الثورات الشعبية والقضاء عليها ، فأصبح الاستعمار امرا واقعا .

نعم كانت إبرهاردت رحالة تتميز بقدرة عجيبة على الاختراق والتغلغل داخل النسيج الاجتماعي للمدن التي زارتها . كما لا تتكر خلواتها مع رجال عدة ومن مختلف مشارب المجتمع وتقر باحتسائها للخمر وتعاطيها للحشيش رغم إسلامها وصَلاتها في المسجد لكن الذي لا نستطيع نكرانه هو الابداع الفني في كتاباتها والغزارة في إنتاجها رغم موتها المبكر ، فمن خلال كتاباتها كانت إبرهاردت كثيرة المطالعة وشديدة الملاحظة وذكية الاستحضار وكتاباتها سواء أكانت قصصا أو يوميات أو رسائل هي جديرة بالدراسة والبحث .

# المصادر والمراجع

**قائمة المصادر والمراجع:**

* القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع

**المصادر:**

1- صحيح مسلم ص 160-161

**المراجع بالعربية:**

2- أبو القاسم سعد الله، التاريخ الثقافي للجزائر، دار المغرب الاسلامي بيروت، ط1، 1998.

3- أحسن دواس – ترجمة ياسمينة وقصص أخرى لايزابيل ابرهاردت – إبداعات عالمية العدد390 المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، 2012.

4- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، نوال عبد الرحمن الشوابكة، دار المأمون للنشر، الأردن، ط1، 2008.

5- أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور إثنوجرافي ، سلسلة عالم المعرفة، حسين فهيم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1989م ،

6- أدب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2014.

7- أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط2، 2010.

8- أدب الرحلة ملتقى عيون الأدب العربي ماي 2017 مؤسسة آفاق للنشر مراكش المغرب ط1 2017

9- أدب الرحلة والرحالون العرب، جان عبد الله توما، المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان، ط1، 2014.

10- الادب والدلالة، تزيفتيان تودوروف، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري حلب-سوريا، ط1، 1996.

11- أدبية الرحلة، عبد الرحيم مودن، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1996.

12- أصوات من الأدب الجزائري الحديث، عبد الله حمادي، دار البعث، قسنطينة.

13- ايتيان دينيه، الطيب بودربالة، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2019.

14- إيزابيل إبرهاردت ياسمينة وقصص أخرى، تر: بوداود عمير، دار القدس العربي، بدعم من جمعية صافية كتو، 2011.

15- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ( القاهرة – بيروت ) ، ط1 ، 2004م.

16- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه من الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1987.

17- تجاوز الشعري والجمالي، عبد القادر عميش وباية غيبوب، دراسة: دار خيال برج بوعريريج، 2020.

18- الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، عبد الدايم يحي، دار إحياء التراث العربي بيروت 1975.

19- تمثيل التابع والمحاورون الأنثرولوجيون، فصول، إدوارد سعيد، ع: 68، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2006.

20- الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، أحمد منور، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013.

21- الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ش و ن إ، أبو العيد دودو، الجزائر، 1973.

22- حياة أم السعد، النقد والخطاب مقاربات تداولية وميديولوجية، دار رؤية، مصر، ط1، 2017.

23- ديابوراما رحلية للجزائر الثقافية في القرن التاسع عشر، حسن دواس، دار الوطن اليوم، العلمة، سطيف، ط1، 2016.

24- الرحالة المتأخرون، الاستشراق في عصر التفكك الاستعماري، علي بهداد، تر: ناصر أبو الهيجاء، منشورات كلمة ، ط1، 2013.

25- رحلات الفرنسيين إلى وادي سوف وأعماق العرق الشرقي بصحراء قسنطينة (1860-1939 )، علي غنابزية، مطبعة سامي، الوادي، 2019.

26- الرحلة في الأدب العربي : التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل ، سلسلة كتابات نقدية، شعيب حليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 2002،

27- الرحلة في الأدب العربي، دار القرويين، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2003.

28- سعيد إدوارد: الاستشراق، تر:كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط2، 1984.

29- سعيد جبار:من السردية إلى التخيلية بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي ،دار الأمان،الرباط،ط1434،1هـ-2013

30- سعيد يقطين :السرد العربي مفاهيم وتجليات،دار الأمان ، الرباط،1433هـ-2012 ط1،

31- السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، لوجون فيليب تر: عمر حلمي، المركز الثقافي العربي بيروت، ط1، 1994.

33- الشعرية الغربية الحديثة واشكالية الموضوع، فتحي خليفي، الدار التونسية للكتاب 2012

34- الشيخ بوعمامة وإيزابيل ابرهاردت، بلعرج بوداود، منشورات الوطن اليوم، العلمة-سطيف، ط1، 2021.

35- الصحراء الجزائرية في إنطباعات المستكشفين الأوائل، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2015.

36- الصحراء الكبرى وشواطئها سلسلة الدراسات الكبرى، اسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1982.

37- الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، إبراهيم محمد الساسي العـوامر، تعليق: الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالثة، الأبيار، الجزائر، 2007.

38- عبد العزيز عتيق، "في النقد الأدبي"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1972.

39- على الرمل أثر يوميات، إيزابيل إبرهاردت، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة الرمال الوادي، ط1، 2013.

40- عودة العاشق المنفي كتابات إيزابيل إبرهاردت عن سوف، إيزابيل إبرهاردت، ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي، ط1، مطبعة الوليد كوينين الوادي، 2006.

41- العين الثالثة تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، مجموعة من الأكاديميين، إعداد: حياة أم السعد، تقديم: وحيد بن بوعزيز، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.

42- غراسة النخيل في سوف مذكرات 1900-1901، جاستون كوفي، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2013.

43- فن القصة، محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، 1955.

فنون النثر العربي الحديث، مجموعة من الأساتذة، جامعة القدس المفتوحة عمان-الأردن 2007.

44- في ظلال الاسلام الدافئة، إيزابيل إبرهاردت، تر عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2012.

45- كتاب الذات دراسات في السيرة الذاتية، صالح معيض، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان، 2013.

46- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة 1986م.

47- كتب الرحلات في المغرب الأقصى، عواطف بنت محمد يوسف، ادارة الملك عبد العزيز- الرياض، 2008.

48- المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق : 21/1.

49- مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، خليل إبراهيم، دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2003.

50- مذكرات أدريان، دفاتر وهوامش، باريس 1974.

51- مذكرات الطريق رحلة في الواحات الجزائرية والتونسية، هنري دي فايريه، تر: عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار، الوادي، ط1، 2014.

52- مذكرات حول سوف والسوافة ترجمة عبد القادر ميهي، جستون كوفي، مطبعة الرمال ط1، 2016.

53- المستشرقون، نجيب العقيقى، دار المعارف القاهرة ط5 2006.

مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، سيد حامد النساج، مكتبة غريب للطباعة، القاهرة.

54- مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، ماجدة حمود، اتحاد الكتاب العرب، دمشق: مكتبة الأسد-سوريا، 2000.

55- المقامات، السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1993،

56- من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، لونيس بن علي إدوارد سعيد، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.

57- مونوغرافيا سوف، أندريه روجي فوازان، تر: أبو بكر مراد دار المعرفة، الجزائر، ط1، 2016.

58- الواقعي والمتخيل في الرحلة الأوربية إلى المغرب، عبد النبي ذاكر، منشورات كلية الآداب، أكادير، 1997.

**الرسائل والأطروحات:**

59- أحسن دواس: صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين رسالة ماجيستير جامعة قسنطينة 2007-2008..

60- أدب الرحلة الجزائري الحديث سياق النص وخطاب الأنساق أطروحة دكتوراه علوم إشراف الدكتور محمد مرتاض الطالب عيسى بخيتي جامعة تلمسان 2015-2016

61- صديقي عز الدين، دراسة أثرية لفوروم تيمقاد ومرافقه، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2003- 2004،

62- المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ سعيد علوش، نوقشت بكلية الآداب بأكادير عام 1998،

63- مستويات السرد في الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ أحمد الطريسي أعراب، نوقشت بكلية الآداب بالرباط عام 1995.

**المجلات والدوريات:**

64- إيزابيل إبرهاردت ، ياسمينة و قصص أخرى ، تر :حسن دواس ، ابداعات عالمية ، مجلة شهرية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ، العدد390 ، الكويت ، أوت 2012 ،

65- حسين فهيم: قصة الأنتروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، العدد98، فبراير1986م،

66- الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر"، مجلة الفكر العربي، العدد 32، أبريل-مايو 1983،.[1] 73-"خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية"، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، الجزء 9، المجلد 3، سبتمبر 1993،.

67- زينات البيطار –الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي سلسلة كتب عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت العدد 157 شعبان 1998

67- عفيف دمشقية ، الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة . بحث منشور في مجلة الفكر العربي ، العدد ( 8- 9 ) في ملف بعنوان : الألسنية ، مارس 1979م .

68- مجلة الآداب الأجنبية اتحاد الكتاب العرب دمشق سوريا إعادة النظر في الإستشراق إدوارد سعيد ترجمة : ثائر ديب العدد115 صيف 2003 السنةالثامنة والعشرون

69- مجلة الموقف الأدبي – مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق – العدد 342 تشرين الأول1999

70- ياسمينة"، ايزابيل ابرهاردت ترجمة داوود بوعمير منشورات مجلّة "الدوحة" عدد أكتوبر 2015

**المعاجم والقواميس:**

71- ابن فارس معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام هارون مادة: رحل ج2 1979

72- ابن منظور، لسان العرب. دار صادر، بيروت لبنان 1997،

73- بطرس البستاني ،محيط المحيط.,مكتبة لبنان،بيروت،

74- جبور عبد النور المعجم الأدبي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط2 1984.

75- الفيروزبادي القاموس المحيط، الهيئة المصرية للكتاب 1979 .

**المقالات:**

76- رحلة جيرار دو نيرفال إلى الشرق: التواصل المستحيل وتفكيك الكولونيالي مجلة الآداب واللغات بن بوعزيز وحيد . جامعة الجزائر 2 جوان 2010المجلد 4, العدد 4,

77- صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة" الطيب بودربالة مجلة علوم اللغة العربية وآدابها جامعة الوادي العدد 02 السنة 2009.

78- الغزو والاحتلال الفرنسي للأوراس وأثره على الحالة الاجتماعية لسكان المنطقة،(1844-1884)، محمد العيد مطمر، مجلة العلوم الإنسانية، العدد العاشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة محمد خيضر بسكرة،

79- فلسفة التيه واللعبة الاستعمارية عند إيزابيل إبرهاردت في " ياسمينة " عبد الرحمن وغليسي مجلة اللغة والادب جامعة الجزائر 2 العدد:27 مارس 2016

80- المدرسة العليا للاساتذة العلمة ملتقى الرحلة في الأدب الجزائري صورة الواقع وجمالية المتخيل حياة ذيبون : جامعة الوادي :عنوان المداخلة :التعالقات الخطابية في أدب الرحلة قراءة في جماليات النص الرحلي.

81- المذكرات الشخصية و كتابة التأريخ : جودت هوشيار الحوار المتمدن-العدد: 3863 - 2018 / 9 / 27 - 20:56

82- مقومات البحث الإثنوغرافي جميل حمداوي مقال بصحيفة المثقف العدد 5050 تم رفعه يوم 03 07 2020 على الساعة 45

83- ملتقى الرحلة في الأدب الجزائري صورة الواقع وجمالية المتخيل ميداني بن عمر جامعة الوادي :عنوان المداخلة : أدب الرحلة بين التباس المفهوم واستعصاء التجنيس.

84- ملحق استراحة الجمعة محمد هاني عطوي يومية الخليج تاريخ النشر: 2013/12/06 تاريخ الرفع 03 07 2020 الساعة 28 23

**المراجع الأجنبية:**

85- écrits intimes Isabelle Eberhardt par Marie OdileDelacour et Jean-René Huleu Marie èditions Payt 106,bd Saint-Germain,Paris 1991 .

86- Patricia Bourcillier.Isabelle Eberhardt une femme en route vers l'islam by Flying Publisher et Kamps. 2012

87- Dominique Combe, Les genres littéraires, éd. Hachette, Paris, 1992, p.p. 13-14

86- Elisabeth Delrue,Voyages ou sejours decrivains espagnols en Europe( 1890 1910),Lharmattan,2012,Paris;p9

88- Encyclopœdia Universalis, Edition à Paris, 1990, Corpus 19, p. 631

89- Tzvetan Todorov et Oswald Ducrot, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,

éd. du Seuil, Paris 1972, p. 193.

90- Isabelle Eberhardt,Lettres et journaliers presentation et commentaires par Eglal Errera,actes sud 1987 babel fevrier 2003

91- Dans l'ombre chaud de l'islam édite et

arrange par Victor barrucand chapentier et fasquelle 1921

92- Isabelle eberhardt Yasmina editions lina levi 1 place pauleve 75005 paris 5e edition 1998

**المواقع الإلكترونية:**

93-:Récit de voyage, Relation, Reportage

www.cafe.umontreal.ca/genres/n-voyage.html

94- أ. منير سليم مسعود أبو راس أستاذ بالجامعة الاسلامية بغزة تخصص صحافة وإعلام رابط التحميل

http://site.iugaza.edu.ps/mras/cv2021-3-16 الساعة الخامسة مساءا .

# الملاحق

خارطة تشير إلى الأماكن التي مكثت فيها إيزابيل إبرهاردت وتلك التي زارتها

من كتاب "الرحالة المتأخرون"

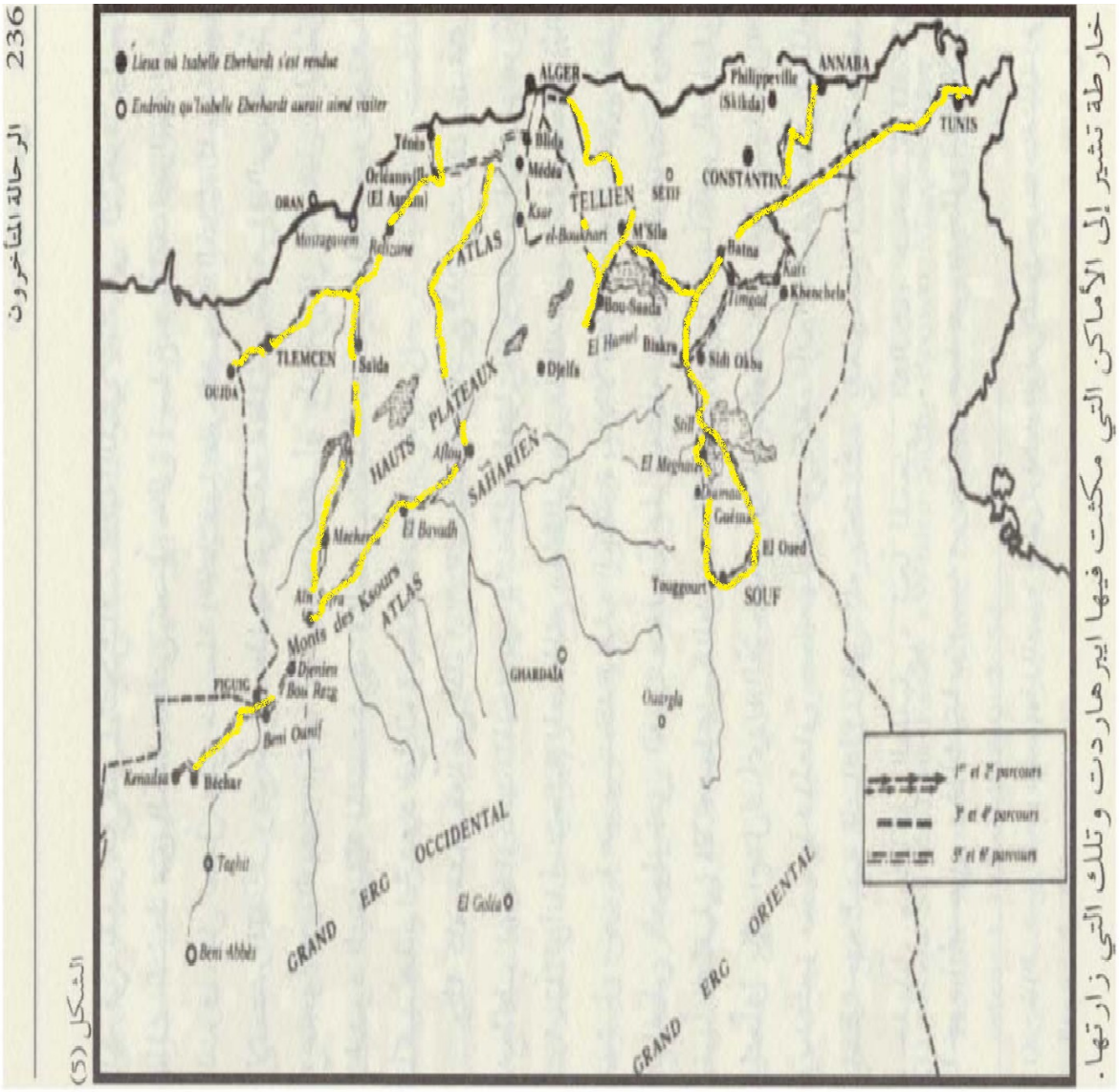

إيزابيل إبرهاردت في الثامنة عشر  من عمرها

إيزابيل إبرهاردت باللباس التونسي

إيزابيل إبرهاردت بالزي العربي

إيزابيل إبرهاردت بلباس الفرسان

إيزابيل إبرهاردت باللباس الجزائري بالخنجر مع السبحة

إيزابيل إبرهاردت وهي على فراش المرض

صورة حزينة للرحالة في عمر 27 سنة تظهر كعجوز في السبعين

صورة البيت المنهار في العين الصفراء وجثمان إيزابيل إبرهاردت

*Le corps d'Isabelle Eberhardt, devant sa maison effondrée.*

رسالة بخط يدها بالعربية

رسالة بخط يدها بالفرنسية

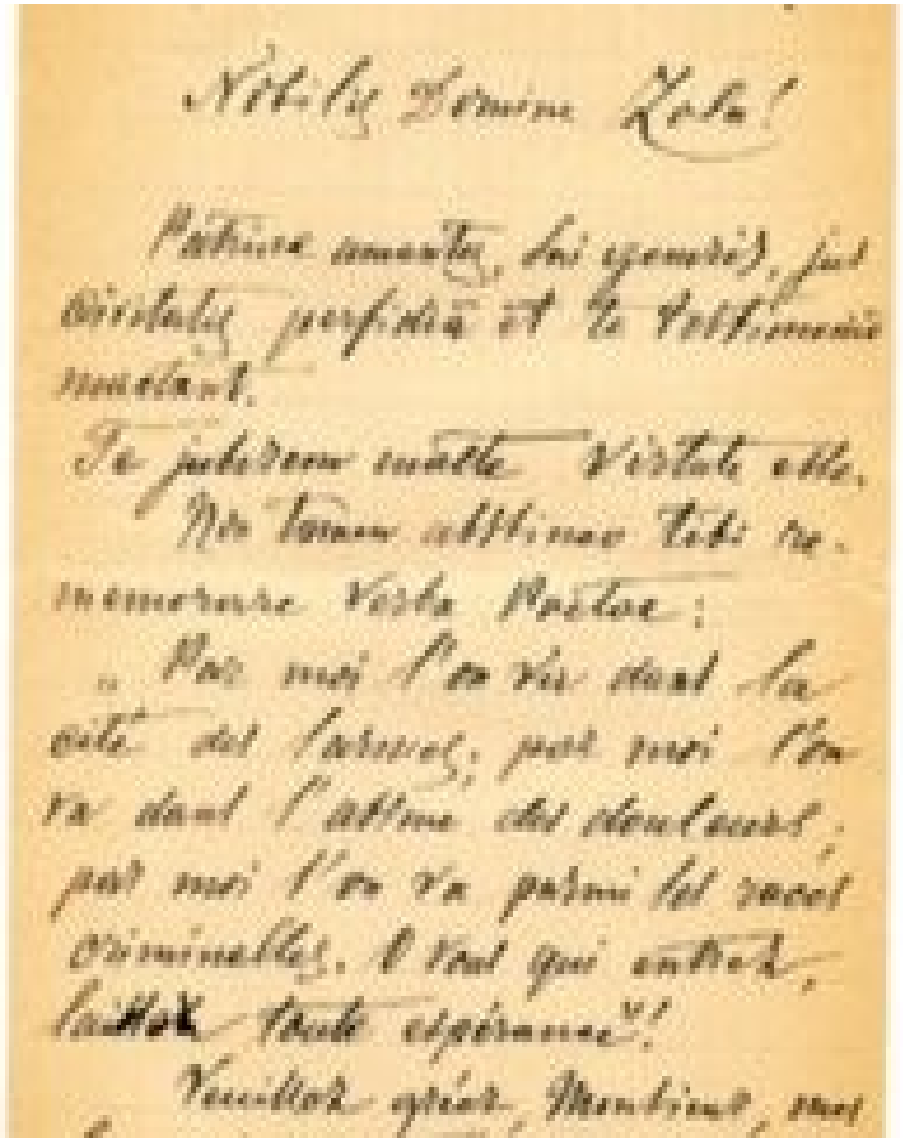

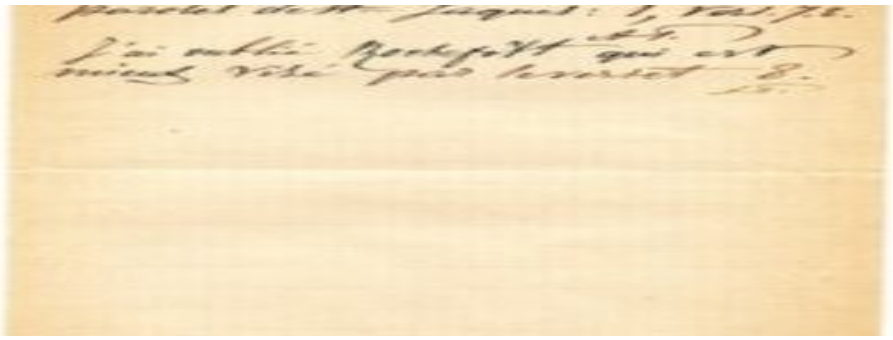

ANNEXE PHOTOGRAPHIQUE

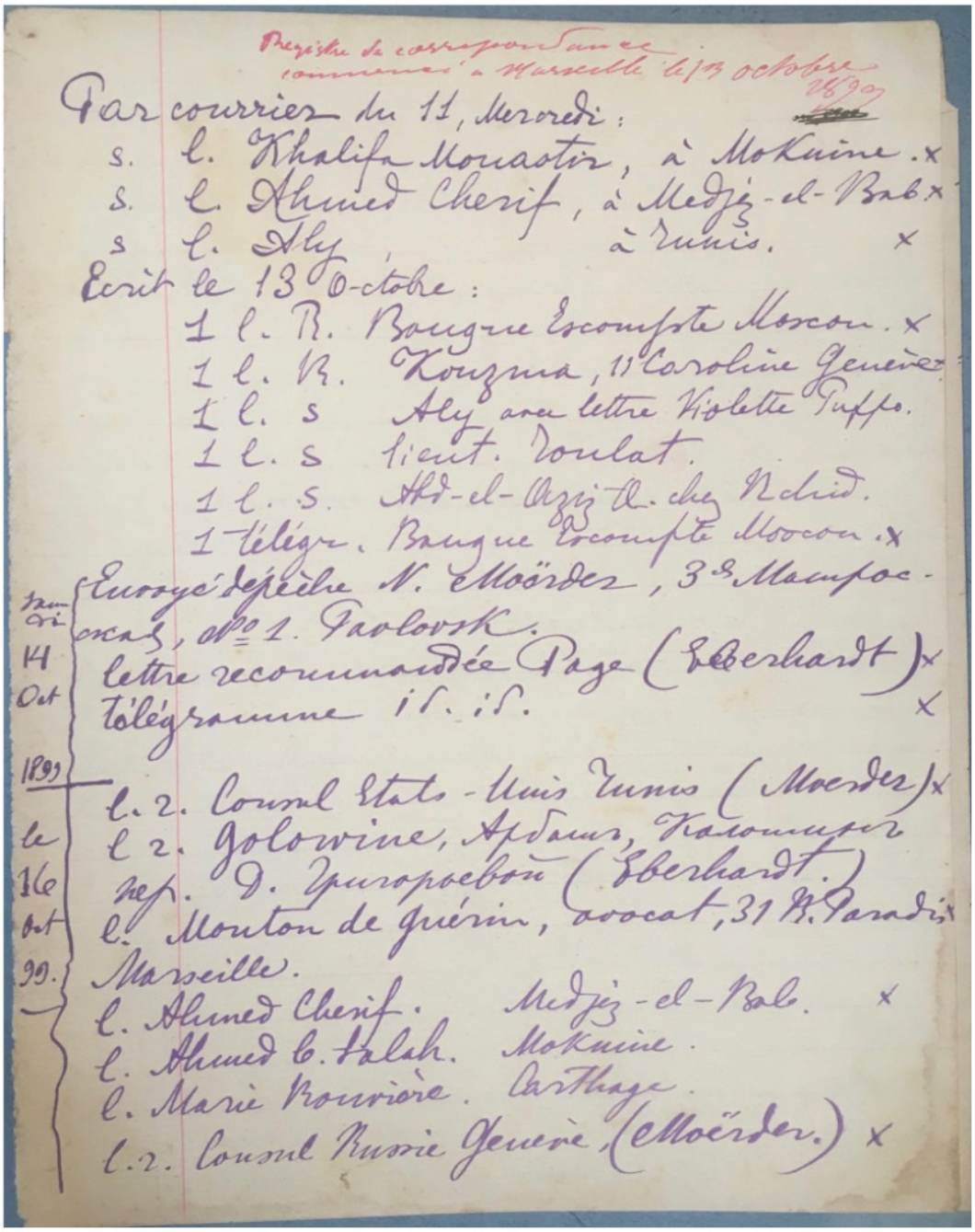

Registre de correspondance commencé à Marseille le 13 octobre 1899

Par courrier du 11, Mercredi :
s. l. Khalifa Monastir, à Mokenine. ×
s. l. Ahmed Cherif, à Medjez-el-Bab ×
s l. Aly à Tunis. ×
Ecrit le 13 Octobre :
1 l. R. Bougue Escompte Moscou. ×
1 l. R. Kouzma, 11 Caroline Genève ×
1 l. s Aly avec lettre Violette Puppo.
1 l. s Lieut. Roulat.
1 l. s. Abd-el-Aziz El-Arbi Medid.
1 télégr. Bougue Escompte Moscou. ×
Envoyé dépêche N. Moërder, 3e Mansoc-
ercaz, adjt 1. Paolovsk.
14 Oct lettre recommandée Page (Eberhardt) ×
Télégramme id. id. ×
1899
le 16 oct 99. l. 2. Consul Etats-Unis Tunis (Moerder) ×
l 2. Golowine, Apdams, Kalamuper
rep. 9. Europoebon (Eberhardt.)
l. Monton de guérin, avocat, 31 R. Paradis ×
Marseille.
l. Ahmed Cherif. Medjez-el-Bab. ×
l. Ahmed b. Salah. Mokenine.
l. Marie Rouvière. Carthage.
l. 2. Consul Russie Genève (Moërder.) ×

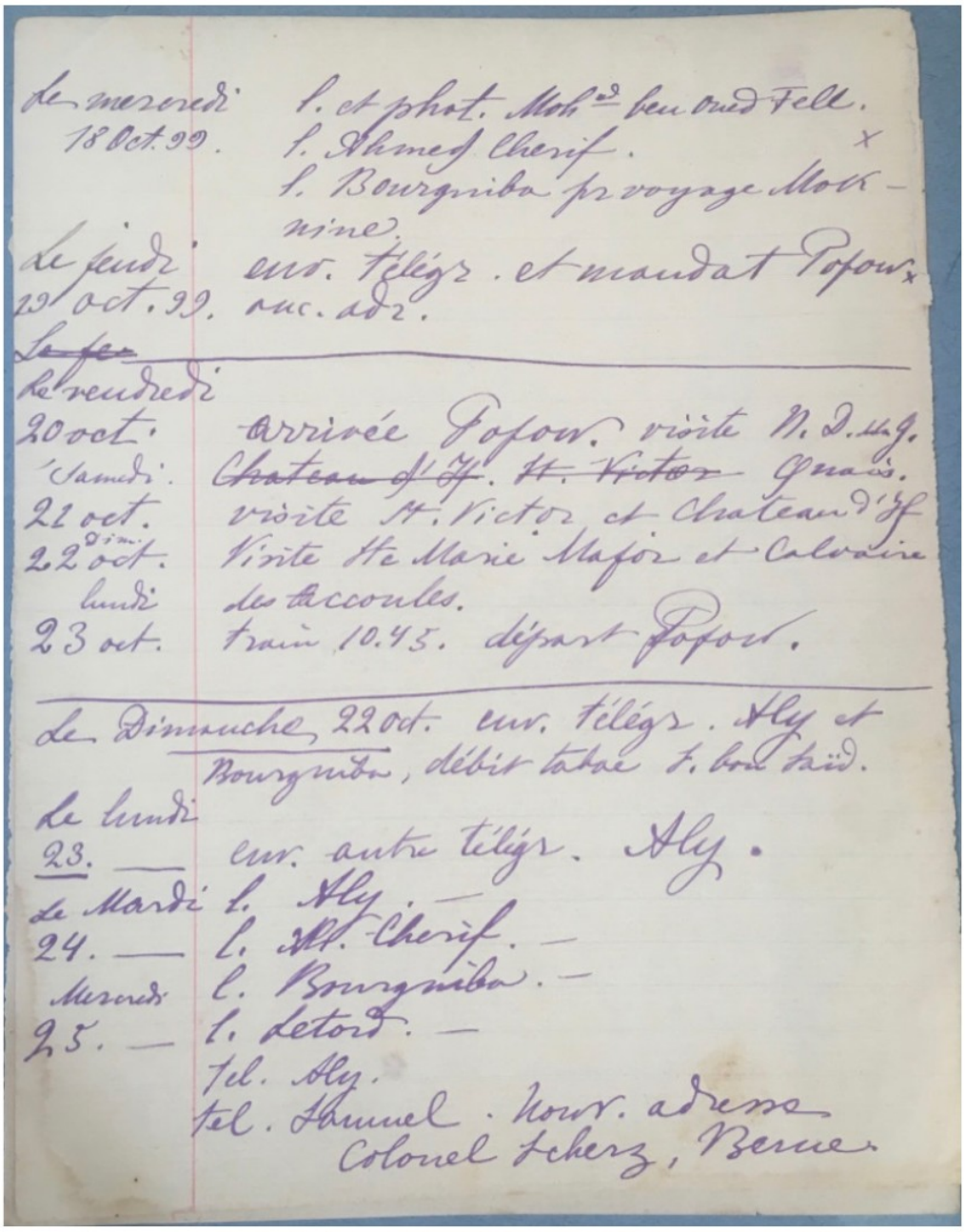
de mercredi 18 Oct. 99. l. et phot. Mohd ben Ould Fell.
l. Ahmed Cherif. x
l. Bourguiba pr voyage Mokr-
nine.
Le jeudi 20 oct. 99. env. télégr. et mandat Poste x
rec. adr.
Le vendredi
20 oct. arrivée Poste. visite N. D. Mg.
Samedi. Château d'If. St. Victor Gnais.
21 oct. visite St. Victor et Château d'If
22 dim. oct. Visite Ste Marie Major et Calvaire
lundi des Accoules.
23 oct. train 10.45. départ Poste.
Le Dimanche 22 oct. env. télégr. Ally et
Bourguiba, débit tabac f. bon soir.
Le lundi
23. — env. autre télégr. Ally.
Le Mardi l. Ally. —
24. — l. Mohd Cherif. —
Mercredi l. Bourguiba. —
25. — l. Letord. —
tel. Ally.
tel. Samuel. Nouv. adresse
Colonel Scherz, Berne.

Figures 1 et 2 : Registre de correspondances commencées à Marseille le 13 octobre 1899, (ANOM 23X48). Photo : Ema Galifi.

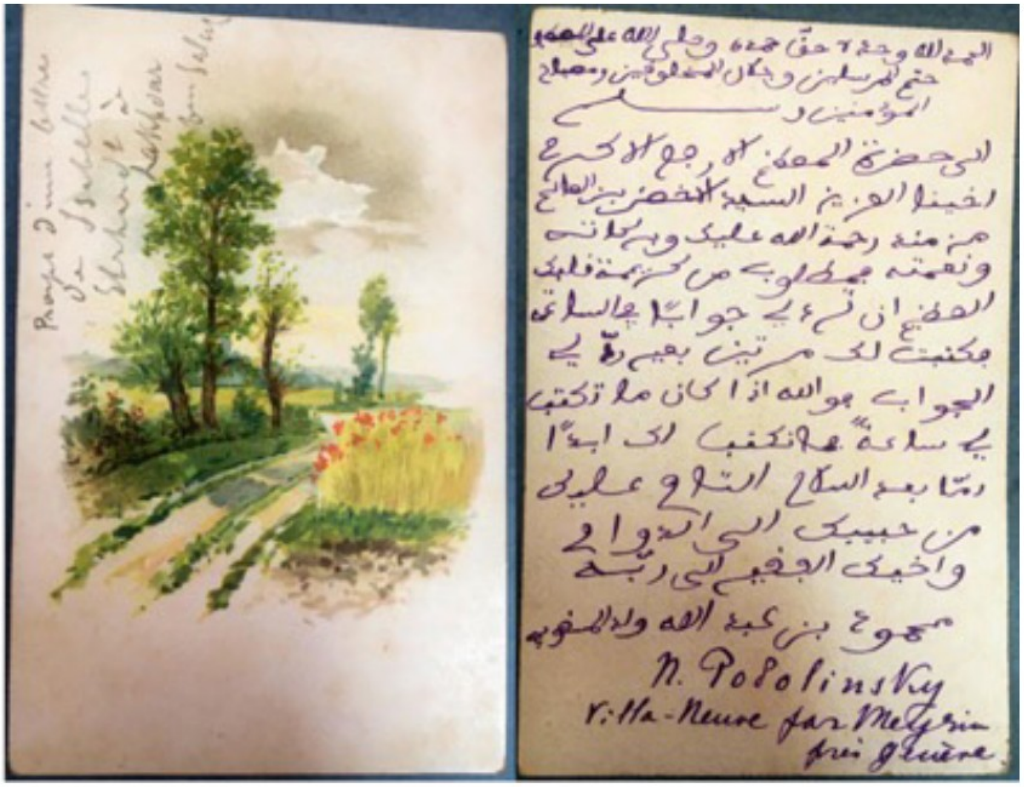

Figures 3 : Recto et verso d'un projet de lettre d'Isabelle Eberhardt à Lakhdar Ben Salah, probablement réalisé lorsqu'elle résidait encore à la Villa-Neuve, à Genève et qu'elle signait encore Nicolas Podolinsky, (ANOM, 23X58). Photo : Ema Galifi.

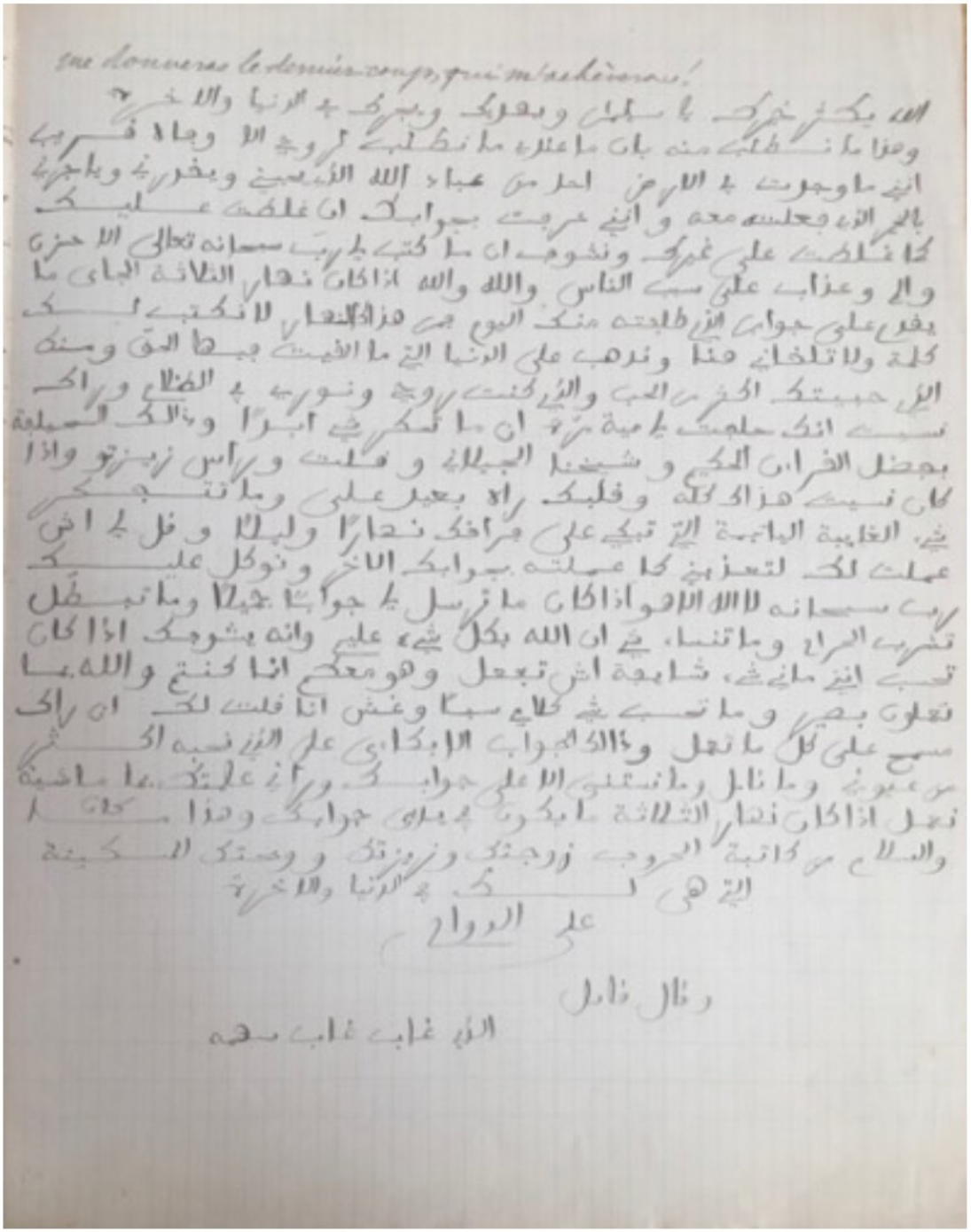

Figure 4 : Dernière page écrite en calligraphie arabe d'une lettre de trois pages à Slimène Ehnni, le 24 juillet 1901, à Marseille (ANOM, 23X21). Photo : Ema Galifi.

**- اليوميات – نماذج مختارة**

**<u>يوميات إيطاليا</u>:** وكانت أول يوميات تكتبها في كاغلياري بداية من مطلع القرن العشرين: **1900/01/01**

"أنا وحيد، أجلس أمام البحر الرمادي الصاخب. أنا وحيد...وحيد، كما كنت حيثما ذهبت وسأبقى هكذا دائما عبر الكون الكبير الفاتن والمخيب للآمال...وحيدا، تاركا خلفي عالما بأكمله من الخيبة والأوهام الميتة والذكريات التي أصبحت تبتعد، كل يوم أكثر، حتى كأنها باتت ضربا من الخيال.

أنا وحيد، وأحلم...ثم رغم الحزن الذي يكتسح قلبي، ليست أحلامي سوداوية ولا يائسة. بعد الستة أشهر المضطربة والمزعجة جدا، أشعر أن قلبي جبُل إلى الأبد وأصبح بعد ذلك لا يقهر ولا يتأثر حتى بالعواصف العاتية في زمن التلاشي والحداد. من خلال التجربة العميقة والسامية التي اكتسبتها من مشاعر الآخرين نحوي ومن الحياة «بأي ثمن من العذاب يا إلهي...»! أتوقع جيدا سحر وغرابة وحزن الشهرين القادمين اللذين سأمضيهما هنا، أين جنحت صدفة، في الغالب بسبب لا مبالاتي العجيبة بكل ما في هذه الدنيا، بكل ما هو ليس من عالم الفكروالأحاسيس والأحلام، الذي يمثل الأنا الحقيقي عندي والذي هو موصد بإحكام أمام الأعين الفضولية بدون استثناء. أعرض أمام الناس قناع المستهتر والمتهكم المستعار، قناع المنحرف غير المبالي...الذي، لا أحد حتى اليوم، تمكن من اختراقه واكتشف حقيقة نفسي، هذه النفس الحساسة والنقية التي تحلق عاليا فوق الخسة والانحطاط، حيث يحلو لي احتقار الأعراف وأيضا بي حاجة غريبة لأن أتعذب، وحيث أسحب كياني وجسدي... نعم، لا أحد تمكن من فهم أن هذا الصدر، الذي يبدو أن الشهوانية وحدها تحركه، يخفق بداخله قلب نبيل يفيض حبا وحنانا، تملؤه الآن رأفة لا محدودة لكل من هو ضعيف مقهور... قلب أبيّ، غير

قابل للتأثر، سخر نفسه لقضية أحبّها... القضية الإسلامية التي تمنى لو دفع من أجلها دمه المتوهج في شرايينه. لا أحد تمكن من فهم كل هذا وتعامل معي حسب ذلك، وبكل أسف لن يفهم ذلك أحد أبدا.

سأبقى إذن ذلك السكّير العربيد، الذي يكسر الأطباق حين يسكر كالمجنون التائه في الصحراء الفسيحة وفي غابات الزيتون في الساحل التونسي هذا الخريف. من يرد لي الليالي الهادئة الساكنة ونزهاتي البطيئة عبر سهول وادي ريغ المالحة ورمال وادي سوف البيضاء...؟ من يردّ لي الإحساس الحزين والسعيد في نفس الوقت، الذي يغمر قلبي، قلب المهمل في مخيماتي الفوضوية بين أصدقاء لاقيتهم بالصدفة، صبايحية وبدو لم يتفطن أحدهم إلى الشخصية البغيضة المنكرة التي، لسوء حظي، ابتلاني بها قدري التعيس. من يعيد لي نزهاتي الصاخبة عبر جبال وأودية الساحل في ريح الخريف؟ نزهات مسكرة أفقدتني كل إدراك للواقع في ثمالة رائعة. في هذه اللحظة، كما في أي ساعة من حياتي، ليس لي سوى رغبة واحدة: تقمص الشخصية المحبوبة التي هي في الواقع الحقيقية والعودة، في أسرع وقت، إلى هناك إلى إفر يقيا واستعادة نمط العيش ذاك... أنام في جو ندي وصمت عميق تحت سماء رائعة مليئة بالنجوم. سقفي السماء غير المتناهية وسريري الأرض الدافئة...أغفو وأنا أشعر بحزني اللطيف ووحدتي المطلقة، وأنا متأكد أن ليس هناك مكان في الأرض يدق به قلب من أجلي. ولا أي مكان في الأرض يبكيني فيه شخص أو ينتظرني. أن أعلم كل هذا، أن أكون حرا بلا قيد، أن أخيم في الحياة، هذه الصحراء التي لست فيها سوى غريب دخيل... هذه، وبكل حزن عميق، السعادة الوحيدة التي لن يمنحها لي المكتوب، أنا الذي تبقى السعادة، التي يلهث خلفها البشر جميعا، موصدة في وجهي إلى الأبد. بعيدا عني إذن الأوهام والندم! لماذا التشبث إذن بالأوهام واليمامة البيضاء، التي كانت هي كل الحنان

وكل النور في حياتي، تنام هناك، منذ عامين، تحت الأرض في مقبرة المؤمنين المطمئنة في عنابة.

حين عاد فافا بدوره إلى التربة الأصلية، وحين كل ما كان يبدو لي أبديا انهار وتلاشى... وحين أبعدني القدر بغرابة عن الكائن الوحيد الذي تمكن من أن يقترب بما يكفي من روحي الحقيقية ليلتقط ولو انعكاسا باهتا لها...أوغستان. وحين...ولكن لا، لنترك الأشياء الحديثة تغفو إلى الأبد. من الآن، سأترك نفسي تهدهدها تقلبات الحياة المتغيرة دائما...سأترك نفسي أثمل من كل ينابيع الحياة المسكرة، دون أن أحزن وإن نضبت كلها...وستنضب لا محالة، ستنتهي الصراعات والانتصارات والهزائم التي أخرج منها والقلب دام جريح. سينتهي جنون سنوات الشباب الأولى كلها.

قدمت إلى هنا لأهرب من بقايا ماض طويل دام ثلاث سنين وتهاوى، للأسف في الوحل، في الحضيض...في الأسفل تماما. جئت هنا أيضا بسبب صداقة رجل جمعتني به الصدفة. رجل وضعه القدر في طريقي في ساعة أزمة أخيرة، إن شاء الله، والتي كانت تنذر بخطر كبير. ثم، الشيء الغريب الذي لاحظته اليوم، والذي سبب لي حزنا لا محدودا، هو تغير مشاعري نحوه...

زادت صداقتي له بسبب ذلك...نعم ما حدث! أما الأمل، فمنذ اليوم الأول، الوهلة الأولى...لا أمل، عالم من الأشياء أشعر به وأفهمه جيدا وأعجز عن التعبير عنه دائما...ولكن، ورغم أن حياتي لم تكن سوى نسيج من العذاب والأحزان فإنني لن ألعن أبدا هذه الحياة التي تدعو للرثاء ولا ذلك الكون الحزين، حيث يجانب الحب الموت وحيث كل ما فيهما عابر ومؤقت. لأن كلاهما منحني سكرات عميقة جدا ونشوة لطيفة جدا وأحلاما كثيرة وأفكارا.

لست نادما على شيء ولا أرغب في شيء... أنا أنتظر. وهكذا! وأنا رحالة ليس لي من وطن سوى الإسلام، لا أهل لي ولا نجي. وحيد... وحيد إلى الأبد في وحدة نفسي المتعاظمة اللطيفة، سأواصل طر يقي في الحياة إلى أن تدق ساعة النوم الأبدي في غياهب القبر. محمود السعدي ثم إن السؤال الأبدي والغريب والمحير يطرح نفسه مرة أخرى: أين سأكون، على أي أرض وتحت أي سماء في ساعة مماثلة بعد عام؟ ... بعيدا، دون شك، عن هذه المدينة الصغيرة الساردية الصغيرة... أين سأكون؟ وهل سأبقى في عداد الأحياء في ذلك اليوم"[1]؟

[1] Isabelle Eberhardt,Lettres et journaliers presentation et commentaires par Eglal Errera,actes sud 1987 babel fevrier 2003 ترجمة ع القادر ميهي اليوميات على الرمل أثر

**يوميات بوسعادة: وكانت آخر ماكتبت من يوميات**

بوسعادة 31 جانفي السبت الواحدة مساء1903

"بالأمس عدنا، أنا وبن علي، إلى الهامل حوالي الساعة الثالثة مساء.

كل مرة أرى فيها لالة زينب، أشعر بنوع من تجدد النشاط ومن السعادة بلا سبب ظاهر،

ومن الطمأنينة أيضا. قابلتها بالأمس في الصبيحة مرتين. كانت طيبة ولطيفة جدا معي وأبدت سعادتها لرؤيتي ثانية. زرت ضريح سيدي بلقسام، ضريح صغير بسيط، في المسجد ال كبير الذي، حين يكتمل بناؤه سيكون جميلا جدا. ثم ذهبت لأصلي على السفح، أمام قبر الحجاج، مؤسسي الهامل. جولة سريعة مع سي بلعباس، ترعانا نظرات سي أحمد المقراني الأبوية.

كانت هناك نساء البيت العمومي العائدات من الهامل. مزينات، مخضبات، جميلات نسبيا.

اقتربن ليدخن السجائر بصحبتنا. قمنا بلعبة الفانتازيا من أجلهن طيلة الطريق. وضحكنا كثيرا... يسد ويتحكم الهامل، من ناحية الجنوب الشرقي، في مضايق عريضة طويلة ووعرة جدا، ينتصب في وسطها كاف مرتفع ويسد أفقها جبل مخروطي الشكل تماما، يشبه القميرة.

من الخلف ينفتح سهل مزرق فسيح غريب... تحيط بمنازل الشرفة أسوار عالية ملبّسة بالطوب الأملس إلى النصف ويظهر على النصف الباقي تربيع قوالب الطوب. تبدو هذه

المنازل وكأنها قلاع بابلية بمربعاتها القريبة من بعضها البعض وشرفاتها المسطحة على الأفنية الهندسية الشكل. لم تزهر أشجار اللوز التي تشرف على الحدائق بعد. أسطورة حجاج الهامل تجعلني أحلم. بالتأكيد، هي واحدة من بين الأساطير الأكثر إنجيلية في الجزائر.

هذه اليومية التي بدأت هناك، على أرض المنفى البغيض في واحدة من الفترات الأكثر

سواد وألما وحيرة والأكثر خصوبة وعذابا في حياتي، تنتهي اليوم.

كل شيء تغير جذريا، وأنا أيضا تغيرت...

بالعربية في النص الأصلي: مرتفع من الطين أو الجبس منذ عام وأنا على أرض إفريقيا المباركة والتي وددت لو أني لا أتركها ثانية أبدا. رغم بؤسي، تمكنت من السفر وزيارة مناطق مجهولة من البلد الذي أحببت... (ويحة)[2] حيّ يرزق ونحن الاثنان سعيدان ومرتاحان ماديا نسبيا... هذه اليومية التي بدأتها منذ سنة ونصف في مرسيليا البغيضة، تنتهي اليوم في جو رمادي شفاف، لطيف يدعو إلى التأمل، في بوسعادة التي هي قطعة من الجنوب الذي طالما أخذني الحنين إليه وأنا هناك! هذه الغرفة في الحمام العربي، التي تشبه نمط حياتي أصبحت مألوفة لدي. سأعيش بها عدة أيام أخرى قبل أن أرحل في زيارة إلى بوغار في منطقة لم أستطلعها بعد: مربع مطلي بالجير الأبيض بلا إتقان، نافذة صغيرة تطل على الشارع والجبل، حصيرتان مبسوطتان على الأرض، حبل لتعليق الملابس، بطانية صغيرة ممزقة أجلس عليها لأكتب. قفف في ركن الغرفة، وأمامي الموقد، ثم أوراقي المتناثرة المبعثرة...هذا كل شيء... بالنسبة لي، ذلك يكفي. من كل ما حدث في الثمانية عشر شهرا الأخيرة، لا يوجد في هذه الصفحات المكتوبة بالصدفة سوى انعكاس طفيف للساعات التي كانت في حاجة لأن أصوغها... عند القارئ الغريب ربما كانت هذه الصفحات عصية عن الفهم في أغلب الأحيان. هي عندي بقايا طقوس قديمة، تذكرني بالماضي. ربما توقفت يوما عن تدوين بعض الأفكار أو الانطباعات لأخلدها لبعض الوقت. أشعر الآن أحيانا بدفء كبير وأنا أتصفح من جديد هذه اليوميات التي تسرد أحداثا مضت.

[2] إسم كانت تطلقه الكاتبة عن زوجها سليمان هني

صمت كبير، صمت الجنوب يخيّم على بوسعادة. بالتأكيد، نشعر في هذه المدينة التي لا تزال بعيدة عن حركة التل البلهاء أنها تحت وطأة الخمول الذي يطبع الجنوب. ليحفظ الله بوسعادة نقية لمدة أطول. سأبدأ يومية جديدة. ما الذي سأدونه فيها، أين سأكون في ذلك اليوم البعيد حيث سأنهي هذا الجزء، الذي ما زال أبيضا الآن، من الكتاب المبهم لوجودي المبهم؟

الله يعلم ما يخفى ويعلم صدق الشهادة[3]".

[3] على الرمل أثر يوميات إيزابيل إبرهاردت مطبعة الرمال الوادي ط1 2013 ص 326-328

**- الرسائل – نماذج مختارة**

## 1-رسالة إيزابيل إبرهاردت إلى أخيها أوغستان من وادي سوف-

الوادي في 10 نوفمبر 1900

إيزابيل أبرهاردت الى أوجستان دي موردر

الصديق العزيز جدا.....

استلمت رسالتك هذا الصباح. إنها تطمئنني. هكذا ،كل شيء عندكم إذن على ما يرام . حمدا لله ! هنا أيضا، لا يمكن أن يكون أحسن (نسبيا ).

غيرنا السكن أنا ورفيقي واكترينا مؤقتا، بخمسة فرنكات للشهر الواحد، بيتا صغيرا ملكا لعريف غائب من كتيبة الصبايحية .

نسكن الآن الحي اليهودي في الشمال الشرقي للوادي، بالقرب من حي قديم من الأطلال وبيوت مهجورة مهملة، توفي أصحابها أو هم غائبون في الصحراء. في هذه الأطلال الذاهبة نحو مسجد السوق الأبيض اللون(سيدي سالم)، تسكن بعض المومسات "السوفيات" ، اللاتي يمارسن الدعارة السرية. أشباح غامضة دون إقامة قارة ترتاد الخمارات اليهودية عند المساء .

اتخذت، بصفة نهائية، أحد مدخني الكيف خادما. هو مثال الهدوء والنية الحسنة. أما مرافقي فهو بسكري نشط وذكي يساعدني كثيرا ويصاحبني في تنقلاتي القليلة في المدينة. أعيش حياة منزوية، منشغلة كثيرا ببيتنا العربي، ببهائمنا وحصاني والكلبة الصغيرة.

يهيج حصاني كثيرا حين يكون مسرّجا ولكنه لطيف جدا عندما يكون مستريحا. يقيم في بهو المنزل ويتبعني كالكلب الأليف حتى خارج المنزل أين يذهب ليشرب. يحك رأسه الذكية على صدورنا ويداعب بخرطومه المبلل أيدينا حين نقدمها له.

منذ أيام، كادت جماعتنا اللطيفة أن تتفرق لأننا أكثرنا من.....شرب الخمر.

نعم، خادمي، مرافقي وأنا، كلنا لم نعد نفارق حانة "شلومو" اليهودي. ولكن تلك الأيام مرت بسلام. رمم مدخن الكيف الباب التي خلعتها في إحدى الأمسيات وأنا مخمورة وعادت الحياة إلى سابق عهدها رتيبة كما ألفتها وأصبحت بساطتها تعجبني .

غرفتنا الجميلة، فسيحة مثل قاعة الاستقبال عندكم تقريبا، مبنية من الجبس، بما في ذلك أرضيتها كغرف الأغنياء في سوف ( باقي الغرف مرملة ). كل ما بها من أثاث، حقائب السفر وطاولة صغيرة متداعية، كرسي من حديد، مرتبة الصوف الزرقاء عليها قطعة من الكتان ووسائدي الشهيرة المحشوة بالتبن الإفريقي. على الجدران، صوري بما فيها صور العجوز وفولود وهيلين ، مهاميز ولجام فرسي المزين بالتمائم، مسدسي ومسدس سليمان، ثم برنس أحمر مرصع في مقدمته بشريطين صغيرين ذهبيين، سيف كبير وبندقية .....

ينحدر سليمان، من الأب، من أسرة كبيرة شريفة من سيدي مبروك في قسنطينة. وهو، من ناحية الأم شاوي من مقاطعة خنشلة. أسمر يكاد أن يكون أسود مثل الناس هنا. كل ما يملكه هو راتب صف ضابط مجند للمرة الثانية أي 3 فرنكات و10 سم لليوم الواحد. بقيت ثماني سنوات حتى يكمل الخدمة. عنها ، يصبح سنه اثنتين وثلاثين سنة.

حين ينفذ القليل من المال الذي ما زال بحوزتي، فإننا سنعيش على الثلاثة فرنكات تلك. هذا ليس بعيدا، لأن كل ما أرسلته لي من مال استعملته في تسديد الديون وشراء الحصان.

من ناحية المناخ، تغير الحال في الوادي منذ شهر تقريبا. أصبح الجو باردا وأمست الليالي قارسة حتى أننا أجبرنا على الغطاء ببطانية المرحوم السميكة وبحائكي التونسي .... قطرات بسيطة ثم تصبح السماء زرقاء من جديد، لأيام طويلة أخرى. رغم ذلك، كست الصحراء أعشاب" الدرن" ( أو الحلفاء ) وأعشاب رقيقة وصفراء ونباتات أخرى خشبية وعشبية بقيت جذورها مدفونة في عمق الرمال طيلة أيام

الصيف.عادت السنونوات لتزورنا من جديد وتنبئنا بأن هناك، في الجانب الآخر من البحر التوسط، تمر أيام جميلة مشمسة.

بعد أيام، يصل تقرت ، شيخي سيدي محمد الهاشمي أخ النائب وأروع مفكر لاقيته حتى الآن. سنذهب لاستقباله أنا وسليمان. سيتكلم البارود يوم قدوم الشيخ الكبير ويركض الفرسان في سهل تكسبت قرب الوادي.

... نعم، اخترت لباس أهل الصحراء المهيب ونزعت ثياب تونس القديمة الضيقة.

سأستلم رسالتك في الوقت الذي تصل فيه رسالتي هذه إلى 12 شارع ميرني. احتفظ بهذه الرسائل التي وضعت بها شيئا من روحي التي، يعلم الله أنها، تمر بنوع من الاحتضان البطيء. الاحتضان الذي بدأت أشعر ببعض نتائجه .....

واصل إرسال الجرائد بانتظام. أنت لا تعلم مدى سعادتي وأنا أطالعها بعد ثلاثة أشهر من الغياب عن كل ما يحدث في العالم، خاصة في ميدان الفكر.

أكتب لي من وقت لآخر....يصل البريد ستة أو سبع مرات دون أن يأتي صالح موزع البريد ليدق باب بيتي.

قبل مكاني "هيلين" والبنت الصغيرة وقل ل...ت إن الحصان والكلبة الصغيرة في انتظارك حتى تدخلا الفوضى للمنزل ..... أقبلك بكل صدق

( محمود )[4]

[4] إيزابيل إبرهاردت،عودة العاشق المنفي كتابات إيزابيل إبرهاردت عن سوف :ترجمة الأستاذ عبد القادر ميهي ،ط1 ،مطبعة الوليد كوينين الوادي ،2006،ص89.

## 2- رسالة إيزابيل إبرهاردت لسليمان هني

### ترجان 5 سبتمبر 1900

إيزابيل إبرهاردت إلى سليمان هني

أخي العزيز ( ع )

أغتنم الفرصة المتاحة لي كي أرسل لك هذه الأسطر. لم نصل هنا سوى اليوم. حالة البهائم مؤسفة جدا. لم نلتق الشيوخ بعد.

يصل سيدي محمد في الغد صباحا إلى "تقرت". أنا في صحة جيدة ولكن روحي غارقة، منذ الأمس، في حزن لا متناه. أنت لا تفارق فكري لحظة واحدة. سنكمل الطريق رفقة قافلة من التقرتيين العائدين إلى بلدهم. الكل يحسبني مريضا حين يروننني حزينا هكذا.

يا صاحب العينين الصفراوين المسكين، أقسم أنني عاقد العزم على أن لا أعود إلى الجزائر ثانية وأن أسوي الأمور جيدا.

أريد تحاشي مضايقات السلطات حتى أبقى مطمئن إلى جانبك في الوادي. سأبرق لك غدا صباحا. لا تنسى ما اتفقنا عليه بالنسبة للبرقيات . أختم هذه الرسالة بتقبيلك من كل قلبي. ( بدون توقيع )[5]

[5] المرجع السابق ص 88

# الـفهــرس

المقدمة .....4-11

المدخل : أدب الرحلة وإشكاليات التجنيس.....12

المبحث الأول : أدب الرحلة بين التعريف و الخصائص .....13

المطلب الاول ـ تعريف أدب الرحلة لغة واصطلاحا.....13-16

المطلب الثاني ـ خصائص الكتابة الرحلية.....17-22

المبحث الثاني : أهمية أدب الرحلة ودوافعها .....23

المطلب الأول- أهمية أدب الرحلة.....23-24

المطلب الثاني: دوافع الرحلة.....25-27

المبحث الثالث : أدب الرحلة التجنيس وحدودها مع السيرة الذاتية.....28

المطلب الأول ـ أدب الرحلة كجنس أدبي هجين .....28-38

المطلب الثاني ـ الرحلة والسيرة ذاتية .....39-41

**الفصل الأول** :أشكال السرد عند إيزابيل إبرهاردت.....42-51

المبحث الأول ـ اليوميات والرسائل .....52

المطلب الأول: اليوميات.....52-58

المطلب الثاني ـ الرسائل.....59-70

المبحث الثاني ـ القصص والخواطر.....71

المطلب الأول ـ القصص.....71-78

المطلب الثاني ـ الخواطر.....79-82

المبحث الثالث ـ التقاريروالملاحظات.....83

المطلب الأول ـ التقارير.....83-85

المطلب الثاني ـ الملاحظات.....86-89

المبحث الرابع ـ النظرة الاستشراقية لدى ايزابيل ابرهاردت.....90-98

**الفصل الثاني** : رحلات إبرهاردت المسارات والخصائص.....100-104

المبحث الأول: الرحلة الأولى (1899 ).....105-109

المبحث الثاني:الرحلة الثانية (1900-1901).....110-115

المبحث الثالث : الرحلة الثالثة (1902-1904).....116-124

**الفصل الثالث:** رحلات إبرهاردت بين الادبية والتقرير.....125

المبحث الأول : أدبية الرحلة عن إيزابيل ابرهاردت.....126-132

المبحث الثاني: الملاحظة الاثنوغرافية للرحالة.....133-139

المبحث الثالث: صورة الجزائري في رحلة إيزابيل إبرهاردت.....140-148

المبحث الرابع: رحلة ابرهاردت والاستشراق.....149-156

المبحث الخامس: خصائص الرحلة عند إيزابيل إبرهاردت.....157-161

المبحث السادس: النص الرحلي عند إيزابيل إبرهاردت .....162-179

الخاتمة.....180-184

المصادر والمراجع.....185-198

الملاحق.....199-225

الفهرس.....226-228

# ملخـــص

الرحلات ميدان خصب، يتيح المجال واسعا لدراسة أدب الرحلات عن طريق المستشرقين الذين انبهروا بسحر الشرق وغرابة العادات والتقاليد التي وجدوها عند الاقوام الأخرى فضلا عن الجانب التأريخي لحقبات مجهولة في تاريخ الشعوب إذ شكل أدب الرحلة مادة للرحالة الذين انبروا للتأريخ والتوثيق لعدة حوادث مفصلية في التاريخ العام.

أما رحلة إيزابيل إبرهاردت للجزائر ،فقد كانت معدة سلفا في مخطط كتبته في مرسيليا حال عودتها للجزائر مرة أخرى فالاكتشاف للمرة الأولى كان صدفة ليتحول فيما بعد إلى شغف وحب لم يكتمل ،حبها وولعها بالصحراء الجزائرية قد يكون بسبب قراءتها للمستشرقين الذين يجعلون من الصحراء مكانا سحريا تحفّه الأسرار والغموض والممارسات الغريبة والطقوس المجهولة ولكن معايشتها لها غير من نظرتها ليحول حياتها إلى جحيم وهذا من خلال رسائلها لأخيها أوغيستان وهي تستجديه أن يغيثها من الوضعية المزرية التي كانت تحياها خلال إقامتها بالوادي مثلا.

لقد كانت بدايات الرحلة استكشافية لأعماق الجنوب التونسي في إطار تحقيق كُلفت به الرحالة للتحقيق في مقتل زوج الماركيزة دي موردر بعد تخبط الرحالة في مشاكل مالية خلال اقامتها بباريس جعل منها تقبل هاته المهمة للحصول على المال ووصولها للأراضي الجزائري واكتشافها لهذه المناطق لم يتعدى محض الصدفة التي قادتها لها ،ثم اتخذت في هذه الرحلة الاولى سنة 1899 مسارا دائريا للعودة من حيث بدأت أي لجنيف بسويسرا، أما الرحلة الثانية التي كانت بداية من عام 1900-1901 فقد كانت خطة هذا المسار معدة سلفا وتبدأ هذه الرحلة من كاغلياري بايطاليا ثم تتخذ أيضا مسارا دائريا للعودة مرة أخرى لسويسرا بعد محاولة اغتيالها بالوادي وطرد السلطات الفرنسية لها من الاقاليم الجزائرية ثم تعود مرة أخرى وتقوم برحلة أخيرة ولكن مختلفة

هذه المرة حيث يكون مسارها داخل القطر الجزائري ماعدا زيارتها لوجدة على الحدود المغربية وينتهي بها المطاف بموتها بعين الصفراء سنة 1904.

الرحالة كانت كغيرها من المستشرقين الذين زاروا المنطقة قبلها فهم بيادق للاستعمار عن قصد أو عن غير قصد خدموا المشروع الاستعماري باستكشافهم لهذه المناطق من الجزائر ، فكما استعانت الرحالة بالذين سبقوها ممن اكتشفوا إفريقيا قبلها كأندريه جيد وديفارييه فان الرحالة الذي زاروا هذه المناطق بعدها قد تأثروا بكتابات إيزابيل إبرهارت وبالتقارير التي كتبتها فيعترفون بفضلها في فتح الافاق لهم في اكتشاف هذه المناطق البعيدة و ما ميّز أدب الرحلة عند إيزابيل إبرهادت هو طغيان اليوميات على مشهد هذه الرحلة والتي اضافة الى تعدد المضامين ورصد المشاهد الإثنوغرافية التي طرّزت بها يومياتها وقصصها وخواطرها ،كما كانت تستعمل الرسائل بكثرة في معاملاتها فهي تراسل وتستقبل الرسائل دائما، كما أرّخت في رحلتها هاته إلى مرحلة مهمة من التاريخ الجزائري ، فوصولها إلى الصحراء الجزائرية تزامن مع تمام سيطرة الاستعمار الفرنسي للصحراء بداية من سنة 1890 مع إخماد كل الثورات الشعبية والقضاء عليها ، فأصبح الاستعمار امرا واقعا .

الملاحظ أن إبرهاردت كانت كثيرة المطالعة وشديدة الملاحظة وذكية الاستحضار وكتاباتها سواء أكانت قصصا أو يوميات أو رسائل هي جديرة بالدراسة والبحث .

# summary

Trips are a fertile field, allowing a wide scope for studying travel literature by orientalists who were fascinated by the magic of the East and the strange customs and traditions that they found in other peoples, as well as the historical aspect of unknown periods in the history of peoples. .

As for Isabelle Eberhardt's trip to Algeria, it was prepared in advance in a plan she wrote in Marseille upon her return to Algeria again. The discovery for the first time was a coincidence that later turned into an unfinished passion and love. Her love and fondness for the Algerian desert may be due to her reading of the orientalists who make the desert a magical place. Secrets, mystery, strange practices and unknown rituals, but experiencing them changed her view to turn her life into hell, and this is through her letters to her brother Augustan, as she begged him to help her from the miserable situation she was living during her stay in the valley, for example.

It was the beginnings of an exploratory trip to the depths of the Tunisian south within the framework of an investigation commissioned by the traveler to investigate the murder of the husband of the Marquise de Morder after the traveler got into financial problems during her stay in Paris that made her accept this mission to get money and her access to the Algerian lands and her discovery of these areas was no more than a pure

coincidence that led her Then, in this first trip in 1899, it took a circular path to return from where it began, i.e. to Geneva, Switzerland. As for the second trip, which was the beginning of 1900-1901, the plan for this path was prepared in advance.

This trip begins from Cagliari, Italy, and then takes A circular path to return again to Switzerland after the attempt to assassinate her in the valley and the expulsion of the French authorities from her from the Algerian territories. Then she returns again and takes a last but different trip this time where her path is within the Algerian country, except for her visit to Oujda on the Moroccan border, and she ends up dying in Ain al-Safra in 1904.

The travelers were like other orientalists who visited the region before them. They were pawns of colonialism, intentionally or unintentionally. They served the colonial project by exploring these areas of Algeria. Just as the travelers used those who preceded her who discovered Africa before her, such as André Gide and Devarier, the travelers who visited these regions afterwards were influenced by the writings of Isabel. Eberhart and the reports that she wrote, they acknowledge her thanks in opening the horizons for them in discovering these remote areas. What distinguished the travel literature of Isabel Eberhadt is the tyranny of the diaries on the scene of this journey, which

in addition to the multiplicity of contents and monitoring of the ethnographic scenes that were embroidered

Her diaries, stories, and thoughts, as she used letters frequently in her dealings, she always sends and receives messages, as she chronicled her journey to an important stage in Algerian history. On it, colonialism became a reality.

It is noticeable that Eberhardt was a lot of reading, keen observation and intelligent recall, and her writings, whether stories, diaries or letters, are worthy of study and research.